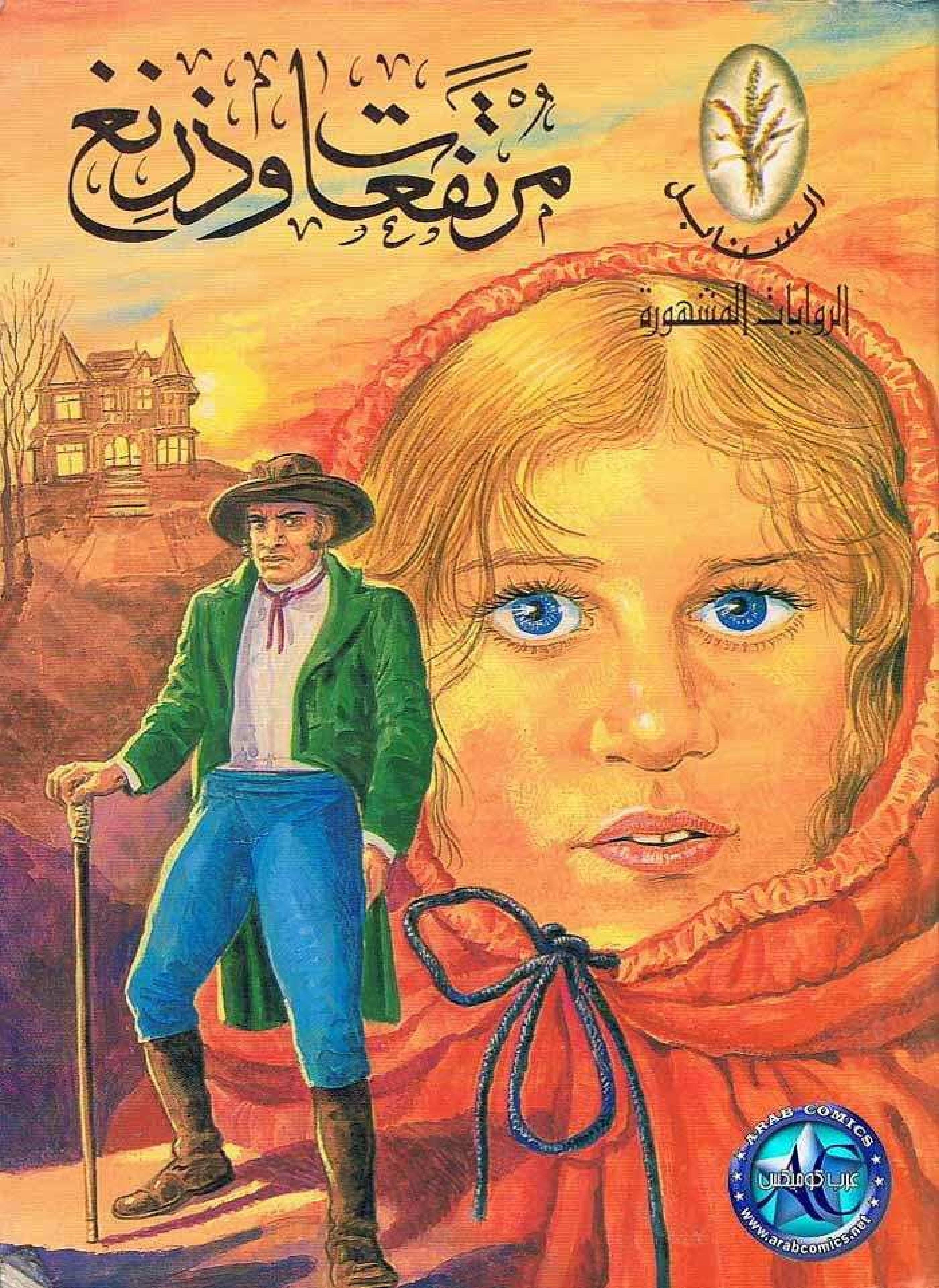

مرتفعات وذرنغ
السنابل
الروايات المشهورة



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

زقاق البلاط - ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٤

رقم الإيداع : ٥٥٩٩ / ١٩٩٣

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٠٩٧ - ٤

طبع في دار نوبار للطباعة





الروايات المشهورة



تأليف : إميلي برونتي

نقلها إلى العربية : الدكتور زاخر غبريال

رسوم : محمد قطب

مكتبة لبنان ناشرون

الفصل الأول

تَقَعُ « مُرْتَفَعاتُ وَذْرِنغ » على رَبْوَةٍ عالِيَةٍ ، تُشْرِفُ على أَرْضٍ قَفْرٍ ، وَتَهُبُّ عَلَيْها – بِصِفَةٍ دائِمَةٍ – رِيحٌ مُنْعِشَةٌ . وَتَعْني كَلِمَةُ وَذْرِنغ – عاصِفاً أَوْ شَديدَ الزَّوابِعِ . وَيُمْكِنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَرى أَثَرَ عَصْفِ رِيحِ الشَّمالِ مِنْ خِلالِ الأَشْجارِ الَّتي تَقِفُ في صَفٍّ مُنْتَظِمٍ إلى جِوارِ المَنْزِلِ ، وَالَّتي تَنْحَني هاماتُها في اتِّجاهٍ واحِدٍ هُوَ اتِّجاهُ الرِّيحِ .

وَقَدْ روعِيَ في بِناءِ المَنْزِلِ أَنْ يَكونَ قَوِيًّا وَراسِخًا حَتّى يُقاوِمَ الرِّيحَ العاتِيَةَ . وَاتَّخَذَ المَنْزِلُ شَكْلاً مُرَبَّعًا مَتينًا ذا نَوافِذَ ضَيِّقَةٍ انْغَرَسَتْ بِطَريقَةٍ مُحْكَمَةٍ في الجُدْرانِ . وَهَكَذا وَقَفَ المَنْزِلُ صامِداً أَمامَ الزَّمَنِ لأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِمائَةِ عامٍ ، وَيُمْكِنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يُشاهِدَ تاريخَ بِنائِهِ مَحْفوراً في حِجارَتِهِ ، وَكَذَلِكَ اسْمَ « هيرتون إيرنشو » .

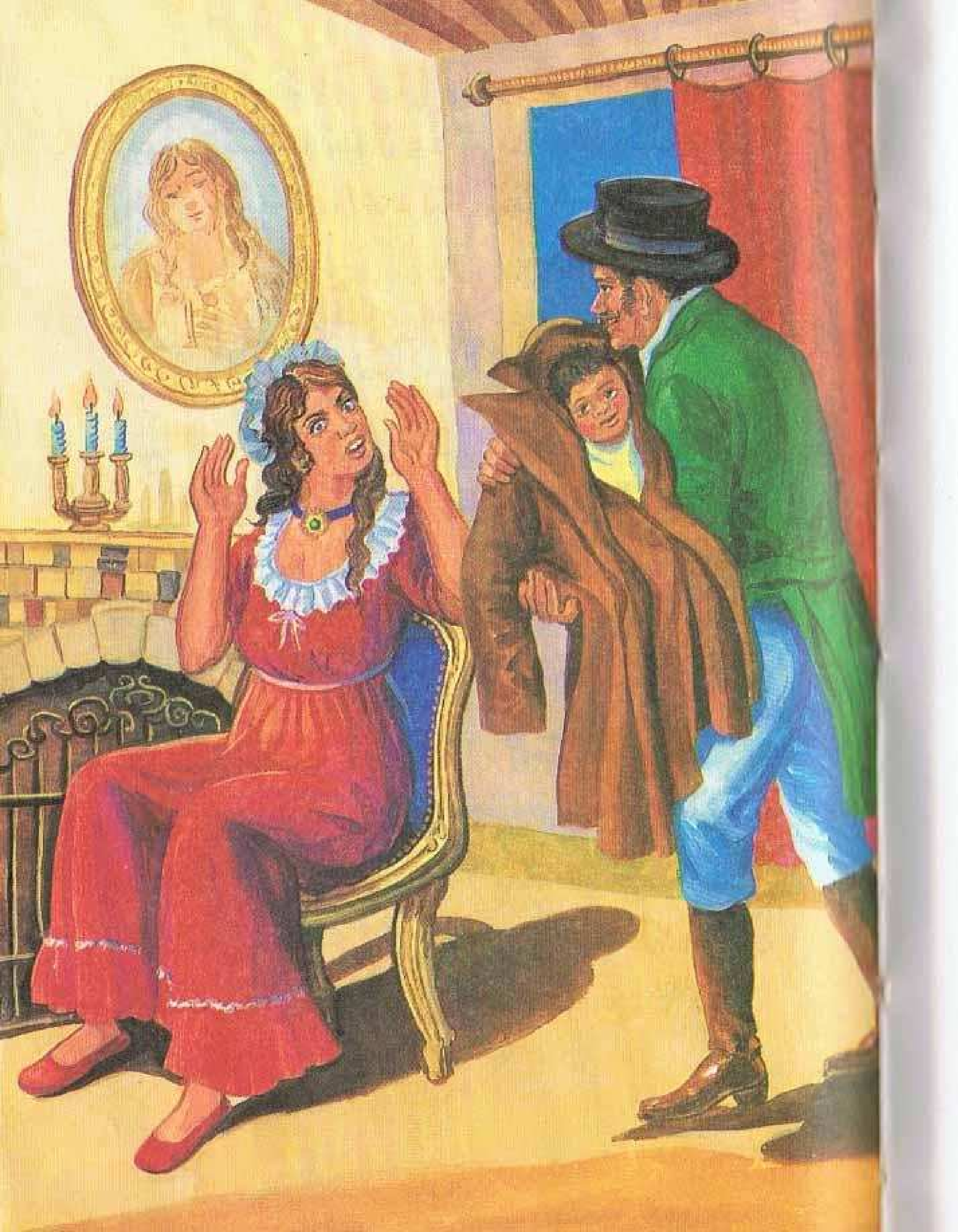
لَقَدْ عاشَ آلُ إيرنشو في المَنْزِلِ طَوالَ هَذا الزَّمَنِ . وَمُنْذُ ثَلاثينَ عاماً – حينَ بَدَأَتْ قِصَّتي تَأْخُذُ مَجْراها – كانَ السَّيِّدُ إيرنشو وَزَوْجَتُهُ يَعيشانِ في هَذا المَنْزِلِ مَعَ ابْنِهِما هندلي وَابْنَتِهِما كاثرين . وَكانَ هندلي حينَذاكَ يَبْلُغُ الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَكاثرين في السّادِسَةِ مِنْ عُمْرِها .

وَلَقَدْ عِشْتُ أَنا ، إلين دين ، في هَذا المَنْزِلِ أَيْضاً ، وَكانَ عُمْري إذْ ذاكَ كَعُمْرِ هندلي ، وَكانَتْ أُمّي تَعْمَلُ خادِمَةً لِهَذِهِ العائِلَةِ . وَهَكَذا عِشْتُ أَنا مَعَ العائِلَةِ أُعاوِنُ في أَعْمالِ المَنْزِلِ وَالحُقولِ ، وَأَلْعَبُ مَعَ الأَطْفالِ .

وَلَكِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ قِصَّتي ، بَلْ قِصَّةُ عائِلَةِ إيرنشو الَّتي سَكَنَتْ في مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ، وَعائِلَةِ لنتون ، الَّتي أَقامَتْ في ثرشكْروس غرانج ، وَلَكِنَّها في الأَغْلَبِ الأَعَمِّ قِصَّةُ هيثكليف .

لَقَدْ غَيَّرَ هيثكليف مَجْرى حَياتِنا مُنْذُ أَنْ وَصَلَ إلى مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ، وَلَنْ أَنْسى أَوَّلَ مَرَّةٍ وَقَعَ عَلَيْهِ نَظَري . كانَ السَّيِّدُ إيرنشو قَدْ سافَرَ إلى ليفربول لِقَضاءِ بَعْضِ المَهامِّ ، وَكانَتْ تِلْكَ تَقَعُ على بُعْدِ تِسْعينَ كيلومِتْراً، وَقَدِ اعْتادَ دائِماً أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْها وَيَعودَ مِنْها.

وَفي آخِرِ مَرَّةٍ ، سافَرَ إِلَيْها حَيْثُ مَكَثَ ثَلاثَةَ أَيّامٍ ، ثُمَّ عادَ إلى



المَنْزِلِ مُجْهَداً ، في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ مَساءِ اليَوْمِ الثَّالِثِ ، وكانَ يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِعْطَفَهُ الَّذي لَفَّهُ بَيْنَ ذِراعَيْهِ .

قالَ السَّيِّدُ إيرنشو – وَهُوَ يَضْحَكُ – وَقَدْ فَكَّ المِعْطَفَ فإذا بِهِ يَحْوي طِفْلاً ، ذا شَعْرٍ أَسْوَدَ و وَجْهٍ مُتَجَهِّمٍ : « تَعالَيْ ، يا زَوْجَتي ، وَانْظُري . يَجِبُ أَنْ تَقْبَلي هَذا الطِّفْلَ على أَنَّهُ مِنْحَةٌ مِنَ اللهِ ، رَغْمَ أَنَّهُ يَبْدو وَكَأَنَّهُ مِنْ لَدُنِ الشَّيْطانِ . »

تَزاحَمْنا حَوْلَ الطِّفلِ نَتَطَلَّعُ إلَيْهِ ، وكانَ يَبْدو أَكْبَرَ مِنْ كاثرين بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَقَدْ حَمْلَقَ في وُجوهِنا جَميعاً ، وَتَلَفَّظَ بِأَلْفاظٍ غَريبَةٍ لَمْ نَسْمَعْ مِثْلَها مِنْ قَبْلُ .

صَرَخَتِ السَّيِّدَةُ إيرنشو في وَجْهِ زَوْجِها : « هَلْ جُنِنْتَ ؟! كَيْفَ أَتَيْتَ بِهَذا المَخْلوقِ العَجيبِ إلى المَنْزِلِ ، وَلَدَيْنا أَطْفالٌ وَعَلَيْنا إِطْعامُهُمْ ؟ »

أَجابَ الزَّوْجُ : « لَمْ تُطاوِعْني نَفْسي أَنْ أَتْرُكَهُ يَموتُ جوعاً ! لَقَدْ وَجَدْتُهُ في شَوارِعِ ليڤربول وَحيداً بِلا مَأْوًى وَلا يَعْرِفُهُ أَيُّ إِنْسانٍ ؛ وَلِذا أَتَيْتُ بِهِ إلى المَنْزِلِ . »

وَطَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَقومَ بِتَنْظيفِهِ وَإِلْباسِهِ رِداءً نَظيفاً ، وَأَجْعَلَهُ يَبيتُ مَعَ أَطْفالِنا ، وَلَكِنَّ الأَطْفالَ رَفَضوا ذَلِكَ كُلِّيَّةً ، كَما رَفَضوا أَنْ يَبيتَ

إلى جِوارِهِمْ في الفِراشِ ، بَلْ رَفَضوا حَتّى أنْ يَبيتَ في غُرْفَتِهِمْ . ورَفَضْتُ أنا أيْضاً أنْ يَبيتَ مَعي ؛ لِذا فَقَدْ وَضَعْتُهُ في المَمَرِّ الخارِجيِّ لِيَبيتَ فيهِ .

كانَ عَلى السَّيِّدَةِ إيرنشو أنْ تُوافِقَ أخيراً عَلى أنْ يَبْقى الطِّفْلُ بالمَنْزِلِ ، وَقَرَّرَتِ العائِلَةُ أنْ تُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمَ هيثكليف وَهُوَ اسْمُ طِفْلٍ آخَرَ تُوُفِّيَ مِنْ قَبْلُ . وَسُرْعانَ ما أصْبَحَتْ كاثرين الصَّغيرَةُ صَديقَةً لَهُ ، ولَكِنَّ هندلي كانَ يُضْمِرُ لَهُ كَراهِيَةً ، فَكانَ يَضْرِبُهُ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ بِقَسْوَةٍ ، وَما كانَ لِهيثكليف الصَّبِيِّ أنْ يَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ أوْ يَجْأَرَ بِشَكْوى ، وَلَقَدْ تَعَوَّدَ مِنْهُ المُعامَلَةَ الفَظَّةَ . وَلَكِنَّ السَّيِّدَ إيرنشو الأبَ الكَبيرَ كانَ ، وَيا لَلْغَرابَةِ ! مُغْرَماً بِهِ ، وَقَدْ عامَلَهُ كَما لَوْ كانَ ابْناً لَهُ ، وَحينَ كانَ يَرى هندلي وَهُوَ يَضْرِبُ الطِّفْلَ البائِسَ يَتيمَ الأبِ – كَما كانَ يَدْعوهُ – كانَ يَثورُ غَضَباً .

وَهَكَذا مُنْذُ البِدايَةِ كانَ هيثكليف سَبَباً في إثارَةِ مَشاعِرَ غَيْرِ سَوِيَّةٍ في المَنْزِلِ ، وَتَفاقَمَتْ هَذِهِ المَشاعِرُ بِمُضِيِّ الزَّمَنِ .

بَعْدَ مُضِيِّ عامَيْنِ تُوُفِّيَتِ السَّيِّدَةُ إيرنشو ، وَكانَ ذَلِكَ الوَقْتُ كافِياً لأنْ يُصَعِّدَ هندلي مِنْ كَراهِيَتِهِ الدّاخِلِيَّةِ لِهيثكليف كَراهَةً لا حَدَّ لَها .

وَلَقَدْ أيَّدْتُ أنا – لِبَعْضِ الوَقْتِ – هندلي في كَراهِيَتِهِ لِهيثكليف ، وَلَكِنْ عِنْدَما رَقَدَ الأطْفالُ الثَّلاثَةُ مَرْضى في الفِراشِ تَغَيَّرَ تَفْكيري إزاءَهُمْ ، فَقَدْ كانَ المَرَضُ خَطيراً ، وَكانَ عَلَيَّ أنْ أرْعاهُمْ في أثْناءِ مَرَضِهِمْ رَغْمَ أنّي كُنْتُ إذْ ذاكَ في السّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْري ، وَكان هيثكليف أشَدَّ الثَّلاثَةِ خَطَراً ، وَلَقَدْ تَعَرَّضَتْ حَياتُهُ – في بَعْضِ أيّامٍ – لِلْخَطَرِ . وَلَكِنْ بَيْنَما حاقَ بِيَ الكَثيرُ مِنَ المَتاعِبِ بِسَبَبِ هندلي وَكاثرين ، كانَ هيثكليف كَالحَمَلِ الوَديعِ مَعي ؛ فَظَلِلْتُ طَوالَ الوَقْتِ إلى جِوارِهِ في فِراشِهِ . وَلَمّا تَحَسَّنَتْ صِحَّتُهُ قالَ الطَّبيبُ إنَّ رِعايَتي لَهُ هِيَ الَّتي أنْقَذَتْهُ مِنْ مَرَضِهِ ؛ فَبَعَثَ هَذا الكَلامُ في نَفْسي السُّرورَ وَرَقَّتْ مَشاعِري تِجاهَ هيثكليف . وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لي بِهِ قِبَلٌ ، فَقَدْ كانَ صَلْفاً صَعْبَ المِراسِ ، فَلَمْ يُظْهِرْ حَتّى مُجَرَّدَ الامْتِنانِ لِلسَّيِّدِ إيرنشو إزاءَ كُلِّ العَطْفِ الَّذي أحاطَهُ بِهِ .

والحَقُّ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُظْهِرَ أيَّةَ مَشاعِرَ لأيِّ إنْسانٍ ما عَدا كاثرين ، وَكانَ يَتَحَمَّلُ مُعامَلَةَ هندلي الفَظَّةَ بِاسْتِسْلامٍ ، الأمْرُ الَّذي دَعاني لأفَكِّرَ أنَّهُ لا يُكِنُّ أيَّةَ نِيَّةٍ لِلانْتِقامِ ، وَلَكِنْ كُنْتُ عَلى خَطَأٍ في هَذا التَّفْكيرِ كَما سَنَرى فيما بَعْدُ .

الفصل الثاني

مَرَّ الزَّمَنُ كَعادَتِهِ ، وَبَدأَتْ صِحَّةُ إيرنشو تَسوءُ ؛ فَقَدْ عاشَ حَياتَهُ نَشِطًا صَحيحَ البَدَنِ . وَلكِنْ فَجْأَةً بَدأَتْ حَيَوِيَّتُهُ تَذْبُلُ وَتَخورُ ، فَلَمْ تَعُدْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلى العَمَلِ في المَزْرَعَةِ ، فَكانَ يَظَلُّ طيلَةَ يَوْمِهِ في مَقْعَدٍ إلى جِوارِ المِدْفَأَةِ في غُرْفَةِ المَعيشَةِ ، وَكانَتْ أَخْلاقُهُ تَسوءُ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ قِبَلٌ بِأَنْ يَسْمَعَ أَيَّةَ كَلِمَةٍ ضِدَّ هيثكليف ، الَّذي كان قَدْ نالَ حُظْوَةً في عَيْنَيْهِ . وَلَمّا كانَ يَسْمَعُ هندلي يُحادِثُهُ بِاحْتِقارٍ كانَ يُمْسِكُ بِعَصاهُ لِيَضْرِبَ ابْنَهُ، وَكانَ يَنْتَفِضُ غَضَبًا عِنْدَما يَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ . وَهَكَذا عَظُمَ كِبْرِياءُ هيثكليف وَبَدأَ طَبْعُهُ يَزْدادُ سوءًا .

وَحينَ بَلَغَ هندلي السّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ ، كانَ لا بُدَّ مِنْ رَحيلِهِ عَنِ القَرْيَةِ لِمُواصَلَةِ دِراسَتِهِ .

رَحَلَ هندلي بَعيدًا عَنِ المَنْزِلِ ، وَكُنْتُ آمَلُ أَنْ نَحْظى بِبَعْضِ الهُدوءِ في المَنْزِلِ . وَلكِنَّ الخادِمَ العَجوزَ جوزيف كانَ مَيّالاً لأَنْ يُثيرَ بَعْضَ المَتاعِبِ ؛ فَقَدْ كانَ رَجُلاً عَجوزًا سَيِّئَ الطَّبْعِ ، وَكانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرى النّاسَ حَوْلَهُ يَتَمَتَّعونَ بِالهُدوءِ . وَلِكَوْنِهِ شَديدَ التَّدَيُّنِ فَقَدْ كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَبْعَثُ عَلى السُّرورِ لَيْسَ إلّا ضَرْبًا مِنَ الفُجورِ ، وَلكِنَّهُ هُوَ نَفْسَهُ كانَ يَجِدُ لَذَّةً في تَوْجيهِ الاتِّهامِ لِغَيْرِهِ مِنَ البَشَرِ ، فَكانَ كَثيرًا ما يَشْكو مِنْ كاثرين وَهيثكليف ، وَعَلى وَجْهِ الخُصوصِ كاثرين .

كانَتْ أَكْثَرَ الأَطْفالِ الَّذينَ رَأَيْتُهُمْ تَمَيُّزًا بِالشَّراسَةِ ، عَلى حينِ كانَتْ تَتَدَفَّقُ دائِمًا بِالنَّشاطِ وَالحَيَوِيَّةِ . وَكانَتْ لا تَكُفُّ أَبَدًا عَنِ الغِناءِ وَالضَّحِكِ وَالحَديثِ . وَكانَتْ تَقَعُ فَريسَةً لِلْمَتاعِبِ خَمْسينَ مَرَّةً كُلَّ يَوْمٍ ، وَيَبْدو أَنَّها كانَتْ تَهْوى إغْضابَنا بِتَصَرُّفِها السَّيِّئِ .

وَلكِنَّها كانَتْ تَمْتَلِكُ أَجْمَلَ عَيْنَيْنِ وَأَجْمَلَ ابْتِسامَةٍ ، وَلا أَعْتَقِدُ أَنَّها كانَتْ تَقْصِدُ إيذاءَ مَشاعِرِنا بِأَيِّ شَكْلٍ مِنَ الأَشْكالِ .

كانَتْ مُولَعَةً بِهيثكليف بِلا حُدودٍ ، وَكانَتْ أَشَدَّ عُقوبَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَنالَها أَنْ نُبْعِدَها عَنْهُ . وَكانَتْ تَهْوى القِيامَ بِلُعْبَةٍ مَعَهُ ، تَلْعَبُ هِيَ فيها دَوْرَ السَّيِّدَةِ المُطاعَةِ وَهُوَ دَوْرَ الخادِمِ المُطيعِ ، حَيْثُ تُلْقي

الأوامِرَ ، وَتُشيرُ بِأصْبَعِها هُنا وَهُناكَ ، وَهُوَ يَجْري إلى حَيْثُ تُشيرُ لِتَنْفيذِ أوامِرِها .

كانَ السَّيِّدُ إيرنشو جادًّا ، وَلَمْ يَكُنْ خَبيرًا بِألْعابِ الأطْفالِ ، وَحينَ كانَ يَرى كاثرين تُلْقي الأوامِرَ لِهيثكليف مِنْ حَوْلِنا – كانَ يَتَمَيَّزُ غَيْظًا .

وَكانَتْ في بَعْضِ الأحْيانِ تَأتي إلَيْهِ عَصْرًا ، عَقِبَ تَصَرُّفاتِها المُسيئَةِ إلى أقْصى حَدٍّ طَوالَ اليَوْمِ فَتَلُفُّ ذِراعَيْها حَوْلَ عُنُقِه .

وَكانَ الرَّجُلُ العَجوزُ يَنْهَرُها إذْ ذاكَ قائِلاً : « لا ، يا كاثي ، لا يُمْكِنُني أنْ أحِبَّكِ ، وَكَمْ أكونُ آسِفًا حينَ تَأتي ابْنَتي بِمِثْلِ هَذِهِ التَّصَرُّفاتِ !»

كانَ ذَلِكَ أوَّلَ الأمْرِ يَجْعَلُها تَبْكي ، وَلَكِنَّ قَسْوَتَهُ غَرَسَتْ فيها القَسْوَةَ ، فَكانَتْ تَضْحَكُ بَدَلَ أنْ تَبْكي .

لَقَدْ حانَتِ السّاعَةُ أخيرًا الَّتي أنْهَتْ مَتاعِبَ السَّيِّدِ إيرنشو عَلى ظَهْرِ البَسيطَةِ ؛ حَدَثَ ذَلِكَ في إحْدى أمْسِيّاتِ أكْتوبَر ، حينَ كانَ جالِسًا في كُرْسيِّهِ بِجِوارِ المِدْفَأةِ ، إذْ هَبَّتْ ريحٌ شَديدَةٌ حَوْلَ المَنْزِلِ فَأثارَتْ ضَجَّةً في المِدْخَنَةِ ، ثُمَّ سُمِعَ لَها أزيزٌ كَقَصْفِ العاصِفَةِ رَغْمَ أنَّ الجَوَّ لَمْ يَكُنْ بارِدًا .

لَمْ تَكُنْ صِحَّةُ كاثرين عَلى ما يُرامُ ، الأمْرُ الَّذي جَعَلَها تَظَلُّ ساكِنَةً هادِئَةً . وَكانَتْ تَجْلِسُ تَحْتَ قَدَمَيْ والِدِها ، وَكانَ هيثكليف يَرْقُدُ عَلى الأرْضِ وَقَدْ أحْنى رَأسَهُ عَلى رُكْبَتِها .

لَمَسَ السَّيِّدُ إيرنشو شَعْرَها الجَميلَ قائِلاً : « لِماذا لا يُمْكِنُكِ أنْ تَكوني فَتاةً طَيِّبَةً عَلى الدَّوامِ ، يا كاثي ؟»

أدارَتْ كاثي وَجْهَها نَحْوَهُ ، وَابْتَسَمَتْ وَهِيَ تُجيبُهُ قائِلَةً : « لِماذا لا يُمْكِنُكَ أنْ تَكونَ ، يا أبي ، رَجُلاً طَيِّبًا عَلى الدَّوامِ ؟» وَلَكِنْ حينَ رَأتْ أنَّهُ عادَ إلى غَضَبِهِ مَرَّةً أخْرى ؛ قَبَّلَتْ يَدَهُ قائِلَةً إنَّها سَوْفَ تُغَنِّي لَهُ بَعْضَ الأغانيِّ حَتّى يَخْلُدَ إلى النَّوْمِ .

بَدَأتْ تُغَنِّي بِعُذوبَةٍ إلى أنْ سَقَطَتْ أصابِعُهُ مِنْ أصابِعِها وَاسْتَراحَ رَأسُهُ عَلى صَدْرِهِ ، حينَئِذٍ طَلَبْتُ مِنْها أنْ تَهْدَأ حَتّى لا توقِظَهُ ، وَهَدَأ الجَمْعُ تَمامًا لِمُدَّةِ نِصْفِ السّاعَةِ ، ثُمَّ قالَ جوزيف : « لَقَدْ أزِفَ الوَقْتُ ، لِنَهُمَّ بِالصَّلاةِ وَالنَّوْمِ .»

نادى جوزيف سَيِّدَ المَنْزِلِ إيرنشو وَلَمَسَ كَتِفَهُ ، إلّا أنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ وَلَمْ يُجِبْ ، وَمِنْ ثَمَّ أخَذَ جوزيف شَمْعَةً مُضيئَةً وَتَفَرَّسَ في وَجْهِهِ ، فَظَنَنْتُ أنَّ هُناكَ شَيْئًا ما سَيِّئًا حينَ أطْفَأ الشَّمْعَةَ وَأمْسَكَ بِالطِّفْلَيْنِ ، كُلٌّ بِإحْدى يَدَيْهِ ، وَهَمَسَ لَهُما بِأنْ يَذْهَبا بِنَفْسَيْهِما

إلى الفراشِ في تلكَ اللّيْلَةِ .

قالَتْ كاثرين إنّها سوْفَ تتمنّى لوالدِها أوّلاً ليْلةً سَعيدةً ، وَمِنْ ثمَّ وَضعَتْ ذِراعَيْها حَوْلَ عُنُقِهِ . وَفَجْأةً انْطَلَقَتْ منها صَرْخَةٌ مُدَوِّيَةٌ: « آهٍ ! لَقدْ ماتَ ، يا هيثكليف ! لَقدْ ماتَ !»

بَدأَ الطِّفْلانِ يَبْكيانِ بِحُرْقَةٍ ، وَبَدأْتُ أنا أبْكي أيْضاً ، أمّا جُوزيف فَقَدْ طَلَبَ إليَّ بأنْ أسْرِعَ إلى القَرْيَةِ لإحْضارِ الطَّبيبِ وَشَيْخِ القَرْيَةِ، وَلَمْ أسْتَطِعْ أنْ أتبيَّنَ جَدْوى اسْتِدْعاءِ أيٍّ مِنْهُما . وَلَكِنّني ذَهَبْتُ بَيْنَ ريحٍ عاصِفَةٍ وَمَطَرٍ غَزيرٍ ، فَأحْضَرْتُ الطَّبيبَ مَعي ، أمّا شَيْخُ القَرْيَةِ فَقَدْ وَعَدَ بِأنْ يَحْضُرَ في الصَّباحِ .

تَرَكْتُ الطَّبيبَ وَجُوزيف وَأسْرَعْتُ إلى غُرْفَةِ الطِّفْلَيْنِ ، وَكانَ بابُ الغُرْفَةِ مَفْتوحاً ، وَأدْرَكْتُ أنّهُما لَمْ يَخْلُدا إلى فِراشَيْهِما بَعْدُ ، رَغْمَ أنَّ السّاعَةَ قَدْ جاوَزَتْ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ ، وَلَكِنّهُما كانا أكْثَرَ هُدوءاً وَلَمْ يَكونا بِحاجَةٍ إليَّ لأبْعَثَ فيهِما الدِّفْءَ وَالحَنانَ ، ولكنّهُما كانا يُؤْنِسانِ مَجْلِسَهُما بِحَديثٍ عَنِ السَّماءِ .

دُفِنَ السَّيِّدُ إيرنشو بَعْدَ مُضِيِّ ثَلاثَةِ أيّامٍ ، وَقَدْ وَصَلَ هندلي إلى المَنْزِلِ لِيَكونَ حاضِراً دَفْنَهُ ، وَقَدْ فاجَأنا بِإحْضارِ زَوْجِهِ مَعَهُ .

كانَتْ هَذِهِ الزَّوْجَةُ تَبْدو فَتاةً شابَّةً يَرْتاحُ المَرْءُ لِمَرْآها ، وَلَكِنَّها

كانَتْ في الوَقْتِ نَفْسِهِ تَبْدو بَلْهاءَ إلى حَدٍّ ما ، فَالاسْتِعْداداتُ لِلدَّفْنِ عَكَّرَ صَفْوَها كَثيراً ، فَبَدأتْ تَبْكي ، وَسَألْتُها عَمّا عَسى أنْ يَكونَ قَدْ بَعَثَ في نَفْسِها الأسى .

أجابَتْ : « لا أدري ، وَلَكِنّني أخْشى المَوْتَ .»

كانَتْ فَتاةً نَحيلَةَ القَوامِ ذاتَ عَيْنَيْنِ مُشْرِقَتَيْنِ ، وَقَدْ أنْهَكَ طُلوعُها السُّلَّمَ قُواها ، وَأخَذَتْ تَسْعُلُ مَرَّةً بَعْدَ الأخْرى . وَلَكِنّني لَمْ أكُنْ أدْرِكُ أنَّ ذَلِكَ مُؤَشِّرٌ لِمَرَضٍ خَطيرٍ ، وَجالَ بِخاطِري أنّها مِثْلي ، لَيْسَتْ في خَطَرِ المَوْتِ .

تَغَيَّرَ السَّيِّدُ هندلي كَثيراً خِلالَ ثَلاثِ سَنَواتٍ ، فَقَدَ بَدأ حَديثُهُ وَارْتِداؤُهُ مَلابِسَهُ يَخْتَلِفُ عَنْ ذي قَبْلُ . وَاعْتَبَرَ نَفْسَهُ مِنْ طائِفَةِ النُّبَلاءِ الأصْلاءِ . وَقَدْ غَدا الآنَ سَيِّدَ المَنْزِلِ ، وَبَدأ يُعامِلُ هيثكليف وَفْقَ مِزاجِهِ الخاصِّ ، فَأصْدَرَ أوامِرَهُ بِأنْ يُجالِسَ هيثكليف الخَدَمَ لا أفْرادَ العائِلَةِ ، وَألْغى دُروسَهُ مَعَ شَيْخِ القَرْيَةِ ، وَبَعَثَ بِهِ – بَدَلاً مِنْ ذَلِكَ – إلى المَزْرَعَةِ لِيَعْمَلَ فيها .

لَمْ يَكْتَرِثْ هيثكليف أوَّلَ الأمْرِ بِهَذا التَّغْييرِ ؛ لأنَّ كاثرين كانَتْ تُعَلِّمُهُ ما أصابَتْهُ هِيَ مِنْ مَعْلوماتٍ ، وَكانَتْ تَعْمَلُ أوْ تَلْعَبُ مَعَهُ في الحُقولِ . وَكانا كِلاهُما إذْ ذاكَ غَشيماً فَظّاً ، وَلَمْ يَعْبأ سَيِّدُ

المَنْزِلِ الشّابُّ هندلي بِسوءِ تَصَرُّفِهِما ، وَلَكِنْ حينَ بَثَّ جُوزيف شَكْوى ضِدَّهُما ضَجِرَ مِنْهُما سَيِّدُ المَنْزِلِ وَأَمَرَ بِمُعاقَبَتِهِما .

كانَ اللَّعِبُ في الأَراضي القَفْرِ في الصَّباحِ ، وَقَضاءُ اليَوْمِ بِطولِهِ هُناكَ – هُوَ مَبْعَثَ سُرورِهِما وَتَسْلِيَتِهِما ؛ وَلِذا فَإِنَّ العُقوبَةَ الَّتي تُصيبُهُما بَعْدَ ذَلِكَ كانَتْ مَصْدَرَ ضَحِكٍ وَسُخْرِيَةٍ لَهُما . وَهَكَذا فَمَهْما حَدَثَ لَهُما مِنْ عُقوباتٍ كانا يَنْسَيانِها حالَما يَجْتَمِعانِ مَعًا فيما بَعْدُ .

الفصل الثالث

في أَحَدِ أَيّامِ الآحادِ المُمْطِرَةِ صَدَرَ الأَمْرُ لِكاثرين وَهيثكليف بِأَنْ يُغادِرا غُرْفَةَ الجُلوسِ ، وَيَذْهَبا إِلى المَطْبَخِ ، عِقابًا لَهُما على ما أَحْدَثاهُ مِنْ جَلَبَةٍ . ولَمّا ذَهَبْتُ لأَدْعُوَهُما إِلى العَشاءِ وَنادَيْتُهُما بِصَوْتٍ عالٍ لَمْ أَسْمَعْ رَدًّا لِندائي ، فَبَحَثْنا عَنْهُما – دونَ جَدْوى – في المَنْزِلِ وَخارِجَ المَنْزِلِ وَالمَزْرَعَةِ . وَأَخيرًا اسْتَوْلَتْ عَلى هندلي مَوْجَةٌ مِنَ الغَضَبِ ، بَلَغَتْ حَدًّا جَعَلَهُ يَأْمُرُنا بِأَنْ نُغْلِقَ جَميعَ الأَبْوابِ لِمَنْعِهِما مِنَ الدُّخولِ .

ذَهَبَ الجَميعُ إِلى الفِراشِ إِلّا أَنا ، فَقَدْ بَرَزْتُ بِرَأْسي خارِجَ النّافِذَةِ رَغْمَ أَنَّ الجَوَّ كانَ مُمْطِرًا ؛ لأُرْهِفَ السَّمْعَ لأَيِّ صَوْتٍ يَطْرُقُ أُذُني . وَبَعْدَ قَليلٍ سَمِعْتُ وَقْعَ خُطًى فَأَسْرَعْتُ لأَمْنَعَ الأَطْفالَ مِنْ إِيقاظِ هندلي إِذا ما طَرَقوا البابَ . و كانَتْ خُطى هيثكليف

وَحْدَهُ ، فَسَأَلْتُهُ صائِحَةً : « أَيْنَ الآنِسَةُ كاثرين ؟»

أجابَ : « إنَّها في ثرشكروس غرانج . اِسْمَحي لي أَنْ أَخْلَعَ مَلابِسي ، وَسَأَحْكي لَكِ كُلَّ ما حَدَثَ .»

ذَهَبْنا إِلى داخِلِ المَنْزِلِ وَبَدَأَ قِصَّتَهُ :

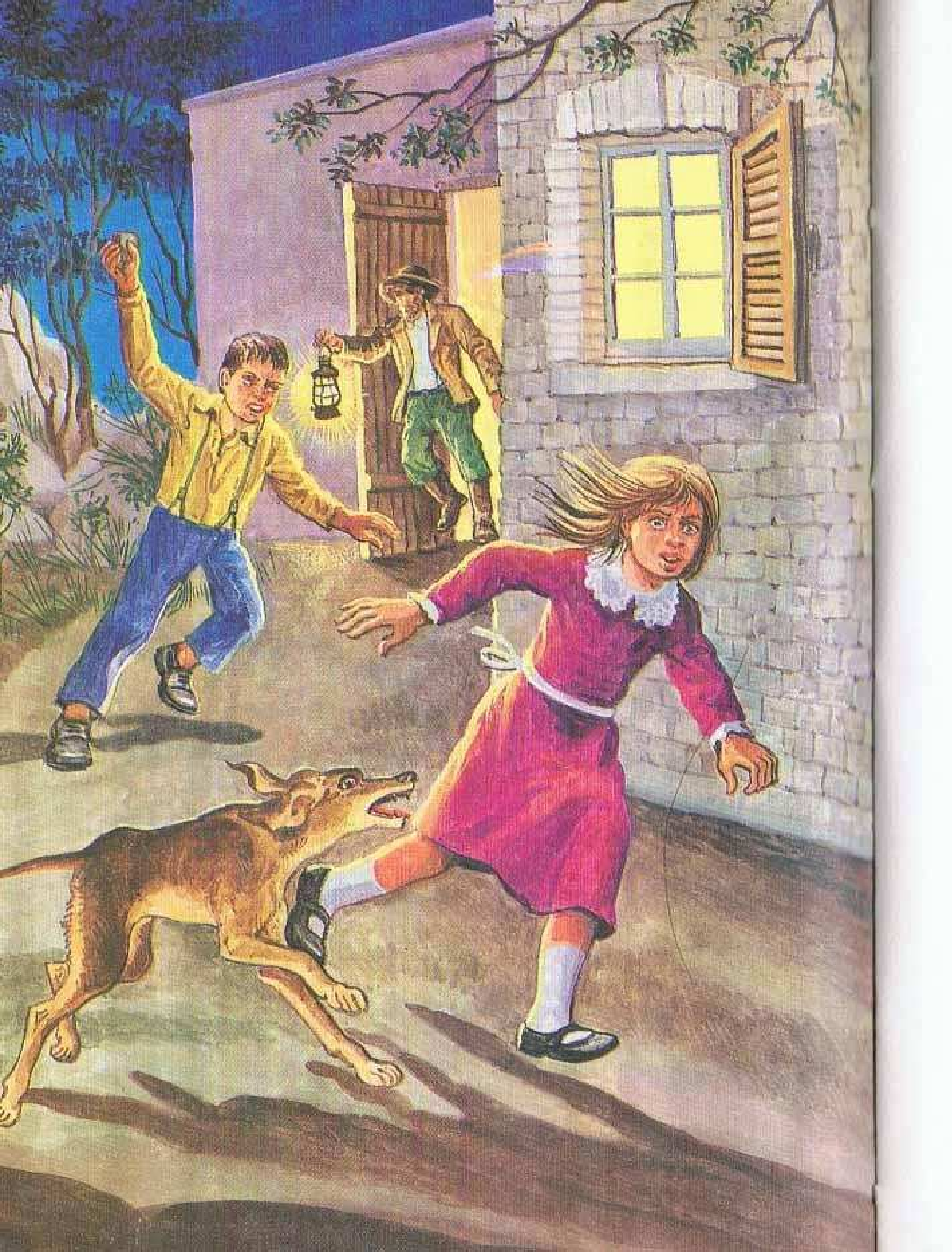
« هَرَبَتْ كاثرين مَعي مِنَ المَطْبَخِ ، و كانَ الجَوُّ مُمْطِرًا ، وَلكِنَّنا أَخَذْنا نَعْدو إِلى الأَرْضِ القَفْرِ ، وَلَمَحْنا أَنْوارَ ثرشكروس غرانج وَقَرَّرْنا أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ تَقْضي عائِلَةُ لنتون أَمْسِيّاتِ أَيامِ الآحادِ . هَلْ تَظُنّينَ أَنَّهُمْ خُلِقوا لِيَقِفوا في الأَماكِنِ البارِدَةِ ، على حينِ يَأْكُلُ آباؤُهُمْ وَيَشْرَبونَ بِجِوارِ المِدْفَأَةِ ؟ وَهَلْ خُلِقوا لِيَحْفَظوا صَفَحاتٍ مِنَ الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ؟»

أَجَبْتُ : « أَغْلَبُ الظَّنِّ .. لا ؛ فَهُمْ أَطْفالٌ طَيِّبونَ بِلا شَكٍّ ، وَلا يَسْتَحِقّونَ مِثْلَ هَذِهِ المُعامَلَةِ الَّتي تُعامَلُ أَنْتَ بِها لِسوءِ تَصَرُّفاتِكَ .»

« وَنَحْنُ لا نَسْتَحِقُّها ! وَأَنْتِ تَعْلَمينَ ذَلِكَ تَماماً ، يا إيلين . لَقَدْ أَخَذْنا نَعْدو مِنْ مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنغ إِلى المُتَنَزَّهِ دونَ تَوَقُّفٍ ، وَفي هَذا السِّباقِ هُزِمَت كاثرين تَماماً ؛ لأَنَّها فَقَدَتْ حِذاءَها في الأَرْضِ القَفْرِ . وَتَسَلَّقْنا الجِدارَ إِلى المُتَنَزَّهِ ، وَاتَّخَذْنا الطَّريقَ إِلى المَنْزِلِ ، وَ وَقَفْنا تَحْتَ نافِذَةِ غُرْفَةِ الجُلوسِ ، وَكانَ الضَّوْءُ يَأْتي إِلَيْنا مِنْ هَذِهِ

الغُرْفَةِ ، وَكانَتِ السَّتائِرُ شِبْهَ مُسْدَلَةٍ ، و مَدَدْنا رَأْسَيْنا إِلى أَعْلى لِنَرى ما بِالدّاخِلِ ، وكانَ شَيْئًا جَميلاً ! غُرْفَةٌ فاخِرَةٌ بِسَجّادَةٍ حَمْراءَ كَثيفَةٍ ، وَبِها مَقاعِدُ وَمَناضِدُ بِأَغْطِيَةٍ حَمْراءَ سَميكَةٍ ، وَلَها سَقْفٌ أَبْيَضُ ناصِعُ البَياضِ ، حافاتُهُ مُوَشّاةٌ بِالذَّهَبِ ، وَقَدْ تَدَلَّتْ ثُرَيّا ذاتُ ضَوْءٍ باهِرٍ مِنْ وَسَطِ السَّقْفِ ، بِسَلاسِلَ فِضِّيَّةٍ مُزَيَّنَةٍ بِقِطَعٍ زُجاجِيَّةٍ وَبَعْضِ الشُّموعِ الصَّغيرَةِ ذاتِ الضَّوْءِ الهادِئِ .

« لَمْ يَكُنِ السَّيِّدُ لنتون وَلا زَوْجَتُهُ مَوْجودَيْنِ هُناكَ ، وَكانَ إدغار وَأُخْتُهُ يَجْلِسانِ وَحيدَيْنِ في الغُرْفَةِ الكُبْرى ، أَ لا تَرَيْ أَنَّهُما يَجِبُ أَنْ يَكونا سَعيدَيْنِ ؟ وَلكِنْ ماذا تَعْتَقِدينَ كانا يَفْعَلانِ ؟ إيزابيلا كانَتْ تَفْتَرِشُ أَرْضِيَّةَ الغُرْفَةِ وَهِيَ تَصْرُخُ عالِيًا ، وَهِيَ تَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ أَحَدَ عَشَرَ عاماً ؛ فَهِيَ أَصْغَرُ مِنْ كاثرين بِعامٍ واحِدٍ . وَكانَ إدغار يَقِفُ إِلى جِوارِ المِدْفَأَةِ وَهُوَ يَبْكي في صَمْتٍ ، وَكانَ ثَمَّ كَلْبٌ صَغيرٌ يَجْلِسُ وَسَطَ المِنْضَدَةِ ، رافِعًا قَدَمَهُ في أَلَمٍ . لَقَدْ كانا في صِراعٍ : أَيُّهُما لَهُ الحَقُّ في أَنْ يُمْسِكَ الكَلْبَ ؟ فَقَهْقَهْنا عالِيًا عَلى مِثْلِ هَذِهِ التَّفاهاتِ . يَجِبُ أَلا نُضَيِّعَ وَقْتَنا في الصِّياحِ وَالعِراكِ . وَلَنْ أَتَشَبَّثَ بِما تُريدُهُ كاثرين ، وَلَنْ أَتَبادَلَ المَواقِفَ مَعَ لنتون لِقاءَ أَيِّ ثَمَنٍ – وَلا حَتّى مِنْ أَجْلِ إِعْطائي الحَقَّ في دِهانِ واجِهَةِ المَنْزِلِ بِدِماءِ هندلي !»



قُلْتُ لَهُ : « يَجِبُ ألا تَتَفَوَّهَ بِمِثْلِ هَذِهِ المُنغصاتِ . إنَّكَ لَمْ تُخْبِرْني إلى الآنَ لِماذا تَخَلَّفَتْ كاثرين عَنْكَ ؟ »

أجابَ : « لَقَدْ أخبَرْتُكَ أنّنا كُنّا نَضْحَكُ فَسَمِعَتْ عائلَةُ لنتون ضَحِكَنا ، وَانْدَفَعَ بَعْضُ أطْفالِها إلى البابِ وَهُمْ يَصيحونَ : « أمّاهُ أمّاهُ ، تَعاليْ إلى هُنا ! أدْرِكْنا يا أبي ! » لَقَدْ أحْدَثْنا ضَجيجاً مُثيراً لِتَرْويعِهِمْ أكْثَرَ فَأكْثَرَ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أطْلَقْنا سيقانَنا لِلرّيحِ .

« اِنْفَتَحَ البابُ الأماميُّ وَسَمِعْنا نُباحَ كَلْبٍ غاضِبٍ ، فَتَهاوَتْ كاثرين عَلى الأرْضِ وَهَمَسَتْ : « الفِرارَ ، يا هيثكليف ، الفِرارَ ! لَقَدْ لَحِقَني الكَلْبُ ! » وَقَبَضَ الكَلْبُ المُتَوَحِّشُ على قَدَمِها بِأسْنانِهِ ، وَكانَتْ هِيَ أشْجَعَ مِنْ أنْ تَصْرُخَ ، وَلَكِنّي أنا صَرَخْتُ وَزَجَرْتُهُ وَألْقَمْتُهُ حَجَراً في فَمِهِ .

« جاءَ خادِمٌ يُهَرْوِلُ مُمْسِكاً بِمِصْباحٍ ، وَنادى الكَلْبَ وَحَمَلَ كاثرين – وَكانَتْ مِنْ فَرْطِ الألَمِ قَدْ أُغْمِيَ عَلَيْها – إلى داخِلِ المَنْزِلِ ، وَتَبِعْتُهُما وَأنا أتَوَعَّدُ وَألْعَنُ .

« كانَ السَّيِّدُ لنتون يَقِفُ في الطَّريقِ المُؤَدِّيَةِ إلى البابِ ، فَقالَ لَهُ الخادِمُ : « لَقَدْ أمْسَكَ الكَلْبُ ، يا سَيِّدي ، بِطِفْلَةٍ ، وَها هُوَ ذا صَبِيٌّ فَظٌّ . إنَّني موقِنٌ مِنْ أنَّهُما لِصّانِ . »

« لَقَدْ جَذَبوني حَيْثُ وَضَعوني تَحْتَ الضَّوْءِ لِيُحَدِّقوا إلى سَحْنَتي، فَقال السَّيِّدُ لنتون : «« لَكَمْ يَبْدو داكِنًا وَشِرّيرًا !»» وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَتَّحَتْ كاثرين عَيْنَيْها ، وَبَدَأَ إدغار يُحَدِّقُ إلَيْها ، وَهَمَسَ قائِلاً : «« هٰذِهِ الفَتاةُ ، يا أُمّي ، هِيَ بِنْتُ إيرنشو . اُنْظُري ، لَقَدْ عَقَرَها الكَلْبُ .»»

« صاحَتْ أُمُّهُ : «« أَ هٰذِهِ ابْنَةُ إيرنشو ، تَتَسَكَّعُ هُنا وَهُناكَ ، بِدونِ حِذاءٍ ؟ هٰذا مُحالٌ ! وَرَغْمَ ذٰلِكَ فَإِنّي أَعْتَقِدُ أَنَّها هِيَ !»»

« صاحَ السَّيِّدُ لنتون : «« كَيْفَ يَسْمَحُ أَخوها بِأَمْرٍ كَهٰذا ؛ وَمَنْ هٰذا الصَّبِيُّ الفَظُّ ؟ لا بُدَّ أَنَّهُ ذٰلِكَ الطِّفْلُ الصَّغيرُ الَّذي أَتى بِهِ الأَبُ إيرنشو مِنْ ليفربول .»»

« قالَتْ زَوْجَةُ لنتون : «« إِنَّهُ قَطْعًا لَصَبِيٌّ شَقِيٌّ . هَلْ سَمِعْتَ لَهْجَتَهُ الفَظَّةَ الفَظيعَةَ ؟ إِنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقيمَ في مَنْزِلٍ مُحْتَرَمٍ !»»

« رُحْتُ أَسُبُّ مَرَّةً أُخْرى ، فَصَدَرَ الأَمْرُ لِلْخادِمِ بِأَنْ يُقْصيني بَعيدًا ، فَرَفَضْتُ أَنْ أَتَحَرَّكَ بِدونِ كاثرين، وَلٰكِنَّهُ دَفَعَني خارِجَ المَنْزِلِ وَأَغْلَقَ البابَ . وكانَتِ السَّتائِرُ في نافِذَةِ غُرْفَةِ الجُلوسِ لا تَزالُ مَرْفوعَةً ، فَذَهَبْتُ لأُلْقِيَ نَظْرَةً مَرَّةً أُخْرى ؛ كُنْتُ أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ ماذا

كانوا يَصْنَعونَ بِكاثرين !

« كانَتْ كاثرين جالِسَةً عَلى السَّجّادَةِ في هُدوءٍ ، عَلى حينِ كانَتْ زَوْجَةُ لنتون تَتَحَدَّثُ إِلَيْها وَهِيَ تَهُزُّ رَأْسَها ، ثُمَّ أَحْضَرَ الخادِمُ وِعاءً بِهِ ماءٌ دافِئٌ وَغَسَلَ قَدَمَيْها ، وَأَعْطاها السَّيِّدُ لنتون شَيْئًا لِتَشْرَبَهُ ، وَأَحْضَرَتْ إيزابيلا طَبَقًا مِنَ الكَعْكِ بَيْنَ يَدَيْها ، وَكانَ إدغار يُحَمْلِقُ إِلَيْها . ثُمَّ جَفَّفوا شَعْرَها الجَميلَ وَمَشَّطوهُ ، وَقَدْ لَمَسْتُ أَنَّهُمْ يُحِبّونَها ، فَهِيَ تَفْضُلُهُمْ جَميعًا بِآلافِ المَرّاتِ ، بَلْ تَفْضُلُ كُلَّ مَنْ يَعيشُ عَلى ظَهْرِ الأَرْضِ . أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ، يا إلين ؟»

قُلْتُ : « إِنَّ ذٰلِكَ لَمَصْدَرُ ما يَسْتَجِدُّ مِنْ مَتاعِبَ .»

وَكُنْتُ عَلى حَقٍّ فيما أَقولُ ؛ فَقَدْ ثارَ هندلي غاضِبًا .

وَفي اليَوْمِ التّالي زارَنا السَّيِّدُ لِنتون نَفْسُهُ ، وَقالَ إِنَّهُ يَعْتِبُ عَلى سَيِّدِ البَيْتِ الأَصْغَرِ عُمْرًا عَلى الطَّريقَةِ الَّتي يَرْعى بِها العائِلَةَ . وَنَتيجَةً لِذٰلِكَ فَقَدْ أَخْبَرَ هندلي هيثكليف بِأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَبْتَعِدَ تَمامًا عَنْ كاثرين حينَ تَعودُ إِلى المَنْزِلِ .

الفصل الرابع

بَقيتْ كاثرين في ثرشكروس غرانج لِمُدَّةِ خَمْسَةِ أسابيعَ ، شُفيَتْ خِلالَها قَدَمُها مِمّا أصابَها ، وَتَحَسَّنَتْ حالَتُها العامَّةُ . وَكانَتِ السَّيِّدَةُ إيرنشو تَزورُها مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ ، وَتُمِدُّها بِبَعْضِ المَلابِسِ الأنيقَةِ الجَديدَةِ . وَحينَ عادَتْ إلى المَنْزِلِ أصْبَحَتْ شَيْئًا آخَرَ مُخْتَلِفًا ، لا تَمُتُّ بِصِلَةٍ لِلْفَتاةِ الصَّغيرَةِ شَديدَةِ الضَّراوَةِ ، وَلَكِنَّها أصْبَحَتْ شابَّةً . وَقَدْ صاحَ هندلي وَالحُبورُ مِلْءُ وَجْهِهِ وَهُوَ يَضَعُها مِنْ فَوْقِ حِصانِها : « كَمْ أنْتِ جَميلَةٌ ، يا كاثي !»

وَنَبَحَتِ الكِلابُ لِتَحِيَّتِها ، وَلَكِنَّها كانَتْ تَخْشى أنْ تَقْتَرِبَ مِنْها خَشْيَةَ أنْ تُتْلِفَ رِداءَها الأنيقَ الحَريرِيَّ . وَقَدْ قَبَّلَتْني بِرِقَّةٍ ، وَحينَئِذٍ بَدَأَتْ تَتَطَلَّعُ مِنْ حَوْلِنا إلى هيثكليف وَلَمْ يَكُنْ يُرى لأَوَّلِ وَهْلَةٍ ؛ فَقَدْ أصْبَحَ في غِيابِ كاثرين أكْثَرَ قَذارَةً وَفَوْضى عَنْ ذي قَبْلُ ،

وَالآنَ وَبَعْدَ أنْ رَأى هَذِهِ الفَتاةَ الجَميلَةَ المُشْرِقَةَ ، خَجِلَ أنْ يُظْهِرَ نَفْسَهُ أمامَها .

سَأَلَتْ كاثرين عَمّا إذا كانَ هيثكليف مَوْجودًا ، فَنادى هندلي هيثكليف لِيُبْرِزَ نَفْسَهُ ، قائِلاً لَهُ : « أجْدَرُ بِكَ أنْ تُحَيِّيَ كاثرين كَسائِرِ الخَدَمِ .»

وَلَمَحَتْهُ كاثرين في رُكْنِهِ المُعْتِمِ فَأَسْرَعَتْ إلَيْهِ ، وَطَوَّقَتْهُ بِذِراعَيْها ، وَأمْطَرَتْهُ بِسَبْعٍ أوْ ثَماني قُبُلاتٍ سَريعَةٍ ، ثُمَّ اعْتَدَلَتْ واقِفَةً ، وَبَدَأَتْ تَضْحَكُ قائِلَةً : « ما هَذا ؟ كَمْ تَبْدو مُتَجَهِّمًا عابِسًا ! وَكَمْ أنْتَ مُضْحِكٌ ! وَلَكِنَّ هَذا شُعوري لأَنّي تَعَوَّدْتُ عاداتِ إدغار وَإيزابيلا لنتون . وَالآنَ ، يا هيثكليف ، هَلْ نَسيتَني ؟»

أشاحَ عَنْها بِوَجْهِهِ ؛ فَالخَجَلُ وَالكِبْرِياءُ جَعَلاهُ يَظَلُّ صامِتًا .

قالَ هندلي وَقَدْ سُرَّ لِخَجَلِهِ : « صافِحْها ، يا هيثكليف .»

قالَ الوَلَدُ : « لا ؛ لَنْ أقِفَ هُنا لأكونَ مَثارَ ضَحِكٍ وَسُخْرِيَةٍ ! أنا لا أحْتَمِلُ هَذا !»

وَهَمَّ بِالانْصِرافِ ، وَلَكِنَّ كاثرين أمْسَكَتْ بِهِ مَرَّةً أُخْرى ، قائِلَةً: « ما كانَ قَصْدي أنْ أضْحَكَ مِنْكَ . وَالأمْرُ فَوْقَ طاقَتي وَاحْتِمالي

حَيْثُ تَبْدو غَريباً ، وَلَكِنْ إذا غَسَلْتَ وَجْهَكَ وَنَسَّقْتَ شَعْرَكَ وَمَشَّطْتَهُ فَإِنَّ سَحْنَتَكَ سَتَتَصلحُ تَماماً ، فَالقذارَةُ بادِيَةٌ عَلَيْكَ .»

وَنَظَرَتْ مُتَضَجِّرَةً إلى أَصابِعِهِ السَّوْداءِ ، وإلى آثارِ القَذارَةِ على ثَوْبِها ، فَقالَ : « لَمْ يَكُنْ ثَمَّ داعٍ لأَنْ تَلْمِسيني .»

وَسَحَبَ يَدَهُ بَعيداً عَنْها قائِلاً : « سَوْفَ أَكونُ قَذِراً كَما أُريدُ ؛ إِنّي أُحِبُّ أَنْ أَكونَ قَذِراً وَسَوْفَ أَكونُ هَكَذا !»

وَ انْدَفَعَ خارِجاً مِنَ الغُرْفَةِ ، فَضَحِكَ هندلي وَزَوْجَتُهُ ، وَلَكِنَّ كاثرين كانَتْ تَبْدو حَزينَةً .

وعاوَنْتُ كاثرين في إخْراجِ أَمْتِعَتِها مِنَ الحَقائِبِ ، ثُمَّ أَراها السَّيِّدُ إيرنشو وَزَوْجَتُهُ الهَدايا الَّتي اشْتَرَياها لَها لِكَيْ تُقَدِّمَها إلى أَبْناءِ عائِلَةِ لنتون . وَكانَ إدغار وَإيزابيلا قَدْ تَلَقَّيا دَعْوَةً لِقَضاءِ يَوْمٍ في مُرْتَفَعاتِ وَذَرِنغ ، وَلَكِنَّ أُمَّهُما طالَبَتْهُما بِأَنْ يَبْتَعِدا عَنْ ذَلِكَ الوَلَدِ القَذِرِ الكَثيرِ السِّبابِ .

كُنْتُ وَحْدي في المَطْبَخِ أَصْنَعُ كَعْكاً ، وَتَأَمَّلْتُ الغُرْفَةَ المُشْرِقَةَ وَالأَواني اللاّمِعَةَ ، ثُمَّ بَدَأْتُ أُفَكِّرُ في الأَبِ العَجوزِ السَّيِّدِ إيرنشو الَّذي كانَ يُحِبُّ أَنْ يَرى هَذِهِ الغُرْفَةَ في مِثْلِ هَذا الرَّوْنَقِ ، مِمّا أَدّى بي إلى أَفْكارٍ سَوْداءَ تَرْتَبِطُ بِهيثكليف الَّذي كانَ يَجِدُ حُظْوَةً

في عَيْنَيْهِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ مَضَيْتُ لأَبْحَثَ عَنْهُ .

وَجَدْتُهُ يُطْعِمُ الخَيْلَ ، وَكانَ يُرَبِّتُ عَلى ظَهْرِ حِصانِ كاثرين اللاّمِعِ الجَديدِ .

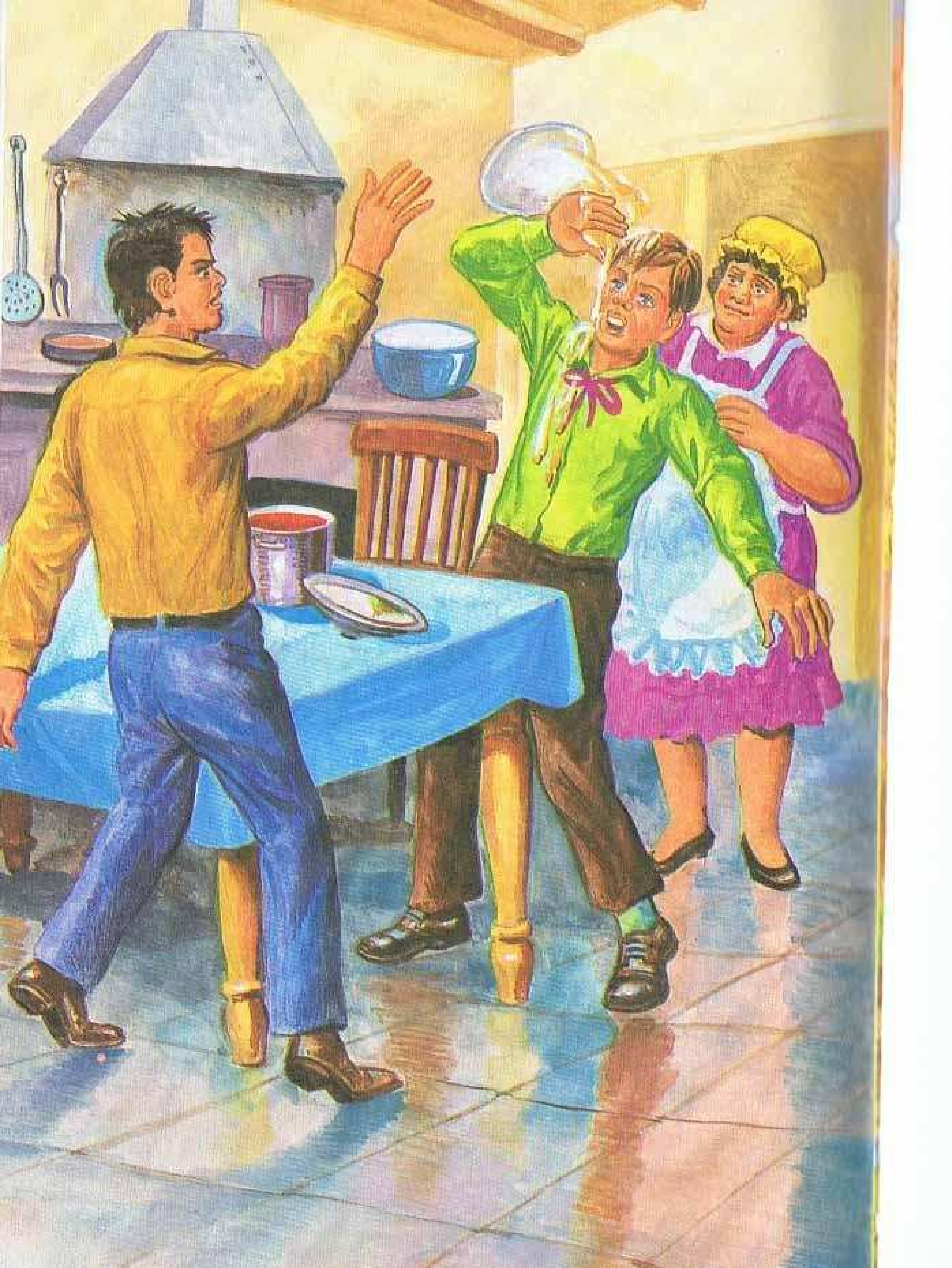
قُلْتُ : « تَعالَ ، يا هيثكليف ، سَوْفَ أُلْبِسُكَ ثِياباً أَنيقَةً ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَأْتِيَ إلى المَطْبَخِ لِتَتَحَدَّثَ إلى كاثرين . ثَمَّةَ كَعْكَةٌ لِكُلٍّ مِنْكُما .»

لَمْ يُجِبْني ، وَلَكِنَّهُ ذَهَبَ إلى غُرْفَتِهِ . وَاسْتَيْقَظَ في الصَّباحِ مُبَكِّراً ، وَذَهَبَ إلى الأَراضي القَفْرِ ، وَبَعْدَ عَوْدَتِهِ ذَهَبَ إلى المَطْبَخِ وَقالَ : « أَرْجو ، يا إلين ، أَنْ تُعامِليني كَشَخْصٍ مُحْتَرَمٍ ، وَلَسَوْفَ أَكونُ حَسَنَ السُّلوكِ .»

عاوَنْتُهُ في تَنْظيفِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ نَسَّقْتُ شَعْرَهُ الأَسْوَدَ الطَّويلَ الكَثيفَ ، فَقالَ : « كُنْتُ أَتَمَنّى أَنْ يَكونَ شَعْري أَشْقَرَ ، وَعَيْناي زَرْقاوَيْنِ مِثْلَ إدغار لنتون .»

قُلْتُ لَهُ : « إِنَّ إدغار لنتون سَيَبْدو كَالفَتاةِ إلى جِوارِكَ ، أَنْتَ أَصْغَرُ مِنْهُ ، وَلَكِنَّكَ أَطْوَلُ قامَةً وَأَعْرَضُ مَنْكِباً .»

سَمِعْنا صَوْتَ عَرَبَةِ العائِلَةِ في الخارِجِ ؛ فَأَسْرَعْتُ إلى البابِ ،



كانَتْ كاثرين تَصْطَحِبُ وَلَدَيْ لنتون إلى الدّاخِلِ مُمْسِكَةً كُلًّا مِنْهُما بِيَدٍ .

طَلَبْتُ إلى هيثكليف أنْ يَذْهَبَ لِمُصافَحَتِهِمْ في ذَلِكَ الوَقْتِ ، وَلكِنْ ما إنْ دَخَلَ إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ مِنَ المَطْبَخِ حَتّى كانَ هندلي قَدْ دَخَلَ مِنَ الجانِبِ الآخَرِ .

وَصاحَ هندلي بِهيثكليف : « أُخْرُجْ مِن هُنا أيُّها الشَّيْطانُ ، وَلا تَسْرِقِ الطَّعامَ ! عَجَبًا ! إنَّكَ تُحاوِلُ أنْ تَبْدُوَ كَأَحَدِ النُّبَلاءِ الآنَ ؛ أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ وَلَقَدْ نَسَّقْتَ شَعْرَكَ الجَميلَ ! فَلْتَبْقَ مَكانَكَ إلى أنْ أُمْسِكَ بِهِ – سَوْفَ أَجْذِبُهُ لأُطيلَهُ شَيْئًا ما ! »

قالَ إدغار لنتون وَهُوَ يَظْهَرُ مِنَ البابِ : « إنَّهُ طَويلٌ بِما فيهِ الكِفايَةُ ، مِمّا يَجْعَلُهُ يَبْدو كَشَعْرِ الحِصانِ وَقَدْ تَدَلّى عَلى عَيْنَيْهِ ! »

كانَ هيثكليف يُضْمِرُ في نَفْسِهِ كَراهِيَةً لإدغار ، ويَعْتَبِرُهُ عَدُوًّا لَهُ ، وَلَمْ يُطِقْ تَعْليقَهُ عَلى شَعْرِهِ ؛ فَأَمْسَكَ بِإناءٍ مِنَ القِشْدَةِ كانَ عَلى المِنْضَدَةِ وَقَذَفَ بِهِ إدغار فَأَصابَ وَجْهَهُ وَعُنُقَهُ .

صَرَخَ إدغار صَرْخَةً مُدَوِّيَةً ، فَانْقَضَّ هندلي عَلى هيثكليف وَجَرَّهُ إلى الخارِجِ لِيُعاقِبَهُ عِقابًا صارِمًا . وَأَمْسَكْتُ أنا بِقِطْعَةِ قُماشٍ وَبَدَأْتُ أُزيلُ القِشْدَةَ مِنْ فَوْقِ أَنْفِ إدغار وَشَفَتَيْهِ بِطَريقَةٍ تَخْلو

مِنَ الرِّقَّةِ. وَأثارَ المَوْقِفُ إيزابيلا فَانْخَرَطَتْ في البُكاءِ ، وأعْلَنَتْ أنَّها تُريدُ أنْ تَعودَ إلى بَيْتِها ، على حينَ وَقَفَتْ كاثرين تَشْعُرُ بِالخَجَلِ أمامَ الجميعِ .

قالَتْ لإدغار : « ما كانَ يَنْبَغي أنْ تُثيرَهُ بِكَلامِكَ . إنَّني أعْرِفُ أنَّهُ سَوْفَ يُعاقَبُ بِالضَّرْبِ ، وَأنا لا أحِبُّ أنْ يُضْرَبَ ، فَلِماذا أثَرْتَهُ بِكَلامِكَ هذا ؟ »

أجابَ إدغار باكِيًا : « لَمْ أفْعَلْ ذَلِكَ ، فَقَدْ تَعَهَّدْتُ لأمّي ألا أسيءَ إلَيْهِ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، وَأنا لَمْ أفْعَلْ ذَلِكَ إلى الآنَ . »

قالَتْ كاثرين وَهِيَ تَنْظُرُ إلَيْهِ بِاحْتِقارٍ : « كُفَّ عَنِ البُكاءِ إذاً ؛ وَلْتَهْدَئي يا إيزابيلا فَلَمْ يُسِئْ أحَدٌ إلَيْكِ . »

صاحَ هندلي بِانْشِراحٍ وَهُوَ يَدْخُلُ لاهِثًا وَقَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ: « إلى مَقاعِدِكُمْ أيُّها الصِّغارُ . »

بَدَتْ زُمْرَةُ الصِّغارِ سُعَداءَ ، فَجَلَسوا ، وَبَدَأَ هندلي يَضَعُ الطَّعامَ في أطْباقِهِمْ حَتّى مَلأَ جَميعَ الأطْباقِ . وَأحْسَسْتُ بِألَمٍ حينَ رَأيْتُ كاثرين بِعَيْنَيْنِ جامِدَتَيْنِ ، تَقْطَعُ جَناحَ إوَزَّةٍ على طَبَقِها ، فَقُلْتُ في نَفْسي : « يا لَها مِنْ صَبِيَّةٍ جامِدَةِ الشُّعورِ ؛ فَهِيَ لا تَعْبأُ بِمَتاعِبِ صَديقِها القَديمِ ! »

وَرَفَعَتْ إلى شَفَتَيْها لُقْمَةً بِحَجْمِ الفَمِ ، ثُمَّ أعادَتْها إلى مَكانِها ، و انْهَمَرَتِ الدُّموعُ على وَجْهِها وَمَنَعَتْها مِنَ الاسْتِمْرارِ في تَناوُلِ الطَّعامِ ، فَرَمَتْ بِالشَّوْكَةِ على الأرْضِ ، وَألْقَتْ بِنَفْسِها بِسُرْعَةٍ تَحْتَ المِنْضَدَةِ لِتُخَبِّئَ وَجْهَها .

وَلاحَظْتُ أنَّها قَضَتْ بَقِيَّةَ اليَوْمِ غَيْرَ سَعيدَةٍ . أمّا هيثكليف فَقَدْ حُبِسَ في غُرْفَتِهِ ، وَلَمْ تَجِدْ كاثرين سَبيلاً لِلْوُصولِ إلَيْهِ .

وَفي المَساءِ أقَمْنا حَفْلَةَ رَقْصٍ ، فَطَلَبَتْ كاثرين مِنْ أخيها أنْ يُطْلِقَ سَراحَ هيثكليف ؛ لأنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ مَنْ يُراقِصُ إيزابيلا ، وَلَكِنْ هندلي رَفَضَ وَقالَ إنَّهُ سَيُراقِصُها . وَفيما بَعْدُ وَصَلَتْ جَوْقَةٌ موسيقِيَّةٌ سَعِدْنا بِعَزْفِها وَغِنائِها .

قالَتْ كاثرين وَهِيَ في أعْلى دَرَجاتِ السُّلَّمِ : « لَقَدْ كانَتْ موسيقى هَذِهِ الجَوْقَةِ عَذْبَةً . » وَأخَذَتْ تَتَحَرَّكُ في الظَّلامِ ، فَتَتَبَّعْتُها حَيْثُما ذَهَبَتْ . وَكانَتِ الغُرْفَةُ السُّفْلى تَغَصُّ بِالنّاسِ لِدَرَجَةِ أنَّهُمْ لَمْ يَلْحَظوا اخْتِفاءَنا .

وَذَهَبَتْ كاثرين إلى غُرْفَةِ هيثكليف الصَّغيرَةِ ، وَنادَتْهُ مِنْ خِلالِ شَقٍّ في البابِ ، أمّا أنا فَقَدْ تَرَكْتُها هُناكَ . وَحينَ أوْشَكَ الغِناءُ أنْ يَنْتَهِيَ عُدْتُ إلَيْها لأنَبِّهَها ، فَقَدْ كانَتِ الشَّيْطانَةُ الصَّغيرَةُ هُناكَ في

الغُرْفَةِ ، وَقَدْ تَسَلَّلَتْ إِلَيْها مِنْ خِلالِ نافِذَةٍ صَغيرَةٍ ، فَأَمَرْتُها أَنْ تَخْرُجَ مِنْها وَلكِنَّها أَحْضَرَتْ هيثكليف مَعَها ، وَ وافَقْتُ أَنا أَنْ أَصْطَحِبَهُ مَعي إِلى المَطْبَخِ وَأُعْطِيَهُ بَعْضَ الطَّعامِ .

أَجْلَسْتُهُ عَلى مَقْعَدٍ بِجِوارِ المِدْفَأَةِ ، وَقَدَّمْتُ لَهُ بَعْضَ الطَّعامِ الشَّهِيِّ ، وَلكِنَّهُ كانَ سَقيماً فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَأْكُلَ إِلّا النَّزْرَ اليَسيرَ مِنَ الطَّعامِ ، وَقَدْ جَلَسَ واضِعاً وَجْهَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ ، فَسَأَلْتُهُ : « فيمَ تُفَكِّرُ ؟ »

أَجابَ : « إِنَّني أُفَكِّرُ كَيْفَ أَنْتَقِمُ مِنْ هندلي ، وَلا يَهُمُّني كَمْ مِنَ الزَّمَنِ سَيَمْضي حَتّى يَحينَ مَوْعِدُ انْتِقامي ، ما دُمْتُ سَأَسْتَطيعُ آخِرَ الأَمْرِ أَنْ أَنْتَقِمَ ، وَلَيْتَهُ يَعيشُ حَتّى أَنْتَقِمَ مِنْهُ . »

قُلْتُ لَهُ : « إِيهِ يا هيثكليف ! فَلْتَدَعِ اللهَ يُعاقِبُ المُجْرِمينَ . »

أَجابَ : « إِنَّ اللهَ لَنْ يَسْعَدَ بِعِقابِهِ ، وَلكِنَّني أَنا سَأَسْعَدُ . »

الفصل الخامس

في شَهْرِ يونيه التّالي أَنْجَبَتْ زَوْجَةُ هندلي وَلَداً – وَهُوَ آخِرُ أَبْناءِ عائِلَةِ إيرنشو العَريقَةِ – فَأَسْمَوْهُ هيرتون ، وَهُوَ اسْمُ عائِلَةٍ عَريقَةٍ . وكانَ وَلَداً ظَريفاً وَجَميلاً ، وَلكِنَّ الطَّبيبَ قالَ إِنَّ السَّيِّدَةَ إيرنشو لَنْ تَعيشَ طَويلاً ، فَقَدْ كانَتْ تُعاني مَرَضاً عُضالاً لا يُمْكِنُ عِلاجُهُ ؛ فَسُعالُها وَنَحافَتُها وَ وَجْهُها اللّامِعُ كانَتْ عَلاماتٍ واضِحَةً لِحالَتِها المَرَضِيَّةِ .

لَمْ يُصَدِّقْ هندلي كَلامَ الطَّبيبِ ، فَلَمْ يَكُنْ في قَلْبِهِ مُتَّسَعٌ لِغَيْرِ شَخْصَيْنِ اثْنَيْنِ : زَوْجَتُهُ وَنَفْسُهُ . وَما كُنْتُ لأَسْتَطيعَ أَنْ أَتَخَيَّلَ كَيْفَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَحَمَّلَ وَقْعَ صَدْمَةِ فِقْدانِها .

ظَلَّتِ السَّيِّدَةُ إيرنشو عَلى حالِها مِنَ الإِشْراقِ وَالانْشِراحِ ، مِمّا دَعا هندلي أَنْ يُعْلِنَ أَنَّ صِحَّتَها تَتَحَسَّنُ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ . وَلكِنَّها

أخذَتْ ذات لَيْلَةٍ تَسْعُلُ ، فَاحْتَضَنَها بِيَدَيْهِ ، وَعانَقَتْهُ هِيَ ، وتَغَيَّرَ وَجْهُها ، ثُمَّ سَطا عادي المَوْتِ على الكَنْزِ الثَّمينِ فَسَقَطَتْ ، واسْتَرَدَّ الخالِقُ وَديعَتَهُ .

كانَ حُزْنُ هندلي مِنَ النَّوْعِ الَّذي لا يُمْكِنُ التَّعْبيرُ عَنْهُ ، فَلَمْ يَبْكِ وَلَمْ يَسْجُدْ لِلصَّلاةِ ، بَلْ بَدا ساخِطًا ، وَلَمْ يَكُنْ بِهِ شَغَفٌ بِالطِّفْلِ الَّذي تُرِكَ كُلِّيَّةً في رِعايَتي أنا . و بَدَأَتْ حَياةُ هندلي مُنْذُ ذَلِكَ الوَقْتِ تَكونُ ضَرْبًا مِنْ شُرْبِ الخُمورِ وَلَعِبِ القِمارِ . وَلَمْ يَسْتَطِعْ بَقِيَّةُ الخَدَمِ أنْ يَتَحَمَّلوا تَصَرُّفاتِهِ ، فَهَجَروا البَيْتَ ، وَلَمْ يَبْقَ في المَنْزِلِ سِوى جُوزيف وَأنا . وَكانَ عَلَيَّ أنْ أَرْعى الطِّفْلَ ، بِالإضافَةِ إلى أنّي قَدْ شَبَبْتُ وَتَرَعْرَعْتُ مَعَ هندلي ، وَكُنْتُ أُكِنُّ لَهُ بَعْضَ مَشاعِرِ الحُبِّ . وَقَدْ بَقِيَ جُوزيف في المَنْزِلِ أَيْضًا – لأنَّهُ كانَ يُحِبُّ أنْ يَعيشَ في وَسَطٍ يَجِدُ فيهِ مِنَ الخُروجِ عَنِ المَألوفِ ما يُثيرُ نَقْدَهُ وَتَأْنيبَهُ .

لَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَخْصٌ مُحْتَرَمٌ يَروقُ لَهُ أنْ يَزورَنا ، ما عَدا إدغار لنتون الَّذي كانَ يَروقُهُ أنْ يَرى كاثرين ، الَّتي كانَتْ – وَهِيَ في الخامِسَةَ عَشْرَةَ رَبيعًا – مَلِكَةَ المَكانِ حُسْنًا ، فَلَمْ تَكُنْ تُضارِعُها في جَمالِها فَتاةٌ أُخْرى . وَلَكِنَّها كانَتْ صَلِفَةً وَلَمْ تَكُنْ لِتُفَكِّرَ إلّا في نَفْسِها وَرَغَباتِها الخاصَّةِ .

لَقَدِ احْتَفَظَتْ بِصَداقَتِها لِعائِلَةِ لنتون مُنْذُ أنْ أقامَتْ في ثرشكروس غرانج . وَلَمْ تَكُنْ لِتُظْهِرَ لَهُمْ جانِبَها السَّيِّئَ ، فَكانوا كُلُّهُمْ يُكِنّونَ لَها الاحْتِرامَ وَالتَّقْديرَ في أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنَّ إدغار لنتون هامَ بِحُبِّها .

وَلَمْ يَكُنْ بِهِ مِنَ الشَّجاعَةِ ما يَدْفَعُهُ إلى زِيارَتِها في مُرْتَفِعات وَذِرِنغ ، فَقَدْ كانَ يَخْشى هندلي وَتَصَرُّفاتِهِ السَّيِّئَةَ ، بِالإضافَةِ إلى أنَّ كاثرين لَمْ تَكُنْ لِتَرْغَبَ في تَواجُدِهِ في المَنْزِلِ ، حَيْثُ كانَ يُمْكِنُ أنْ يُقابِلَ هيثكليف .

كانَ هيثكليف يَبْلُغُ وَقْتَها – عَلى ما أظُنُّ – سِتَّةَ عَشَرَ رَبيعًا ، وَقَدْ جَعَلَتْهُ ثَلاثَةُ أَعْوامٍ مِنَ العَمَلِ الشّاقِّ أَصْلَبَ عودًا ، وَقَدِ انْقَشَعَ عَنْهُ وَلَعُهُ بِالكُتُبِ وَالدِّراسَةِ ، وَيَبْدو أنَّ عَقْلَهُ أَصْبَحَ صَدِئًا ، فَكانَ لا يَتَحَدَّثُ إلّا قَليلاً . وَفارَقَتْ الابْتِسامَةُ شَفَتَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ هُوَ وَكاثرين تَوْأَمَيْ صَداقَةٍ وَرُفْقَةٍ دائِمَةٍ ما دامَ غَيْرَ مَشْغولٍ بِعَمَلٍ ما ، وَلَكِنَّهُ مُنْذُ ذَلِكَ الوَقْتِ لَمْ يَكُنْ لِيُعَبِّرَ لَها عَنْ غَرامِهِ بِها .

وَذاتَ يَوْمٍ رَتَّبَ هندلي أُمورَهُ عَلى أنْ يُغادِرَ المَنْزِلَ بَعْدَ الظُّهْرِ ؛ فَبَعَثَتْ كاثرين بِرِسالَةٍ إلى إدغار تُخْبِرُهُ فيها أنَّهُ يُمْكِنُهُ زِيارَتُها .

وَبَيْنَما كُنْتُ أُساعِدُ كاثرين في ارْتِداءِ مَلْبَسِها إذا بِهيثكليف

يُفاجِئُنا بِدُخولِهِ .

سَألها : « لِماذا تَرْتَدينَ ، يا كاثرين ، فُسْتانَكِ الحَريريَّ ؟ هَلْ أنْتِ ذاهِبَةٌ في زِيارَةٍ ؟ »

أجابَتْ : « لا ، فَالجوُّ مُمْطِرٌ . وَلَكِنْ يَجِبُ ، يا هيثكليف ، أنْ تَذْهَبَ الآنَ إلى الحُقولِ لِتَعْمَلَ فيها . »

فَأجابَها بِأنَّهُ لَنْ يَعْمَلَ ما دامَ هندلي بَعيداً عَنِ المَنْزِلِ ، وَسَوْفَ يَظَلُّ مَعَها . وَجَلَسَ أمامَ المِدْفَأةِ ، فَنَظَرَتْ إلَيْهِ في سُكونٍ لِلَحَظاتٍ وَهِيَ عاجِزَةٌ عَنْ أنْ تُقَرِّرَ ماذا تَفْعَلُ ، وَأخيراً قالَتْ : « إنَّ إيزابيلا وَ لنتون قَدْ وَعَدا بِأنْ يَحْضُرا في عَصْرِ ذَلِكَ اليَوْمِ ، وَلَكِنّي لا أتَوَقَّعُ حُضورَهُما ، لأنَّ الجَوَّ مُمْطِرٌ ، وَلَكِنَّهُما قَدْ يَأتِيانِ . »

أجابَ هيثكليف : « لا تُقْصيني عَنِ المَنْزِلِ بِسَبَبِ صَديقَيْكِ الغَبِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ يَسْتَحِقّانِ الشَّفَقَةَ . وَلَسْتُ أدْري لِماذا تُريدينَ أنْ تَقْضي وَقْتاً طَويلاً مَعَهُمْ ؟ »

فَتَساءَلَتْ كاثرين لِماذا يُريدُ هيثكليف مِنْها أنْ تَكونَ دائِماً إلى جِوارِهِ ، إنَّهُ لَمْ يَحْكِ لَها قَطُّ ما يُدْخِلُ السُّرورَ إلى نَفْسِها .

صاحَ هيثكليف بِحِدَّةٍ بِأنَّها لَمْ تُخْبِرْهُ قَبْلَ اليَوْمِ أنَّها لا تُحِبُّ

رُفْقَتَهُ ، فَقالَتْ كاثرين : « لَيْسَ ثَمَّةَ مِنْ رُفْقَةٍ حينَ لا يَعْرِفُ النّاسُ شَيْئاً يُقالُ فَيَجْلِسوا صامِتينَ . »

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ سُمِعَ صَهيلُ جَوادٍ في فِناءِ المَنْزِلِ ، فَنَهَضَ هيثكليف لِيَسْتَكْشِفَ الأمْرَ ، وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ دَخَلَ إدغار لنتون وَكانَ وَجْهُهُ مُفْعَماً بِالسُّرورِ . وَقَدْ لاحَظَتْ كاثرين – دونَ شَكٍّ – الفَرْقَ بَيْنَ نَظَراتِ الصَّديقَيْنِ ، عِنْدَما دَخَلَ أحَدُهُمْ وَخَرَجَ الآخَرُ ؛ إذْ كانَ أحَدُهُما صَريحاً لَطيفاً مَرِحاً وَالآخَرُ عابِساً مُنْطَوِياً غَيْرَ باسِمِ الثَّغْرِ .

قالَ إدغار وَهُوَ يَنْظُرُ إلَيَّ : « لَمْ آتِ بِسُرْعَةٍ ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ فَقَدْ كُنْتُ مَشْغولاً بِتَنْظيفِ الأطْباقِ مِنَ الغُبارِ . »

سَألَتْني كاثرين : « ماذا تَفْعَلينَ هُناكَ ، يا إيلين ؟ »

أجَبْتُ : « أقومُ بِعَمَلي ، يا آنِسَتي . » وَكانَ السَّيِّدُ هندلي قَدْ طَلَبَ مِنّي ألا أتْرُكَ كاثرين وَحْدَها مَعَ إدغار .

جاءَتْ كاثرين خَلْفي وَهَمَسَتْ لي : « اِذْهَبي أنْتِ وَمَساحَتُكِ إلى مَكانٍ آخَرَ ؛ فَإنّي لا أحِبُّ أنْ أرى خادِمَةً في الغُرْفَةِ عِنْدَما أكونُ بِرُفْقَةِ أصْدِقاءَ . »

أجَبْتُ : « مَعْذِرَةً يا آنِسَةُ كاثْرين ! » وَ واصَلْتُ التَّنْظيفَ بِاهْتِمامٍ .

وَحينَ تَأكَّدَتْ أنَّ إدغار لا يُمْكِنُ أنْ يَرى ما يَحْدُثُ ، أمْسَكَتْ بِالمَسّاحَةِ وَغَرَسَتْ أصابِعَها في ذِراعي .

صِحْتُ : « هَذا عَمَلٌ بَذيءٌ ! وَلا حَقَّ لَكِ في إلْحاقِ الأذى بي ! »

صاحَتْ وَقَدِ احْمَرَّتْ أذُناها مِنَ الغَضَبِ ، فَلَمْ تَكُنْ تَقْدِرُ عَلى إخْفاءِ مَشاعِرِها الَّتي كانَتْ تُشْعِلُ وَجْهَها بِالنّارِ عِنْدَ ثَوْرَتِها : « أنْتِ كاذِبَةٌ ؛ فَأنا لَمْ ألْمِسْكِ . »

أجَبْتُ : « ما هَذا إذاً ؟ » وَأرَيْتُها بُقْعَةً حَمْراءَ في ذِراعي ، فانْتَفَضَتْ غَضَباً ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلى ضَبْطِ نَفْسِها عِنْدَ حَدٍّ فَصَفَعَتْني عَلى وَجْهي .

صاحَ إدغار وَهُوَ يُمْسِكُ بِذِراعِها : « كاثْرين ، يا حَبيبَتي ! » فَالْتَفَتَتْ إلَيْهِ وَصَفَعَتْهُ صَفْعَةً قَوِيَّةً عَلى أذُنِهِ .

حَمْلَقَ إلَيْها إدغار في هُدوءٍ وَقَدْ شَرِقَ وَجْهُهُ ، وَبَلَغَ بِهِ الغَضَبُ مَداهُ ، ثُمَّ خَطا بِضْعَ خُطُواتٍ لِيَلْتَقِطَ قُبَّعَتَهُ ، وَذَهَبْتُ أنا إلى المَطْبَخِ تارِكَةً البابَ مَفْتوحاً لأرى ما يَحْدُثُ .

سَألَتْ كاثْرين إدغار وَهِيَ تَتَقَدَّمُ نَحْوَ البابِ : « إلى أيْنَ أنْتَ ذاهِبٌ ؟ يَجِبُ ألا تَذْهَبَ ! »

أجابَ إدغار بِصَوْتٍ خَفيضٍ : « يَجِبُ أنْ أذْهَبَ ، وَسَأذْهَبُ . »

قالَتْ كاثْرين : « لا ، فَالوَقْتُ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ ، يا إدغار لِنَتون ! لا تَتْرُكْني وَأنا في هَذِهِ الحالَةِ مِنَ الانْقِباضِ ، فَسَأشْعُرُ بِالتَّعاسَةِ طَوالَ اللَّيْلِ . »

سَألَها إدغار : « هَلْ يُمْكِنُني أنْ أظَلَّ هُنا بَعْدَ ما صَفَعْتِني ؟ كَما أنَّكِ كاذِبَةٌ ! »

وَصَمَتَتْ كاثْرين .

أضافَ : « لَقَدْ جَعَلْتِني أخْشاكِ وَأشْعُرُ بِالخِزْيِ مِنْ تَصَرُّفاتِكِ ! لَنْ أعودَ إلى هُنا مَرَّةً أخْرى . »

الْتَمَعَتْ عَيْناها بِالدُّموعِ ، وَقالَتْ : « حَسَناً ؛ فَلْتَذْهَبْ إذا شِئْتَ ذَلِكَ – بَعيداً ! وَلَكِنّي سَأظَلُّ أذْرِفُ الدَّمْعَ إلى أنْ أمْرَضَ . » وَسَقَطَتْ عَلى رُكْبَتَيْها وَبَدَأتْ تَبْكي بِصَوْتٍ عالٍ .

خَرَجَ إدغار إلى أنْ وَصَلَ فِناءَ المَنْزِلِ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ لِيَنْظُرَ مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَقْوى عَلى تَرْكِها ، فَأحْسَسْتُ بِأنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ

أنْ يَتجَنَّبَ قَدَرَهُ !

وكُنْتُ مُصيبَةً في إحْساسي ؛ فَقَدْ عادَ فَجْأةً وَدَخَلَ المَنْزِلَ مَرَّةً أخْرى ، وَأغْلَقَ البابَ خَلْفَهُ .

وَدخَلْتُ أنا المَنْزِلَ فيما بَعْدُ لأخْبِرَهُمْ بِأنَّ هندلي قَدْ وَصَلَ إلى البَيْتِ في حالَةِ هِياجٍ عَنيفٍ ، وَكانَ عَلى اسْتِعْدادٍ لأنْ يُدَمِّرَ المَنْزِلَ. وَلَمَسْتُ حينَئِذٍ أنَّ شِجارَهُما قَدْ قَرَّبَ بَيْنَهُما ؛ فَتَحوَّلَتْ صَداقَتُهُما إلى حُبٍّ .

الفصل السادس

في ساعَةٍ مُتأخِّرَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ دَخَلَتْ كاثرين المَطْبَخَ فَوَجَدَتْني هُناكَ ، وكانَتْ عَلى وَجْهِها أماراتُ لَهْفَةٍ ، وَهَمَسَتْ لي :

« هَلْ أنْتِ وَحْدَكِ ، يا إلين ؟»

أجَبْتُها : « أجَلْ ، يا آنِستي .»

وَلَمْ أفْطِنْ في ذَلِكَ الوَقْتِ إلى وُجودِ هيثكليف عَلى الجانِبِ الآخَرِ ، فَوْقَ المَقْعَدِ الخَشَبِيِّ ذي الظَّهْرِ المُرْتَفِعِ .

فَتَحَتْ كاثرين شَفَتَيْها لِتَتَحَدَّثَ ، وَلَكِنَّ الكَلِماتِ خانَتْها ، وَتَساقَطَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْها فَوْقَ الأرْضِيَّةِ الحَجَرِيَّةِ . وانْتَظَرْتُ في صَمْتٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ في نِيَّتي مُساعَدَتُها .

صَرَخَتْ : « آهِ ، يا عَزيزَتي ! إنَّني جِدُّ مُبْتَئِسَةٍ !»

قُلْتُ : « مِنَ الصَّعْبِ إِرْضاؤُكِ ؛ فَلَدَيْكِ أَصْدِقاءُ كثيرونَ وَهُمومٌ قَليلَةٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَسْتِ راضِيَةً .»

جِئْتِ إلى جِواري ، وَرَفَعَتْ عَيْنَيْها الجَميلَتَيْنِ إلى وَجْهي قائِلَةً: « هَلْ تَكْتُمينَ السِّرَّ ، يا إلين ؟»

سَأَلْتُ : « هَلِ السِّرُّ خَليقٌ بِأَنْ أَكْتُمَهُ ؟»

أَجابَتْ : « أَجَلْ . إِنَّهُ يُزْعِجُني ، وَمِنْ ثَمَّ يَجِبُ أَنْ أَبوحَ بِهِ . أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ ماذا يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ ، لَقَدْ طَلَبَ مِنِّي إِدْغار لنتون اليَوْمَ الزَّواجَ بِهِ ، وَأَبْدَيْتُ لَهُ رَأْيي . وَالآنَ قَبْلَ أَنْ أَقولَ لَكِ إِنّي وافَقْتُ أَوْ رَفَضْتُ ، أَرْجو أَنْ تَقولي لي هَلْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَرْفُضَ أَوْ أَقْبَلَ ؟»

أَجَبْتُ : « لَسْتُ أَدْري ، يا آنِسَةُ كاثرين . وَالحَقُّ أَنَّني إذا أَخَذْتُ في الاعْتِبارِ تَصَرُّفاتِكِ في عَصْرِ ذَلِكَ اليَوْمِ ؛ لَكانَ مِنَ الحِكْمَةِ لَكِ أَنْ تَرْفُضيهِ ، وَما دامَ هُوَ قَدْ طَلَبَ مِنْكِ رَغْمَ ذَلِكَ أَنْ تَقْبَلي الزَّواجَ بِهِ ، فَلا بُدَّ أَنَّهُ أَحْمَقُ !»

قالَتْ كاثرين غاضِبَةً : « ما دامَتْ هَذِهِ طَريقَتَكِ في الحَديثِ فَلَنْ أُخْبِرَكِ بِشَيْءٍ بَعْدَ ذَلِكَ . لَقَدْ وافَقْتُ عَلى الزَّواجِ مِنْهُ ، يا إلين ، فَأَسْرِعي إِلَيَّ بِرَأْيِكِ : هَلْ كُنْتُ عَلى خَطَأٍ ؟»

« ثَمَّةَ عَديدٌ مِنَ الأُمورِ الَّتي يَجِبُ أَنْ نُناقِشَها قَبْلَ أَنْ نُجيبَ عَنِ السُّؤالِ إِجابَةً صَحيحَةً ، فَأَوَّلاً هَلْ تُحِبّينَ السَّيِّدَ إِدْغار ؟»

« مَنْ ذا الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يَفْعَلَ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ بَديهِيٌّ أَنَّني أُحِبُّهُ .»

« لِماذا تُحِبّينَهُ ، يا آنِسَةُ كاثرين ؟»

« إِنَّني أُحِبُّهُ وَأُحِبُّهُ وَهَذا يَكْفي .»

« لا ، يَنْبَغي أَنْ تَقولي لِماذا .»

« لِأَنَّهُ وَسيمٌ وَلَطيفُ المَعْشَرِ .»

« هَذا لا يَكْفي .»

« وَلِأَنَّهُ شابٌّ وَمَرِحٌ .»

« وَهَذا أَيْضاً لا يَكْفي .»

« وَلِأَنَّهُ يُحِبُّني .»

« هَذا أَفْضَلُ الأُمورِ .»

« وَسَوْفَ يَكونُ ثَرِيًّا ، وَأَنا سَأُصْبِحُ أَلْمَعَ امْرَأَةٍ في المِنْطَقَةِ .»

« ذَلِكَ أَسْوَأُ ما ذَكَرْتِ . وَالآنَ أَبيني كَيْفَ تُحِبّينَهُ ؟»

« كما يُحِبُّ أيُّ إنْسانٍ – أنْتِ سَخيفَةٌ ، يا إلين .»

« العَفْوُ ! أجيبي .»

« أُحِبُّ الأرْضَ الَّتي يَسيرُ عَلَيْها ، وَالهَواءَ الَّذي يَتَحَرَّكُ فيهِ ، وَكُلَّ شَيْءٍ يَلْمِسُهُ ، وَكُلَّ كَلِمَةٍ يَتَفَوَّهُ بِها ، وَأُحِبُّ نَظَراتِهِ وَكُلَّ ما يَفْعَلُهُ ، وَأُحِبُّهُ قَلْباً وَقالَباً .»

« دَعينا إذاً نَسْمَعْ ما الَّذي يَسوؤُكِ إذا تَزَوَّجْتِ بِهِ ؟ فَأَخوكِ سَيَكونُ سَعيداً ، وَالسَّيِّدُ لنتون وَزَوْجَتُهُ – أَغْلَبُ ظَنّي – لَنْ يَقولا لا ، وَزِيادَةً عَلى ذَلِكَ فَأَنْتِ سَوْفَ تُنْقِذينَ نَفْسَكِ بِالانْتِقالِ مِنْ مَنْزِلٍ كُلُّهُ فَوْضى وَغَيْرُ مُريحٍ إلى مَنْزِلٍ مُحْتَرَمٍ ثَرِيٍّ ؛ وَأَنْتِ تُحِبّينَ إدغار وَهُوَ يُحِبُّكِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ واضِحٌ وَمُيَسَّرٌ ، فَأَيْنَ تَكْمُنُ المُشْكِلَةُ إذاً ؟»

أجابَتْ كاثرين وَهِيَ تَدُقُّ بِيَدٍ عَلى رَأْسِها وَبِأُخْرى عَلى صَدْرِها:
« إنَّها تَكْمُنُ هُنا ، وَهُنا . تَكْمُنُ حَيْثُ تَحْيا روحي . وَأَشْعُرُ بَيْنَ روحي وَقَلْبي أنَّني جِدُّ مُخْطِئَةٍ .»

« إنَّ هَذا لأَمْرٌ عَجيبٌ جِدًّا ! وَلَسْتُ أَفْهَمُهُ .»

« سَوْفَ أُحاوِلُ أنْ أُوَضِّحَ الأُمورَ : لَقَدْ رَأَيْتُ في حُلْمٍ غَريبٍ ، اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، أنَّني في السَّماءِ ، وَلَكِنَّ السَّماءَ نَفْسَها لَمْ تَبْدُ مَوْطِني ، فانْفَطَرَ قَلْبي مِنَ البُكاءِ كَيْ أَعودَ إلى الأَرْضِ ؛ فَغَضِبَ مِنّي مَنْ في السَّماءِ وَأَلْقَوْني مِنْها ، فَهَبَطْتُ عَلى الأَرْضِ القَفْرِ في مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنغ .

« وَاسْتَيْقَظْتُ وَأَنا أَصْرُخُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ، وَلَيْسَ لِيَ الحَقُّ بَعْدَ ذَلِكَ في الزَّواجِ مِنْ إدغار لنتون ، كَما لَيْسَ لي الحَقُّ في أنْ أَكونَ في السَّماءِ . لَوْ أنَّ أَخي الحاقِدَ لَمْ يَنْزِلْ بِهيثكليف إلى الحَضيضِ ما كانَ يَعِنُّ لي أنْ أُفَكِّرَ في غَيْرِهِ ، أَما وَقَدْ فَعَلَ فَمِنَ العارِ الآنَ أنْ أَتَزَوَّجَهُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَنْ يَعْرِفَ كَمْ أُحِبُّهُ ، لأَنَّهُ هُوَ في ذاتِ نَفْسي أَكْثَرُ مِنْ إحْساسي أنا بِنَفْسي ، وَسَواءٌ كانَتْ روحانا صيغَتا مِنْ هَذا القِوامِ أَوْ ذاكَ ، فَإنَّ روحي وَروحَهُ مِنْ نَفْسِ النَّسيجِ ، أَمّا روحُ إدغار فَتَخْتَلِفُ عَنّي كَما يَخْتَلِفُ ضَوْءُ القَمَرِ عَنِ النّارِ .»

وَقَبْلَ أنْ تُنْهِيَ كَلامَها ، أَدْرَكْتُ أَنَّ هيثكليف كانَ في الغُرْفَةِ ، وَرَأَيْتُهُ يَقومُ مِنْ مَقْعَدِهِ وَيَخْرُجُ مِنْها في هُدوءٍ . لَقَدْ سَمِعَ كاثرين وَهِيَ تَقولُ إنَّ زَواجَها بِهيثكليف يَجْلِبُ عَلَيْها العارَ ، ثُمَّ غادَرَ

الغُرْفَةِ ، وَلكِنْ كاثرين لَمْ تَرَهُ .

سَأَلْتُها : « هَلْ فَكَّرْتِ – حينَ تُصْبِحينَ زَوْجَةَ لنتون – في هيثكليف ؟ إِنَّهُ سَيَفْقِدُ صَديقَتَهُ وَحُبَّهُ وَكُلَّ شَيْءٍ . كَيْفَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَحَمَّلَ صَدْمَةَ الانْفِصالِ ؟ »

صاحَتْ : « انْفِصالٌ ! مَنْ ذا الَّذي سَيَفْصِلُنا ؟ هَذا ما لا أَقْصِدُهُ . يَجِبُ أَنْ يَنْفُضَ إِدغار عَنْ نَفْسِهِ كَراهِيَتَهُ لَهُ وَيُوَطِّدَ النَّفْسَ عَلى تَحَمُّلِهِ ، وَسَوْفَ أُساعِدُهُ لِيَبْرُزَ في المُجْتَمَعِ وَيكونَ بِمَنْأًى عَنْ سُلْطَةِ أَخي . »

صِحْتُ: « هَلْ سَتَفْعَلينَ ذَلِكَ بِأَمْوالِ زَوْجِكِ ، يا آنِسَةُ كاثرين ؟ إِنَّهُ لَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ ؛ فَلا يُمْكِنُكِ أَنْ تَتَزَوَّجي لنتون لِكَيْ تُساعِدي هيثكليف ! »

« وَلكِنّي لَنْ أَقْبَلَ أَنْ أَتَخَلّى عَنْ هيثكليف ، فَهُوَ يُشَكِّلُ أَهَمَّ جُزْءٍ مِنّي . إِنَّ حُبّي لإِدغار مِثْلُ الأَوْراقِ عَلى الأَشْجارِ ، الزَّمَنُ كَفيلٌ بِتَغْييرِهِ ، كَما يُغَيِّرُ الشِّتاءُ أَوْراقَ الشَّجَرِ ، وَلكِنَّ حُبّي لِهيثكليف مِثْلُ الصُّخورِ العاتِيَةِ الرّاسِخَةِ في القاعِ ؛ فَهُوَ يُمِدُّني

بِشَيْءٍ مِنَ الحُبورِ وَالسُّرورِ اللاّزِمِ لِكِياني ، أَلا فَلْتَعْلَمي ، يا إِلين ، أَنَّني أَنا لَسْتُ إِلاّ هيثكليف ! فَهُوَ دائِماً وَأَبَداً في فِكْري ، وَمِنْ ثَمَّ فَلا تَتَحَدَّثي أَبَداً عَنِ انْفِصالٍ بَيْنَنا . »

عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ وَصَلَ جُوزيف وَسَأَلَ : « أَيْنَ ذَلِكَ الصَّبِيُّ الخَمولُ ؟ »

قُلْتُ : « أَ تَسْأَلُ عَنْ هيثكليف ؟ أَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَعَ الخَيْلِ . »

خَرَجَ جُوزيف لِيَسْتَكْشِفَ الأَمْرَ ، فَأَخْبَرْتُ كاثرين أَنَّ هيثكليف لا بُدَّ وَأَنَّهُ سَمِعَ مُعْظَمَ ما قالَتْهُ ، وَعِنْدَ سَماعِها هَذا الكَلامَ قَفَزَتْ مِنْ مَكانِها مَذْعورَةً ، وَخَرَجَتْ لِتَبْحَثَ عَنْهُ بِنَفْسِها .

وَلكِنَّ هيثكليف ما كانَ لِيوجَدَ في أَيِّ مَكانٍ ، رَغْمَ أَنَّنا بَحَثْنا عَنْهُ في البَيْتِ وَفي المَزْرَعَةِ . وَأُصيبَتْ كاثرين بِحالَةِ ذُعْرٍ شَديدٍ ، وَراحَتْ تَصْرُخُ : « لا بُدَّ أَنْ أُخْبِرَهُ وَأَتَحَدَّثَ مَعَهُ . ما الَّذي قُلْتُهُ وَأَحْزَنَهُ ؟ لَيْتَهُ يَعودُ ! أَلا لَيْتَهُ يَعودُ ! »

كانَتْ لَيْلَةً غائِمَةً مُظْلِمَةً ، وَكانَتْ ثَمَّةَ عاصِفَةٌ قادِمَةٌ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَقَدْ خَرَجَتْ كاثرين لِتَبْحَثَ عَنْ هيثكليف عَبْرَ الطَّريقِ ، وَهِيَ



تُنادي بِاسْمِهِ وتَصْرُخُ .

كانَتِ العاصِفَةُ قَدْ وَصلَتْ حَوالى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، وبَدَأْتُ أنا وَجُوزيف نَشْعُرُ بِالذُّعْرِ حينَ بَدَأَتِ الرّيحُ العاتِيَةُ والمَطَرُ الغَزيرُ المُنْهَمِرُ يَطْرُقانِ النَّوافِذَ . وَلكِنَّ كاثرين لَمْ تَدْخُلِ البَيْتَ إلّا حينَ هَدَأَتِ العاصِفَةُ ، وكانَ شَعْرُها وَمَلابِسُها كُلُّها مُبَلَّلَةً تَماماً ، ولكِنَّها رَفَضَتْ أنْ تَخْلَعَ مَلابِسَها أوْ أنْ تَأْوِيَ إلى الفِراشِ ، وَقَضَتْ بَقِيَّةَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ في المَطْبَخِ ، تُراقِبُ الحالَةَ مِنْ خِلالِ البابِ المَفْتوحِ .

وَفي الصَّباحِ كانَ المَرَضُ قَدْ تَغَلَّبَ عَلَيْها ، فَدَفَعْتُ بِها إلى الفِراشِ . وَكانَتْ في حالَةٍ مُرَوِّعَةٍ حَتّى إنَّني ظَنَنْتُ أنَّها في الطَّريقِ إلى الجُنونِ . وَطَلَبْتُ مِنْ جُوزيف أنْ يَذْهَبَ لِيَأْتِيَ بِطَبيبٍ ، وَحينَ رَآها قالَ إنَّ مَرَضَها خَطيرٌ ، فَقَدْ أُصيبَتْ بِحُمّى .

كانَ مَرَضُها طَويلاً وَمُؤْلِماً ، وَلكِنَّ المَوْتَ لَمْ يُوافِها . وَحينَ تَحَسَّنَتْ حالَتُها إلى دَرَجَةٍ مَلْحوظَةٍ ، أَخَذَتْها السَّيِّدَةُ لنتون لِتُقيمَ مَعَها في ثرشكروس غرانج . وَلكِنَّ السَّيِّدَةَ عانَتْ مِنْ عَطْفِها هَذا عَلى كاثرين أشَدَّ المُعاناةِ ؛ فَقَدْ سَرَتْ عَدْوى الحُمّى إلَيْها وَإلى زَوْجِها وَماتَ الاثْنانِ بَعْدَ أيّامٍ قَلائِلَ .

لَمْ نَسْمَعْ أنْباءً عَنْ هيثكليف ، وَحينَ عادَتْ كاثرين إلَيْنا كانَ مِنَ الصَّعْبِ مُعايَشَتُها . وَقالَ الطَّبيبُ إنَّهُ مِنَ الخَطَرِ عَلَيْها أنْ يُغْضِبَها أيُّ إنْسانٍ ، وَيَجِبُ – كُلَّما أمْكَنَ ذَلِكَ – أنْ يُسْمَحَ لَها بِأنْ تَفْعَلَ ما تُريدُ . وَلَمْ يَعْتَرِضِ السَّيِّدُ هندلي عَلى ذَلِكَ ، وَكانَ سَعيداً أنْ يَرى إدغار لنتون يَهْتَمُّ بِكاثرين ، فَالزَّواجُ مِنْ عائِلَةِ لنتون سَوْفَ يَكونُ بِمَثابَةِ شَرَفٍ رَفيعٍ لِعائِلَةِ إيرنشو .

الفصل السابع

بَعْدَ انْقِضاءِ ثَلاثِ سَنَواتٍ تَزَوَّجَتْ كاثرين إيرنشو مِنْ إدغار لنتون ، وَعاشَتْ في ثرشكروس غرانج .

وَقَدْ أرادَتْ أنْ أقيمَ مَعَها هُناكَ ، وَلَمْ أكُنْ لأوَطِّنَ النَّفْسَ عَلى تَرْكِ هيرتون ؛ فَقَدْ أحْبَبْتُهُ كَما لَوْ كانَ طِفْلي ، وَقَدْ بَلَغَ الآنَ الخامِسَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَبَدَأتُ أعَلِّمُهُ القِراءَةَ . وَلَكِنَّ السَّيِّدَ هندلي أمَرَني بِأنْ أذْهَبَ مَعَ كاثرين ، فَلَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ في وُجودِ امْرَأةٍ في المَنْزِلِ ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ رَبَّةُ بَيْتٍ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ طَبَعْتُ قُبْلَةَ وَداعٍ عَلى وَجْنَةِ هيرتون ، وَأنا أسائِلُ نَفْسي تُرى أيَّةُ رِعايَةٍ سَيَلْقاها مِنْ أبيهِ وَجُوزيف .

وَقَدِ اسْتَقَرَّتْ كاثرين في حَياتِها الجَديدَةِ في ثرشكروس غرانج ، وَكانَتْ تَتَصَرَّفُ بِأحْسَنَ مِمّا كُنْتُ أتَوَقَّعُ . وَقَدْ بَذَلَ السَّيِّدُ إدغار

وَأُخْتُهُ كُلَّ جُهْدٍ لِيَبْعَثا السُّرورَ في نَفْسِها ، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ ما يُثيرُ غَضَبَها .

وَقَدْ لاحَظْتُ أَنَّ السَّيِّدَ إدغار كانَ يَخْشى كُلَّ الخَشْيَةِ أَنْ يُغْضِبَها ، وَبَذَلَ وُسْعَهُ لِيَكونَ الخَدَمُ دائِمي التَّهَذُّبِ مَعَها ، وَأَنْ يَكونَ دَيْدَنَهُمْ إِرْضاءُها حَتّى عِنْدَما تَحْتَدُّ مَعَهُمْ .

وَمِنْ ثَمَّ فَقَدِ انْصَرَمَتْ سِتَّةُ شُهورٍ دونَ أَنْ يَحْدُثَ ما يُعَكِّرُ صَفْوَ كاثرين ، رَغْمَ أَنَّهُ كانَتْ ثَمَّةَ فَتَراتٌ فارَقَتْها فيها السَّعادَةُ وَأَخْلَدَتْ إِلى السُّكونِ ، وَقَدْ عَزا زَوْجُها ذَلِكَ إِلى المَرَضِ القاسي الَّذي أَصابَها . وَلَكِنّي عَرَفْتُ أَنَّ ذَلِكَ حَدَثَ مِنْ كَثْرَةِ تَفْكيرِها في هيثكليف . وَقَدْ مَضَتِ الأَيّامُ المُظْلِمَةُ وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ مِنْ جَديدٍ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُما كانا يَتَمَتَّعانِ بِسَعادَةٍ غامِرَةٍ وَمُتَزايِدَةٍ .

وَلَكِنْ تَأْتي الرِّياحُ بِما لا تَشْتَهي السُّفُنُ ، فَفي ذاتِ أُمْسِيَةٍ دافِئَةٍ مِنْ شَهْرِ سِبْتِمْبر ، كُنْتُ قادِمَةً مِنَ الحَديقَةِ وَأَنا أَحْمِلُ سَلَّةً ثَقيلَةً مِنَ التُّفّاحِ ، وَضَعْتُها عَلى السُّلَّمِ لأَلْتَقِطَ أَنْفاسي ، وَرَفَعْتُ عَيْنَيَّ لأَتَطَلَّعَ إِلى القَمَرِ ، وَسَمِعْتُ فَجْأَةً صَوْتاً خَلْفي كَأَنَّما يَجيءُ مِنَ الأَعْماقِ ، يَقولُ : « أ هَذِهِ أَنْتِ ، يا إلين ؟»

كانَ صَوْتاً غَريباً ، وَلَكِنّي شَعَرْتُ بِأَنّي أَعْرِفُ صاحِبَهُ ، فَاسْتَدَرْتُ

إلى الخَلْفِ في فَزَعٍ . و كانَ فِناءُ المَنْزِلِ مَليئاً بِالظِّلالِ ، تَحَرَّكَ أَحَدُها وَرَأَيْتُهُ ، رَجُلاً مَديدَ القامَةِ في ثِيابٍ داكِنَةٍ ، ذا وَجْهٍ وَشَعْرٍ داكِنَيْنِ .

قالَ : « أ لا تَعْرِفينَني ، يا إلين ؟»

وَكانَ ضَوْءُ القَمَرِ مُنْصَبّاً عَلى وَجْهِهِ ، وَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ السَّوْداوَيْنِ ؛ فَصَرَخْتُ : « يا لَلْعَجَبِ !»

وَلَمْ أَكُنْ مُتَأَكِّدَةً ما إِذا كانَ رَجُلاً أَوْ شَبَحاً ، وَسَأَلْتُ : « هَلْ عُدْتَ ؟ أ هَذا أَنْتَ حَقّاً ؟»

أَجابَ بِوابِلٍ مِنَ الأَسْئِلَةِ : « أَجَلْ ، أَنا هيثكليف . أَيْنَ هِيَ ؟ إِنَّكِ غَيْرُ سَعيدَةٍ ، يا إلين . لَيْسَ ثَمَّةَ ما يُزْعِجُكِ ! هَلْ هِيَ مَوْجودَةٌ هُنا ؟ أُريدُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْها قَليلاً . اِذْهَبي وَقولي لَها إِنَّ شَخْصاً مِنْ جمرتون يُريدُ أَنْ يَراها .»

صِحْتُ : « كَيْفَ سَتَتَحَمَّلُ المُفاجَأَةَ ؟ لَشَدَّ ما تَغَيَّرْتَ ، يا هيثكليف ! هَلْ كُنْتَ تَعْمَلُ في الجَيْشِ ؟»

قالَ : « اِذْهَبي وَبَلِّغي رِسالَتي . إِنَّني سَأَظَلُّ في جَحيمٍ حَتّى تَفْعَلي ذَلِكَ !»

ذَهَبْتُ بِبُطْءٍ إلى غُرْفَةِ الجلوسِ ، حَيْثُ كانَ السَّيِّدُ لنتون وَزَوْجَتُهُ يَجْلِسانِ بِجِوارِ النَّافِذَةِ في هُدوءٍ تامٍّ ؛ حَتَّى إنَّني – لِفَرْطِ هُدوئِهِما – كِدْتُ أَعْجِزُ عَنْ أَنْ أُبَلِّغَهُما الرِّسالَةَ .

قُلْتُ : « إنَّ شَخْصاً مِنْ جمرتون يُريدُ أَنْ يَراكِ ، يا سَيِّدَتي .»

سَأَلَتْ كاثرين : « ماذا يُريدُ ؟»

أَجَبْتُ : « لَمْ أَسْأَلْهُ .»

قالَتْ : « أَحْضِري الشّايَ ، يا إلين . سَوْفَ أَعودُ بَعْدَ لَحَظاتٍ .» وَنَزَلَتْ إلى الطّابَقِ الأَسْفَلِ .

وَما هِيَ إلّا بِضْعُ دَقائِقَ حَتّى صَعِدَتْ مَرَّةً أُخْرى وَهِيَ تَلْهَثُ بِانْفِعالٍ ، ثُمَّ صَرَخَتْ : « إدغار ! إدغار !» وَطَوَّقَتْ عُنُقَهُ بِذِراعَيْها قائِلَةً : « لَقَدْ عادَ هيثكليف ! لَقَدْ عادَ .. عادَ !»

صاحَ إدغار بِحِدَّةٍ : « هَلْ وَجَدْتِهِ شَيْئاً عَظيماً إلى هَذا الحَدِّ ؟ لا داعِيَ لِأَنْ تَعْتَصِري مِنّي الأَنْفاسَ فَإِنّي أَكادُ أَخْتَنِقُ .»

قالَتْ : « إنّي أَعْلَمُ أَنَّكَ لا تُحِبُّهُ . يَجِبُ الآنَ – لِكَيْ تَبْعَثَ في نَفْسي الرِّضا – أَنْ تَكونَ صَديقاً لَهُ . هَلْ تَأْذَنُ لي بِأَنْ أَدْعُوَهُ لِيَصْعَدَ إِلَيْنا ؟»

« هُنا في غُرْفَةِ الجُلوسِ ؟ أَلَيْسَتْ حُجْرَةُ المَطْبَخِ أَنْسَبَ لَهُ ؟»

ضَحِكَتْ كاثرين بِازْدِراءٍ ، وَقالَتْ : « لا ! إنَّ إلين يُمْكِنُها أَنْ تُعِدَّ مِنْضَدَتَيْنِ هُنا لِلشّايِ : إِحْداها لَكَ وَلإيزابيلا – السّادَةِ ؛ وَالأُخْرى لِهيثكليف وَلي – الخَدَمِ ! اِذْهَبي ، يا إلين ، وَنادي هيثكليف .»

حينَ دَخَلَ هيثكليف الغُرْفَةَ ؛ قَفَزَتْ كاثرين إلى الأَمامِ ، وَأَمْسَكَتْ بِيَدَيْهِ ، وَمَضَتْ بِهِ إلى إدغار ، ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِأَصابِعِ إدغار الرّافِضَةِ وَحَشَرَتْها في أَصابِعِ هيثكليف . وَفي هَذِهِ المَرَّةِ رَأَيْتُهُ بِوُضوحٍ ، فاعْتَرَتْني دَهْشَةٌ أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ نَظيرٍ لَها طَوالَ عُمْري ؛ لِما لَمَسْتُهُ مِنْ تَغْييرٍ شامِلٍ فيهِ ؛ لَقَدْ أَصْبَحَ فارِعاً ، قَوِيَّ البِنْيَةِ وَأَكْبَرَ بَلْ أَقْوى مِنْ إدغار ، وَبَدا أَكْثَرَ حِكْمَةً مِنْ رَبِّ البَيْتِ الَّذي أَعْمَلُ أنا فيهِ ، فَمَظْهَرُهُ وَحالَتُهُ كانَتا تَنُمّانِ عَنْ رَجُلٍ نَبيلٍ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَما زالَتْ ثَمَّةَ نَظْرَةٌ حادَّةٌ تَنْبَعِثُ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ المَغْروسَتَيْنِ عَميقاً في وَجْهِهِ – عَيْنَيْهِ المُفْعَمَتَيْنِ بِنارِ السُّخْطِ .

كانَ إدغار مَذْهولاً أَكْثَرَ مِنّي ، وَلَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَتَكَلَّمُ ، وَأَخيراً طَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَجْلِسَ .

وَاتَّخَذَ هيثكليف مَقْعَداً لَهُ مُقابِلَ كاثرين ، وَقَدِ احْتَفَظَتْ بِعَيْنَيْها

مُثَبَّتَتَيْنِ عَلَيْهِ ، كَما لَوْ كانَتْ تَخْشى أَنْ يَخْتَفِيَ عَنْ ناظِرَيْها لَوْ أَنَّها الْتَفَتَتْ بِعَيْنَيْها بَعيداً عَنْهُ . لكِنَّهُ لَمْ يَشْغَلْ عَيْنَيْهِ بِها كَثيراً ، وَكانَ يَكْتَفي مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ بِنَظْرَةٍ سَريعَةٍ لَها ، وَمَعَ كُلِّ نَظْرَةٍ كانَ الفَرَحُ يَتَعَمَّقُ في وَجْهِهِ .

غَيْرَ أَنَّ وَجْهَ إدغار شَرِقَ غَضَباً حينَ لَمَسَ اهْتِمامَهُما المُتَبادَلَ ، وَرَأى كاثرين تَقْفِزُ وَتُمْسِكُ بِيَدَيْ هيثكليف مَرَّةً أُخْرى ، وَقَدْ بَدَأَتْ تَضْحَكُ مِلْءَ شِدْقَيْها ، وَصاحَتْ : « لَسَوْفَ يَكونُ هَذا حُلْماً يَوْمَ غَدٍ ، وَلَنْ أُصَدِّقَ أَنَّني رَأَيْتُكَ وَلَمَسْتُكَ وَتَحَدَّثْتُ مَعَكَ مَرَّةً أُخْرى . إيهِ يا هيثكليف القاسي ! لَقَدْ ظَلِلْتَ ثَلاثَ سَنَواتٍ بَعيداً عَنّي وَلَمْ تُفَكِّرْ بي . »

أَجابَ بِصَوْتٍ هادِئٍ : « إِنَّني فَكَّرْتُ فيكِ أَكْثَرَ بِقَليلٍ مِمّا فَعَلْتِ أَنْتِ . لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ زَواجِكِ مِنْ زَمَنٍ طَويلٍ ، وَ وَضَعْتُ هَذِهِ الخُطَّةَ : أَنْ أَتَطَلَّعَ مَرَّةً أُخْرى إلى وَجْهِكِ وَأَنْ أَنْتَقِمَ مِنْ هندلي ، ثُمَّ أَقْتُلَ نَفْسي . وَلكِنَّ الطَّريقَةَ الَّتي قُمْتِ بِها بِتَحِيَّتي جَعَلَتْني أَطْرَحُ هَذِهِ الأَفْكارَ جانِباً . أَنْتِ لَنْ تَدْفَعي بي إلى الهُروبِ بَعيداً مَرَّةً أُخْرى . لَقَدْ كُنْتُ أَخوضُ في صِراعٍ مَريرٍ ضِدَّ حَياةٍ قاسِيَةٍ صَعْبَةٍ مُنْذُ آخِرِ مَرَّةٍ سَمِعْتُ فيها صَوْتَكِ . »

ظَلَّ هيثكليف في مَجْلِسِهِ هَذا حَوالى ساعَةٍ ، وَحينَ غادَرَ المَكانَ سَأَلْتُهُ عَمّا إذا كانَ مُتَوَجِّهاً إلى جمرتون .

أَجابَ : « لا ، فَأَنا مُتَوَجِّهٌ إلى مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ، وَلَقَدْ طَلَبَ مِنّي السَّيِّدُ إيرنشو ، حينَ زُرْتُهُ هَذا الصَّباحَ ، أَنْ أَظَلَّ هُناكَ . »

طَلَبَ مِنْهُ هندلي إيرنشو ! وَقَدْ زارَ هندلي إيرنشو عَدُوَّهُ اللَّدودَ ! إِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَحُلَّ هَذا اللُّغْزَ ، وَلكِنَّني عَلِمْتُ فيما بَعْدُ أَنَّهُ ذَهَبَ لِمُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ لِيَتَقَصّى عَنْ أَخْبارِ كاثرين ، وَكانَ هندلي يَلْعَبُ الوَرَقَ مَعَ بَعْضِ أَصْدِقائِهِ ، وَطَلَبَ إلى هيثكليف أَنْ يَشْتَرِكَ مَعَهُمْ ، وَخَسِرَ هندلي بَعْضَ المالِ مَعَ هيثكليف ، فَطَلَبَ مِنْهُ هندلي أن يَعودَ مَساءً لِيُواصِلا اللَّعِبَ .

دَفَعَتْ هَذِهِ الأَحْداثُ هيثكليف إلى أَنْ يُفَكِّرَ في البَحْثِ عَنْ مَسْكَنٍ في مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ؛ حَتّى يَكونَ – كَما قالَ – قَريباً مِنْ كاثرين ، رَغْمَ أَنَّهُ كانَ ثَمَّ سَبَبٌ آخَرُ وَراءَ بَحْثِهِ عَنْ سَكَنٍ . لَقَدْ عَرَضَ أَنْ يَدْفَعَ مَبْلَغاً كَبيراً مِنَ المالِ ، وَ وافَقَ – بِشَغَفٍ – هندلي الَّذي كانَ يُحِبُّ المالَ . وَيَبْدو أَنَّ هيثكليف كانَ يَمْتَلِكُ الكَثيرَ مِنَ المالِ ، وَلكِنَّنا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَكْتَشِفَ كَيْفَ جَمَعَهُ ، أَوْ كَيْفَ حَوَّلَ نَفْسَهُ مِنْ مُجَرَّدِ صَبِيٍّ في مَزْرَعَةٍ إلى سَيِّدٍ .

الفصل الثامن

كُنْتُ أَخْتَزِنُ في أعْماقِ نَفْسي شُعوراً بِأنَّ عَوْدَةَ هيثكليف سَوْفَ تكونُ سَبَباً في إثارَةِ قَلاقِلَ كُبْرى . وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ دَلائِلُ عَلَيْها ؛ فَقَدْ كانَ هيثكليف حَريصاً على ألا يَزورَ ثرشكروس غرانج كَثيراً . وَبَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ الأَوَّلِ كانَتْ كاثرين حَريصَةً على ألا تُظْهِرَ اهْتِماماً كَبيراً بِزِياراتِهِ ، وَسَمَحَ إدغار بِتِلْكَ الزِّياراتِ دونَ أنْ يُظْهِرَ أيَّ قَلَقٍ .

وَلكِنَّ المَتاعِبَ جاءَتْ مِنْ مَصْدَرٍ مُخْتَلِفٍ ؛ فَقَدْ حَدَثَ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ في حُسْبانِ أَحَدٍ مِنّا ؛ إذ وَقَعَتْ إيزابيلا لنتون في حُبِّ هيثكليف .

كانتْ في ذَلِكَ الوَقْتِ في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها ، وَلَمّا تَزَلْ كَالطِّفْلِ في تَصَرُّفاتِها ؛ فَبَعْدَ بِضْعَةِ أسابيعَ مِنْ عَوْدَةِ هيثكليف

لاحَظْنا عَلَيْها تَغَيُّرَ أَحْوالِها تَماماً ، وَبَدَأَتْ شَهِيَّتُها لِلطَّعامِ تَقِلُّ ، وَبَدَتْ نَحيلَةً وَذابِلَةً ، وَكانَتْ دائِماً تَعِسَةً وَذاتَ مِزاجٍ سَيِّئٍ . وَأَخيراً قالَتْ كاثرين إنَّها سَتَطْلُبُ لَها الطَّبيبَ .

وَلكِنَّ إيزابيلا صَرَخَتْ : « أنا في تَمامِ الصِّحَّةِ ، وَلَيْسَ ثَمَّ مِنْ شاغِلٍ يُقْلِقُ بالي سِوى أنَّني لا أَحْظى بِعَطْفِكُمْ .»

قالَتْ كاثرين وَقَدِ اعْتَرَتْها دَهْشَةٌ كَبيرَةٌ : « هَلْ تَحْسَبينَني أنا غَيْرَ عَطوفٍ ؟ وَمَتى كُنْتُ غَيْرَ عَطوفٍ ؟»

« أمْسِ ، حينَ كُنّا نَتَحادَثُ مَعَ السَّيِّدِ هيثكليف ، طَلَبْتِ مِنّي أنْ أَذْهَبَ إلى مَكانٍ آخَرَ ، على حينَ أَخَذْتُمْ تَتَحَدَّثونَ مَعَهُ .»

صَرَخَتْ كاثرين : « ما هَذا ؟ لا يُمْكِنُ أنْ تَعْني أنَّكِ تُحِبّينَ هيثكليف !»

« إنّي أُحِبُّهُ ! أُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّكِ لإدغار ، وَهُوَ يُمْكِنُ أنْ يُحِبَّني لَوْ أَنَّكِ أَتَحْتِ لَهُ الفُرْصَةَ .»

« لا شَكَّ في أَنَّكِ مَجْنونَةٌ ! أَنْتِ لا تَعْرِفينَ شَيْئاً عَنْ هيثكليف ، ولا يُمْكِنُ أنْ تُدْرِكي أَنَّهُ شَرِسٌ لا يَرْحَمُ وَلا يَرْأَفُ . هُوَ رَجُلٌ كَالذِّئْبِ وَلا يُمْكِنُ أنْ يُحِبَّ فَتاةً مِنْ عائِلَةِ لنتون ، وَلكِنَّهُ يُمْكِنُ أنْ

يَتزوَّجكِ مِنْ أجْلِ نُقودِكِ ، وَبَعْدَ ذلِكَ يُدمِّرُكِ !»

« أنْتِ كاذِبَةٌ أيَّتُها المَخْلوقَةُ الأنانِيَّةُ ! إنَّكِ تُريدينَ فَقَطْ أنْ تُبْقيهِ لِنَفْسِكِ !»

رَفَضَتْ كاثرين أنْ تَمْضِيَ في الحَديثِ ، وَلكِنَّها غَضِبَتْ تَماماً مِنْ إيزابيلا . وَفي عَصْرِ اليَوْمِ التّالي تَوَصَّلَتْ إلى طَريقَةٍ لِمُعاقَبَتِها.

كانَتِ الفَتاتانِ جالِسَتَيْنِ في المَكْتَبَةِ دونَ أنْ تَنْبِسَ أيٌّ مِنْهُما بِكَلِمَةٍ ، وَفَجْأةً دَخَلَ هيثكليف .

صاحَتْ كاثرين وَهِيَ مُشْرِقَةُ الوَجْهِ : « تَفَضَّلْ بِالدُّخولِ ؛ فَأنْتَ الشَّخْصُ المَطْلوبُ ، يا هيثكليف . إنّي لَفَخورَةٌ أنْ أُقابِلَكَ بِإنْسانَةٍ تُحِبُّكَ أكْثَرَ مِنّي .» ، وَأمْسَكَتْ بِذِراعِ إيزابيلا قائِلَةً: « إنَّ إيزابيلا الصَّغيرَةَ المِسْكينَةَ يَكادُ قَلْبُها يَنْفَطِرُ بِحُبِّكَ ! إنَّها لَمْ تَأكُلْ شَيْئًا مُنْذُ يَوْمَيْنِ حينَ تَرَيَّضْنا مَعًا وَأبْعَدْتُكَ عَنْها .»

وَكانَتْ إيزابيلا تُحاوِلُ الهُروبَ ، وَلكِنَّ كاثرين أحْكَمَتْ قَبْضَتَها عَلَيْها .

قالَ هيثكليف : « إنّي أُدْرِكُ الآنَ أنَّها لا تُريدُ صُحْبَتي .» ثُمَّ حَمْلَقَ إلَيْها كَما يُحَمْلِقُ المَرْءُ إلى حَشَرَةٍ كَريهَةٍ ؛ فاصْفَرَّ وَجْهُ

إيزابيلا المِسْكينَةِ ثُمَّ شَرِقَ خَجَلاً ، وَأخيراً أفْلَحَتْ في الإفْلاتِ مِنْ كاثرين ، ثُمَّ خَرَجَتْ تَعْدو مِنَ الغُرْفَةِ .

اِسْتَدارَ هيثكليف إلى كاثرين قائِلاً : « لَمْ تَنْطِقي بِالحَقِّ ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

« بَلى ، كُنْتُ أنْطِقُ بِالحَقِّ . يُمْكِنُكَ أنْ تَتَزَوَّجَها وَتُصبِحَ أخاً لإدغار ، وَلكِنْ أرْجو ألا تُفكِّرَ في هَذا الأمْرِ ؛ فَإنّي أُحِبُّها حُبّاً جَمّاً يَجْعَلُني ألْتَزِمُ بِأنْ أُبْعِدَكَ عَنْها حَتّى لا تَلْتَهِمَها .»

« وَأنا مِنْ جانِبي أُحِبُّها قَليلاً مِمّا يَجْعَلُني لا أُحاوِلُ أنْ أتَزَوَّجَها ، فَلَوْ أنّني عِشْتُ وَحيداً مَعَ ذَلِكَ الوَجْهِ الَّذي يَخْلو مِنْ أيِّ تَعْبيرٍ ، لَكُنْتُ سَبَباً في مُضايَقاتٍ سَخيفَةٍ لَهُ ، وَسَأُحَوِّلُ هاتَيْنِ العَيْنَيْنِ الزَّرْقاوَيْنِ إلى سَوْداوَيْنِ ؛ فَهُما يُشْبِهانِ بِصورَةٍ كَريهَةٍ عَيْنَيْ إدغار .»

وَمَرَّتْ فَتْرَةُ صَمْتٍ ، أعْقَبَها هيثكليف بِقَوْلِهِ : « إنَّها وَريثَةٌ لأخيها ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

« بَلى ، في الوَقْتِ الحالِيِّ . وَإذا لَمْ يَكُنْ لإدغار ابْنٌ ، فَبَعْدَ مَوْتِهِ سَتَرِثُ أُخْتُهُ ثرشكروس غرانج . وَلكِنْ آمُلُ أنْ يَكونَ لِيَ ابْنٌ وَعِنْدَئِذٍ سَيَكونُ هُوَ الوَريثَ ! أرْجو أنْ تَنْسى إيزابيلا !»

وَلَمْ يَتَحَدَّثا عَنْها بَعْدَ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ هيثكليف يَبْتَسِمُ لِنَفْسِهِ حينَ كانَتْ كاثرين غافِلَةً عَنْهُ ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ كانَ يُفَكِّرُ في إيزابيلا .

لَمْ أَكُنْ أَثِقُ بِهيثكليف عَلى الإِطْلاقِ ، وَكانَ وُجودُهُ في مُرْتَفَعاتِ وَذِرنغ غَريباً وَمَصْدَرَ إِزْعاجٍ . وَساوَرَني شَكٌّ في أَنَّهُ يُضْمِرُ هَدَفاً خَفِيّاً شِرِّيراً .

وَكُنْتُ قَدْ قابَلْتُ جوزيف في جمرتون قَبْلَ أَيّامٍ قَلائِلَ ، وَكانَ قَدْ أَخْبَرَني أَنَّ تَصَرُّفاتِ هندلي قَدْ أَصْبَحَتْ أَسْوَأَ مِنْ ذي قَبْلُ ، مُنْذُ حُضورِ هيثكليف . وَكانا يَلْعَبانِ الوَرَقَ كُلَّ مَساءٍ ، وَكانَ هندلي يَخْسَرُ نُقوداً مَعَ هيثكليف ، فاسْتَدانَ مُقابِلَ رَهْنِ أَرْضِهِ ، وَكانَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَدِّدَ دَيْنَهُ وَإِلّا خَسِرَ أَرْضَهُ .

وَأَزْعَجَتْني أَنا أَيْضاً قِصَّةُ جوزيف عَنِ الصَّبِيِّ الصَّغيرِ هيرتون ، فَقَدْ رَوَّضَ هيثكليف الصَّبِيَّ عَلى كَراهِيَةِ والِدِهِ وَسَبِّهِ . وَكانَ هيرتون – وَيا لَلْغَرابَةِ ! – مُغْرَماً بِهيثكليف ، وَكانَ يَفْعَلُ ما يُريدُهُ مِنْهُ . وَهَكَذا في أَسابيعَ قَلائِلَ اسْتَطاعَ هيثكليف أَنْ يُسَيْطِرَ عَلى عَدُوِّهِ وَابْنِهِ ، فَما الَّذي كانَ يُخَطِّطُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟

الفصل التاسع

حينَ زارَ هيثكليف المَنْزِلَ مَرَّةً أُخْرى ، كانَتْ إيزابيلا وَقْتَها تُطْعِمُ بَعْضَ العَصافيرِ في فِناءِ المَنْزِلِ ، وَذَهَبَ نَحْوَها وَأَخَذَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْها ، وَلَمْ يَلْحَظْني حَيْثُ كُنْتُ أُطِلُّ عَلَيْهِما مِنْ نافِذَةِ المَطْبَخِ ، وَلَمْ يَلْحَظْ كاثرين الَّتي أَتَتْ خَلْفي . وَرَأَيْنا إيزابيلا تَتَراجَعُ وَتَجْري في الحَديقَةِ .

صاحَتْ كاثرين حينَ دَخَلَ هيثكليف المَطْبَخَ : « لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ ، يا هيثكليف ، أَنْ تَتْرُكَ إيزابيلا وَشَأْنَها ! »

أَجابَ غاضِباً : « ماذا يُهِمُّكِ في الأَمْرِ ؟ مِنْ حَقّي أَنْ أَتَوَدَّدَ إِلَيْها ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّكِ أَنْ تَعْتَرِضي ، فَلَسْتُ زَوْجَكِ ! »

وَ وَقَفَ يَتَأَمَّلُ نارَ المَطْبَخِ ، ثُمَّ قالَ : « أُريدُ أَنْ أُسِرَّ لَكِ بِشَيْءٍ ، يا كاثرين ، لَقَدْ عامَلْتِني بِقَسْوَةٍ صارِخَةٍ ؛ فَهَلْ تَظُنّينَ أَنّي

لا أدركُ ذَلِكَ ؟ وَهَلْ تَظُنّينَ أنّي سأعاني مِنْ تِلْكَ المُعامَلةِ دونَ الأخْذِ بِثأري ؟ إذا كُنْتِ تَظُنّينَ ذَلِكَ فإنَّكِ واهِمَةٌ !»

صاحَتْ كاثرين وَهِيَ جِدُّ مَذْهولةٍ : « كَيْفَ عامَلْتُكَ بِقَسْوَةٍ ؟ وَكَيْفَ سَتَثْأَرُ ؟»

أجابَ هيثكليف : « لا أُريدُ أنْ أثأرَ مِنْكِ ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ خُطَّتي ؛ فالخادِمُ لا يَنْقَلِبُ على سَيِّدِهِ ، ولكِنْ يُحَطِّمُ مَنْ دونَهُ مَرْتَبَةً . ويُمْكِنُكِ أنْ تَقْتُليني بِقَسْوَتِكِ إذا كانَ ذَلِكَ يَسُرُّكِ . لا أُريدُ سِوى أنْ تَسْمَحي لي أنْ أبْعَثَ في نَفْسي السُّرورَ لِبَعْضِ الوَقْتِ بِنَفْسِ الطَّريقَةِ !»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ تَرَكْتُهُما ، وَقَدْ حانَ الوَقْتُ لأتَحَدَّثَ إلى سَيِّدي – رَبِّ البَيْتِ . وكانَ إدغار في حُجْرَةِ الجُلوسِ ، فأخْبَرْتُهُ عَنْ تَصَرُّفاتِ هيثكليف نَحْوَ إيزابيلا ؛ فَثارَ غَضَباً وَقالَ لي : « اِسْتَدْعي اثْنَيْنِ مِنَ الخَدَمِ الأقْوِياءِ مِنْ فِناءِ المَنْزِلِ ، يا إلين .»

كانَ هَذانِ الرَّجُلانِ يَقِفانِ في المَمَرِّ خَلْفَهُ حينَ دَخَلَ المَطْبَخَ ، وَقالَ إدغار بِهُدوءٍ مُوَجِّهاً الكَلامَ إلى هيثكليف : « غادِرِ المَنْزِلَ وَلا تَعُدْ إلَيْهِ أبَداً ، فأنا لا أسْمَحُ لِكاثرين أنْ يَكونَ لَها أيَّةُ عَلاقَةٍ بِرَجُلٍ ذي طَبيعَةٍ شِرّيرَةٍ مِثْلِكَ ! اُغْرُبْ عَنْ وَجْهي في الحالِ !»

حَدَجَ هيثكليف إدغار بِنَظْرَةٍ ساخِرَةٍ ، وَقالَ : « إنَّ حَمَلَكِ الوَديعَ ، يا كاثرين ، يَتَظاهَرُ بِأنَّهُ أسَدٌ . ويُؤْسِفُني ، يا سَيِّدُ لنتون ، أنْ أقولَ لَكَ إنَّكَ لا تَسْتَحِقُّ أنْ أطيحَ بِكَ .»

ما كانَ سَيِّدي لِيُريدَ أنْ يُهاجِمَ هيثكليف بِنَفْسِهِ ، فَأشارَ إليَّ أنْ أناديَ الرَّجُلَيْنِ مِنَ المَمَرِّ ، وَلَكِنْ حينَ هَمَمْتُ بِأنْ أفْعَلَ ذَلِكَ ؛ جَذَبَتْني كاثرين إلى الوَراءِ ، وَأغْلَقَتِ البابَ ، ثُمَّ صاحَتْ في زَوْجِها : « قاتِلْهُ بِنَفْسِكَ ! لَقَدْ حاوَلْتُ أنْ أعاوِنَكَ ، يا إدغار ، وَهَذِهِ هِيَ الطَّريقَةُ الَّتي تَشْكُرُني بِها ! آمُلُ أنْ يَضْرِبَكَ هيثكليف حَتّى تَعْتَلَّ !»

حاوَلَ إدغار أنْ يَنْتَزِعَ المِفْتاحَ مِنْ كاثرين ، وَلَكِنَّها قَذَفَتْ بِهِ في النّارِ . وَشَحَبَ وَجْهُ إدْغار ، وَأضْعَفَهُ الخَوْفُ وَالخَجَلُ ، فاسْتَنَدَ إلى مَقْعَدٍ وَغَطّى وَجْهَهُ .

قالَ هيثكليف : « هَذا هُوَ المَخْلوقُ الضَّعيفُ الجَبانُ الَّذي فَضَّلْتِهِ عَلَيَّ ، يا كاثرين ! لَنْ أضْرِبَهُ بِيَدي ، بَلْ سأرْكُلُهُ بِقَدَمي !»

وَتَوَجَّهَ هيثكليف نَحْوَ إدغار وَدَفَعَ الكُرْسِيَّ بِقَدَمِهِ ، ولكِنْ تِلْكَ كانَتْ غَلْطَتَهُ ، فَقَدْ وَقَفَ إدغار بِسُرْعَةٍ وَ وَجَّهَ ضَرْبَةً إلى عُنُقِ هيثكليف ، الَّذي كانَ مَذْهولاً .

ظَلَّ هيثكليف لِلَحظاتٍ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَلْتَقِطَ أنْفاسَهُ ؛ وخَرَج إدغار أثْناءَ ذَلِكَ مِنَ البابِ الخَلْفِيِّ إلى الفِناءِ وَمِنْ هُناكَ إلى الواجِهَةِ .

صاحَتْ كاثرين : « أَسْرِعْ بِالانْصِرافِ ، يا هيثكليف ؛ فَسَيَعودُ وَمَعَهُ كُلُّ الخَدَمِ .»

« لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بَعْدَما كالَ إليَّ ضَرْبَةً كَهَذِهِ . دَعيني أَشْتَبِكْ مَعَهُ ، وسَوْفَ أُهَشِّمُهُ كَما أُهَشِّمُ مَحارَةً فارِغَةً .»

تَطَلَّعَتْ مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ قائِلَةً : « إنَّهُ لَيْسَ قادِماً بِنَفْسِهِ ؛ فَقَدْ أَرْسَلَ ثَلاثَةَ رِجالٍ أَشِدّاءَ يَحْمِلونَ هِراواتٍ .» وَلَمْ يَكُنْ هَذا صَحيحاً ؛ فَقَدْ كانَ هُناكَ رِجالٌ ومَعَهُمْ إدغار .

صَدَّقَني هيثكليف ، وَقَرَّرَ ألا يَدْخُلَ مَعْرَكَةً مَعَ الخَدَمِ ، وَخَرَجَ مِنَ البابِ الخَلْفِيِّ لَحْظَةَ دُخولِهِمْ .

حَمْلَقَتْ كاثرين إلَيْهِمْ بِشَراسَةٍ ، ثُمَّ صَعِدَتْ إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ وَطَلَبَتْ مِنّي أنْ أتْبَعَها .

صَرَخَتْ كاثرين وَقَدْ أَلْقَتْ بِنَفْسِها عَلى السَّجّادَةِ : « إنَّني أَوْشَكْتُ عَلى الجُنونِ ، يا إلين ! أَلْفُ مِطْرَقَةٍ تَدُقُّ رَأْسي !» وَأَلْقَتْ

بِنَفْسِها على الأريكَةِ قائِلَةً : « أَخْبِري إدغار أنَّني أوشِكُ أنْ أَسْقُطَ فَريسَةً لِلْمَرَضِ . إنَّني أُريدُ أنْ أَبْعَثَ في نَفْسِهِ الخَوْفَ . لَقَدْ أَزْعَجَني جِدًّا بِمُعامَلَتِهِ لِهيثكليف . آمُلُ أنْ أَسْقُطَ عَليلَةً ! إذا لَمْ أَسْتَطِعْ أنْ أَحْتَفِظَ بِهيثكليف صَديقاً فَسَوْفَ أُحَطِّمُ قَلْبَيْهِما بِأنْ أُحَطِّمَ قَلْبي . أَخْبِري إدغار أنْ يَتَذَكَّرَ طَبْعِيَ العَنيفَ ، حَذِّريهِ أنَّهُ مِنَ الخَطَرِ أنْ يُزْعِجَني . إيهِ يا إيلين ، لِماذا لا تَقْلَقي عَلَيَّ ؟»

أَصْغَيْتُ إلَيْها في هُدوءٍ ، وَطَرَأَ بِبالي أنَّها ما دامَتْ قَدِ اسْتَطاعَتْ أنْ تُعَدِّلَ مِزاجَها بِهَذِهِ الطَّريقَةِ فَإنَّها قادِرَةٌ عَلى أنْ تُسَيْطِرَ عَلَيْهِ . وَمِنْ ثَمَّ فَلَمْ أُبَلِّغْ رِسالَتَها لإدغار حينَ رَأَيْتُهُ مُتَّجِهاً إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ .

قالَ بِهُدوءٍ : « لَمْ أَجِئْ إلى هُنا ، يا كاثرين ، لأُديرَ مَعْرَكَةً بَيْني وَبَيْنَكِ . إنّي أُريدُ أنْ أَعْرِفَ فَقَطْ ما إذا كُنْتِ مُزْمِعَةً أنْ تَسْتَمِرّي في صَداقَتِكِ مَعَ ...»

صاحَتْ مُقاطِعَةً : « بِرَبِّكَ لا تَتَحَدَّثْ عَنْ ذَلِكَ الآنَ ! إنَّ دَمَكَ البارِدَ لا يُمْكِنُ أنْ يُثارَ بِالغَضَبِ أوْ بِالحُبِّ أيْضاً ؛ فَدَمُكَ إنْ هُوَ إلّا ماءٌ مُثَلَّجٌ ، وَلَكِنَّ دَمي يَغْلي !»

« لا بُدَّ مِنْ أنْ تُجيبي عَنْ سُؤالي . اِخْتاري بَيْنَ أنْ تَتَخَلّي عَنْ

هيثكليف أَوْ عَنّي ؛ فَمِنَ المُحالِ أَنْ تكوني صَديقَتَهُ وَصَديقتي في الوَقْتِ نَفْسِهِ . أريدُ أَنْ أَعْرِفَ كُنْهَ اختيارِكِ .»

« وَأنا أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَتْرُكَني وَحْدي ، يا إدغار . أ لا ترى أَنّني لا أَقْوى على مُجَرَّدِ الوُقوفِ ؟ إدغار لا بُدَّ أَنْ تَتْرُكَني !»

وَأَخَذَتْ تَدُقُّ الجَرَسَ حَتّى تَحَطَّمَ ، وَدَخَلْتُ بِبُطْءٍ ، وَهُناكَ وَجَدْتُها مُسْتَلْقِيَةً وَهِيَ تَخْبِطُ رَأْسَها في ذِراعِ الأريكَةِ . يا لَهُ مِنْ مِزاجٍ شِرّيرٍ غَبِيٍّ ! وَقَفَ إدغار يُحَدِّقُ إِلَيْها وَاعْتَراهُ خَوْفٌ مُفاجِئٌ ، وَطَلَبَ مِنّي أَنْ أُحْضِرَ بَعْضَ الماءِ ، فَأَتَيْتُ بِكوبٍ مَليءٍ ، وَحينَ رَفَضَتْ أَنْ تَشْرَبَ أَلْقَيْتُهُ في وَجْهِها ، فَعَراها شُحوبٌ يُشْبِهُ شُحوبَ المَوْتِ .

قالَ إدغار وَهُوَ يَنْتَفِضُ : « ثَمَّ دَمٌ عَلى شَفَتَيْها !»

قُلْتُ بِحِدَّةٍ : « لَيْسَ ثَمَّ شَيْءٌ عَلى الإطْلاقِ .» وَأَخْبَرْتُ إدغار كَيْفَ أَنّها تُخَطِّطُ لِتَبْعَثَ فيهِ الخَوْفَ .

وَسَمِعَتْ حَديثي فَقَفَزَتْ فَجْأَةً ، وَحَمْلَقَتْ فيما حَوْلَها بِغَضَبٍ ، ثُمَّ انْدَفَعَتْ إلى خارِجِ الغُرْفَةِ ، فَتَبِعْتُها إلى بابِ غُرْفَةِ نَوْمِها وَلكِنَّها أَغْلَقَتْهُ دوني .

الفصل العاشر

في الصَّباحِ ، بَعْدَ المُشاجَرَةِ ، تَحَدَّثَ إدغار طَويلاً مَعَ إيزابيلا ، وَسَمِعْتُهُ يَقولُ لَها إِنَّها يَجِبُ أَنْ تَنْسى هيثكليف ، وَحَذَّرَها مِنْ أَنَّها إذا تَزَوَّجَتْ رَجُلاً كَهذا فَإِنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَبِرَها أُخْتًا لَهُ ، وَلكِنَّ إيزابيلا أَخَذَتْ في البُكاءِ وَرَفَضَتِ التَّعْقيبَ .

شَعَرْتُ في هذا الوَقْتِ أَنّني الإِنْسانَةُ الوَحيدَةُ العاقِلَةُ في ثرشكروس غرانغ . وكانَتْ إيزابيلا تَقْضي أَيّامَها في التَّجْوالِ حَوْلَ الحَديقَةِ ، وَهِيَ غارِقَةٌ دائِماً في دُموعِها . وَكانَ إدغار يَجْلِسُ وَحْدَهُ في المَكْتَبَةِ ، وَساوَرَني الظَّنُّ أَنَّهُ كانَ يَأْمُلُ أَنْ تَأْتِيَ كاثرين وَتَطْلُبَ صَفْحَهُ ، وَلكِنَّ كاثرين ظَلَّتْ في غُرْفَتِها بِلا طَعامٍ ، وَكانَتْ تَقْصِدُ بِهذا عِقابَ إدغار وَنَفْسِها مَعاً .

في اليَوْمِ الثّالِثِ فَتَحَتِ البابَ وَطَلَبَتْ بَعْضَ الطَّعامِ ، وَكانَ

وَجْهُها قَدْ تَغَيَّر بِدَرجَةٍ خَطيرَةٍ ، وكانَتْ هَيْئَتُها غَريبَةً وَجامِحَةً .

تَساءَلَتْ : « لِمَ لَمْ يَحْضُرْ إدغار ؟ أ لا يَعْبأ بِأنَّني في حالَةٍ صِحِّيَّةٍ سَيِّئَةٍ ؟ ماذا يَصْنَعُ الآنَ ، يا إلين ؟»

قُلْتُ : « إنَّهُ يَقْضي وَقْتَهُ بَيْنَ كُتُبِهِ ، وَلَيْس ثَمَّ شَيْءٌ يَجْعَلُهُ يَظُنُّ أنَّكِ مَريضَةٌ .» وَما كُنْتُ لأتَحدَّثَ بِتِلْكَ الصّورَةِ لَوْ أنَّني كُنْتُ أعْرِفُ حَقيقَةَ حالَتِها ، فَقَدْ كانَ لا يَزالُ يُساوِرُني الشَّكُّ بِأنَّها تَتَصنَّعُ .

صاحَتْ : « يا إلَهي ! بَيْنَ كُتُبِهِ وَأنا أموتُ ! هَلْ يَعْلَمُ كَيْفَ تَغَيَّرْتُ ؟ يُخَيَّلُ لي أنَّهُ يَظُنُّ أنَّني ألْهو ، وَلَكِنَّني حَقيقَةً مَريضَةٌ وإنْ تَكُنْ حَقيقَةً مُرَّةً. كانَ عَلَيْهِ ألا يَتَكَلَّمَ مَعي بِتِلْكَ الصّورَةِ . أذْكُرُ ، يا إلين ، أنّني ظَلَلْتُ أعْدو هَرَباً مِنْهُ إلى هَذِهِ الغُرْفَةِ ، وَأقْفَلْتُ بابَها ، ثُمَّ غَشِيَتْني ظُلْمَةٌ وَسَقَطْتُ عَلى الأرْضِ ، وَحينَ فَتَّحْتُ عَيْنَيَّ مَرَّةً أخْرى وَجَدْتُني أرْقُدُ وَرأسي يَسْتَنِدُ إلى ساقِ المِنْضَدَةِ . وَظَنَنْتُ نَفْسي في فِراشيَ الخَشِنِ القَديمِ في المَنْزِلِ - في مُرْتَفعاتِ وَذِرِنغ . إيهِ ! كَمْ أوَدُّ لَوْ أنَّني رَجَعْتُ فَتاةً طائِشَةً ، وَفَتِيَّةً وَحُرَّةً مَرَّةً أخْرى ! كَمْ أريدُ أنْ أسْتَنْشِقَ هَواءَ التِّلالِ الطَّلْقَ ! أسْرِعي ! إفْتَحي النّافِذَةَ ! لِماذا لا تَتَحَرَّكينَ ؟»

« لأنّي لا أريدُ أنْ تَموتي مِنَ البَرْدِ .»

« أنْتِ تَقْصِدينَ أنَّكِ لا تُعْطينَني فُرْصَةً لِلْحَياةِ ! حَسَناً ، سَوْفَ أفْتَحُ النّافِذَةَ بِنَفْسي .»

وَقَبْلَ أنْ أمْنَعَها مِنْ فَتْحِ النّافِذَةِ ، انْزَلَقَتْ مِنْ فِراشِها وَعَبَرَتِ الغُرْفَةَ ، ثُمَّ فَتَحَتِ النّافِذَةَ وَانْحَنَتْ إلى الخارِجِ غَيْرَ عابِئَةٍ بِالجَوِّ المُتَجَمِّدِ ، الّذي كانَ يَخْتَرِقُ الجِسْمَ كَالسِّكّينِ . وحاوَلْتُ أنْ أعيدَها وَلَكِنَّها كانَتْ في هِياجِها أقْوى مِنّي .

لَمْ يَكُنْ هُناكَ قَمَرٌ ، وَكُلُّ شَيْءٍ كانَ يَلُفُّهُ الظَّلامُ ، وَلَكِنَّها قالَتْ إنَّها كانَتْ تَسْتَطيعُ أنْ تَرى أنْوارَ مُرْتَفعاتِ وَذِرِنغ .

قالَتْ في شَغَفٍ : « أنْظُري ، ها هِيَ ذي غُرْفَتي بِالشَّمْعَةِ المُضيئَةِ فيها، وَها هِيَ ذي الأشْجارُ تَتَمَوَّجُ أمامَها ، وَها هِيَ ذي شَمْعَةٌ أخْرى في غُرْفَةِ جُوزيف . وَها هُوَ ذا جُوزيف يَجْلِسُ إلى ساعَةٍ مُتَأخِّرَةٍ ، أ لَيْسَ هُوَ ذاكَ ؟ إنَّهُ يَنْتَظِرُ حُضوري إلى المَنْزِلِ حَتّى يُغْلِقَ البَوّابَةَ بَعْدَ دُخولي ، وَسَوْفَ يَظَلُّ بَعْضَ الوَقْتِ في انْتِظاري . إنَّها لَرِحْلَةٌ شاقَّةٌ وَشَجِيَّةٌ ، وَكَثيراً ما وَقَفْتُ مَعَ هيثكليف بَيْنَ مَقابِرِ المَوْتى وَنادَيْنا الأشْباحَ أنْ تَخْرُجَ لَنا ، وَسَألْتُهُ عَمّا إذا كانَ يَجْرُؤُ أنْ يَقِفَ عَلى قَبْري ، وَقُلْتُ لَهُ إنَّهُ إذا اسْتَطاعَ فَسَأحْتَفِظُ بِهِ ؛ فَأنا لَنْ

أَرْقُدَ هُناكَ وَحْدي ، فَلَوْ أَنَّني كُنْتُ وَحْدي لَدَفَنوني عَلى عُمْقِ أَرْبَعَةِ أَمْتارٍ ثُمَّ يُلْقونَ بِالقُمامَةِ فَوْقي . وَلكِنَّني لَنْ يَهْدَأَ لي بالٌ إلى أَنْ تَكونَ مَعي. أَجَلْ لَنْ يَهْدَأَ لي بالٌ .»

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَقْطَعَ حَبْلَ حَديثِها المَجْنونِ ، وَلكِنْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْفَتَحَ بابُ غُرْفَةِ النَّوْمِ وَدَخَلَ إدغار ؛ فَلَقَدْ سَمِعَ صَوْتَيْنا .

وَأَرْسَلْتُ صَيْحَةً وَأَنا أَقولُ : « إنَّ سَيِّدَتي المِسْكينَةَ ، يا سَيِّدي ، مَريضَةٌ ، فَانْسَ غَضَبَكَ وَاجْعَلْها تَعُدْ أَدْراجَها لِلْفِراشِ .»

أَسْرَعَ إلَيْنا سائِلاً : « هَلْ كاثرين مَريضَةٌ حَقًّا ؟ كاثرين ! لِماذا ... » ثُمَّ تَوَقَّفَ فَجْأَةً ؛ فَالتَّغَيُّرُ السَّريعُ في مَظْهَرِها جَعَلَهُ يَقِفُ صامِتاً .

قُلْتُ مُوَضِّحَةً : « إنَّها لَمْ تَسْمَحْ لي بِالدُّخولِ حَتَّى هَذا المَساءِ ، وَلِذا لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُبْلِغَكَ بِمَرَضِها ، وَلكِنَّهُ مَرَضٌ غَيْرُ ذي بالٍ.»

قالَ وَالغَضَبُ بادٍ عَلَيْهِ : « إنَّهُ مَرَضٌ غَيْرُ ذي بالٍ ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ، يا إلين ؟ كانَ يَجِبُ أَنْ تَدْعيني مِنْ قَبْلُ !» ثُمَّ أَخَذَ زَوْجَتَهُ بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، وَلكِنَّها لَمْ تَرَهُ أَوَّلَ الأَمْرِ ، ثُمَّ أَدْرَكَتْ مَنْ هُوَ ذاكَ الَّذي أَمْسَكَ بِها .

فَقالَتْ وَهِيَ تَلْتَفِتُ غاضِبَةً: « آهِ ، أَخيراً جِئْتَ ، يا إدغار لنتون؟ وَلكِنْ كانَ عَلَيْكَ أَنْ تَجيءَ قَبْلَ الآنَ حينَ كُنْتُ أُريدُكَ ، لَقَدْ جِئْتَ مُتَأَخِّراً الآنَ ، وَلَنْ يُمْكِنَكَ أَنْ تَمْنَعَني عَنْ فِراشِيَ الضَّيِّقِ في فِناءِ المَقابِرِ . سَوْفَ أَكونُ هُناكَ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ فَصْلُ الرَّبيعِ . هُناكَ مَكاني ، لَيْسَ مَعَ عائِلَةِ لنتون ، ولكِنْ في الهَواءِ الطَّلْقِ بِحَجَرٍ عَلى القَبْرِ !»

« كاثرين ، ماذا فَعَلْتِ ؟ أ لَمْ تَعودي تَهْتَمِّينَ بي ؟ هَلْ تُحِبِّينَ ذَلِكَ الهيث ...»

صاحَتْ مُقاطِعَةً: « أُصْمُتْ ! لا تَذْكُرْ هَذا الاسْمَ ! أنا لا أُريدُكَ الآنَ ، يا إدغار . عُدْ إلى كُتُبِكَ .»

قُلْتُ : « إنَّ ذِهْنَها مُشَتَّتٌ ، يا سَيِّدي . وَعَلَيْنا ألا نُسَبِّبَ لَها المَزيدَ مِنَ المَتاعِبِ .»

أَجابَ : « أنا لا أُريدُ أَيَّةَ نَصيحَةٍ مِنْكِ ، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ هَذا المَرَضَ اللَّعينَ كانَ بِسَبَبِ خَطَئِكِ .»

لَمْ يَخْطُرْ بِبالي أَنَّهُ مِنَ العَدالَةِ أَنْ يُوَجِّهَ لي لَوْمٌ بِهَذِهِ الطَّريقَةِ ، فَقُلْتُ : « لَقَدْ قُمْتُ بِواجِبي كَخادِمَةٍ أَمينَةٍ ، أ لَمْ يَكُنْ مِنْ واجِبي أَنْ أُخْبِرَكُم عَنْ هيثكليف وَإيزابيلا ؟»

رُبّما كانَ ذِهْنُ كاثرين مُشَتَّتاً ، وَلكِنَّها فَهِمَتْ أنَّني أكْشِفُ أسْرارَها .

جاهَدَتْ أنْ تُفْلِتَ مِنْ ذِراعَيْ إدغار ، فَأسْرَعْتُ مِنَ الغُرْفَةِ ، وَخُيِّلَ لي أنَّهُ قَدْ حانَ الوَقْتُ لِنَدْعُوَ طَبيباً .

وَلَقَدْ وَجَدْتُهُ في المَنْزِلِ ، وَجاءَ لِلتَّوِّ وَاللَّحْظَةِ ، وَفَحَصَ كاثرين وَأخْبَرَنا أنَّها تَحْتاجُ إلى هُدوءٍ تامٍّ حَتّى تَسْتَطيعَ أنْ تَسْتَرِدَّ قُواها . وَقالَ لي إنَّ الخَطَرَ لَيْسَ خَطَرَ مَوْتٍ بَلْ خَطَرُ جُنونٍ .

لَمْ يَكُنْ مَرَضُ كاثرين هُوَ كُلَّ ما أصابَنا مِنْ هَمٍّ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَفي الصَّباحِ اكْتَشَفْنا أنَّ غُرْفَةَ إيزابيلا كانَتْ خالِيَةً ؛ فَقَدْ هَرَبَتْ مَعَ هيثكليف ! لَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَكٌّ في ذَلِكَ ، فَقَدْ رَآهُما بَعْضُ النّاسِ مُسافِرَيْنِ في مَرْكَبَةٍ ، وَهُما يَخْتَرِقانِ القَرْيَةَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ تَماماً .

وَلَقَدْ تَوَقَّعْتُ أنْ يُرْسِلَ إدغار خادِماً وَراءَهُما ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، بَلْ قالَ : « إنَّها اخْتارَتْ أنْ تَهْرُبَ مَعَهُ ، وَلَنْ أحاوِلَ أنْ أمْنَعَها . وَالآنَ أقْطَعُ عَلاقَتي بِها تَماماً .»

الفصل الحادي عشر

غابَ هيثكليف وَإيزابيلا عَنِ المَنْزِلِ قُرابَةَ شَهْرَيْنِ ، وَفي أثْنائِها كانَتْ كاثرين تَمُرُّ بِفَتْرَةٍ عَصيبَةٍ مِنْ مَرَضِها الَّذي اشْتَدَّ عَلَيْها بِدَرَجَةٍ كَبيرَةٍ . وَكانَتْ رِعايَةُ إدغار هِيَ الَّتي أنْقَذَتْها مِنَ المَوْتِ ، فَقَدْ رَعاها لَيْلَ نَهارَ ، ولكِنَّ رِعايَتَهُ لِكاثرين وَتَعَبَهُ مَعَها أوْهَنَتْ صِحَّتَهُ هُوَ ، ولكِنَّهُ حينَ أعْلَنَ الطَّبيبُ أنَّها قَدْ جاوَزَتْ فَتْرَةَ الخَطَرِ فاضَ قَلْبُهُ بِالبَهْجَةِ .

وَلَمْ يَكُنْ فَرَحُنا مِنْ أجْلِ كاثرين فَقَطْ ، بَلْ أيْضاً مِنْ أجْلِ الطِّفْلِ الَّذي كانَتْ تَحْمِلُهُ في أحْشائِها ، وَكانَ أمَلُنا ألا يَمُرَّ شَهْرانِ آخَرانِ إلّا و يولَدُ لإدغار لنتون وَريثٌ . وَفي ذَلِكَ الوَقْتِ أعادَ هيثكليف إيزابيلا إلى مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ، وَفي اليَوْمِ التّالي تَلَقَّيْتُ خِطاباً مِنْها . لَقَدْ أصْبَحَتِ الآنَ زَوْجَةَ هيثكليف ، وَاكْتَشَفَتْ طَبيعَتَهُ الحَقيقِيَّةَ .

وَقَدْ كَتَبَتْ في خِطابِها تَقولُ : « إنّي لأُبْغِضُهُ وَأَخْشاهُ كَما أَخْشى الأَسَدَ ، أَوْ كَما أَخْشى ثُعْباناً ضَخْماً ، وَلٰكِنّي لا أَسْتَطيعُ الهُروبَ مِنْهُ ! وَهُوَ يَنْوي أَنْ يَحْتَفِظَ بي سَجينَةً في مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ، وَهُوَ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَصِلَ لإدغار الَّذي يَعُدُّهُ السَّبَبَ في مَرَضِ كاثرين ، وَلِذا فَهُوَ يُعاقِبُني أَنا بَدَلاً مِنْهُ ! وَهِندلي يُبْغِضُهُ أَيْضاً ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ فَقَدَ في لُعْبَةِ الوَرَقِ كُلَّ شَيْءٍ لِهيثكليف ؛ وَلٰكِنَّهُ يُريدُ أَنْ يَسْتَمِرَّ في اللَّعِبِ . وَهٰكَذا أَصْبَحَ هٰذا المَخْلوقُ الشِّرّيرُ يَسْتَحوذُ عَلَيْنا تَحْتَ سَيْطَرَتِهِ ! أَرْجو ، يا إلين ، أَنْ تَأْتي إلَيَّ هُنا وَتَأْتي مَعَكِ بِخِطابٍ مِنْ إدغار . »

لٰكِنَّ إدغار رَفَضَ أَنْ يَكْتُبَ لَها كَلِمَةً واحِدَةً . وَرَحَلْتُ إلى مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ بِقَلْبٍ مُثْقَلٍ بِالهُمومِ .

حينَ وَصَلْتُ هُناكَ دَخَلْتُ المَنْزِلَ ، وَكانَ لِلأَسَفِ قَدْ تَغَيَّرَ ، وَفارَقَتْهُ بَهْجَتُهُ . وَكانَ قَذِراً وَغَيْرَ مُرَتَّبٍ ، وَكانَ هيثكليف وَإيزابيلا في حُجْرَةِ الجُلوسِ وَحْدَهُما . وَ وَقَفَ هيثكليف وَحَيّاني بِأَدَبٍ ، وَكانَ مَظْهَرُهُ وَتَصَرُّفُهُ يَنُمّانِ عَنْ رَجُلٍ نَبيلٍ حَقّاً ، وَلٰكِنَّ إيزابيلا بَدَتْ فَظَّةً ؛ فَوَجْهُها الجَميلُ كانَ شاحِباً وَحَزيناً ، وَشَعْرُها تَدَلّى في غَيْرِ نِظامٍ عَلى ظَهْرِها ، وَكانَتْ مَلابِسُها قَذِرَةً .

وَتَقَدَّمَتْ بِشَغَفٍ لِتَحِيَّتي ، وَمَدَّتْ يَدَها لِتَتَناوَلَ الَّذي تَوَقَّعَتْ أَنْ

أَحْمِلَهُ مِنْ إدغار ، وَلٰكِنّي هَزَزْتُ رَأْسي ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَفْهَمْ مَعْنى هِزَّةِ رَأْسي ، وَهَمَسَتْ لي بِأَنْ أُسَلِّمَها ما أَحْضَرْتُ مَعي .

وَخَمَّنَ هيثكليف ما تُريدُ فَقالَ : « إذا كانَ لَدَيْكِ شَيْءٌ ما لإيزابيلا فَلا داعِيَ لأَنْ تَجْعَلي هٰذا الأَمْرَ سِرّاً ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ أَسْرارٌ بَيْنَنا . »

أَجَبْتُ : « لَيْسَ مَعي شَيْءٌ ، وَسَيِّدي يَبْعَثُ بِتَمَنِّياتِهِ لَكُما بِالسَّعادَةِ ، يا سَيِّدَتي ، وَلٰكِنْ لا تَتَوَقَّعي خِطاباً أَوْ زِيارَةً مِنْهُ . »

اِغْرَوْرَقَتْ عَيْناها بِالدُّموعِ ، وَعادَتْ لِمَقْعَدِها قُرْبَ النّافِذَةِ .

بَدَأَ هيثكليف يَسْأَلُني عَنْ حَقيقَةِ مَرَضِ كاثرين ، وَمَنِ الَّذي كانَ السَّبَبَ في مَرَضِها ، وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أُفيضَ كَثيراً في الحَديثِ ، وَأَكْمَلْتُ حَديثي قائِلَةً : « لَقَدْ أَنْقَذْتُ حَياتَها وَلٰكِنْ لَنْ تَعودَ كَما كانَتْ . لَوْ أَنَّكَ تَهْتَمُّ بِها فَالأَفْضَلُ أَنْ تَظَلَّ بَعيداً عَنْها في مِثْلِ تِلْكَ الظُّروفِ . وَعَلى أَيَّةِ حالٍ فَقَدِ اعْتَراها تَغْييرٌ شامِلٌ وَلَمْ تَعُدْ نَفْسَ الشَّخْصِيَّةِ ، وَالمَرْءُ لا يَسَعُهُ الآنَ إلّا أَنْ يَشْعُرَ بِالشَّفَقَةِ عَلَيْها ! »

صاحَ هيثكليف بِاحْتِقارٍ : « شَفَقَةٌ ! لَعَلَّ إدغار يَشْعُرُ فَقَطْ بِالشَّفَقَةِ عَلَيْها ، وَلٰكِنَّ مَشاعِري أَنا غَيْرُ ذٰلِكَ . إنَّ حُبَّهُ الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يُكِنَّهُ عَلى مَدى ثَمانينَ عاماً لا يُعادِلُ حُبّي في يَوْمٍ واحِدٍ ! لا بُدَّ أَنْ أَراها ، يا إلين ! »

« ما هَذا ! يَبْدو أنَّكَ عَلى اسْتِعْدادٍ لأنْ تُدمِّرَ كُلَّ الفُرَصِ لِتحسُّنِ صِحَّتِها – الآنَ وَقَدْ نَسيَتْكَ تَقْريباً ؟»

« هَلْ تَظُنّينَ أنَّها نَسيَتْني ؟ إيهٍ يا إلين ! فَأنْتِ تَعْلَمينَ أنَّها لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ ، فَهِيَ كُلَّما فَكَّرَتْ في إدغار مَرَّةً واحِدَةً فَكَّرَت في آلافِ المَرّاتِ . إنَّ لِكاثرين قَلْباً عَميقاً مِثْلَ قَلْبي ، فَفِكْرَةُ أنْ تَسْكُبَ كُلَّ الحُبِّ لإدغار مِثْلُ فِكْرَةِ أنْ نَصُبَّ بَحْراً في إناءٍ صَغيرٍ ! فَهُوَ بِالكادِ أعَزُّ عِنْدَها مِنْ كَلْبِها أوْ جِيادِها !»

صاحَتْ إيزابيلا فَجْأةً : « إنَّ كاثرين وَإدغار مُغْرَمانِ كُلٌّ بِالآخَرِ كَما يُغْرَمُ أيُّ اثْنَيْنِ مِنَ البَشَرِ ، وَلا يَحِقُّ لَكَ أنْ تَتَحَدَّثَ عَنْ أخي بِهَذِهِ الطَّريقَةِ !»

قالَ هيثكليف بِاحْتِقارٍ : « إنَّ أخاكِ مُغْرَمٌ بِكِ أيْضاً أيَّ غَرامٍ ! أ لَيْس كَذَلِكَ ؟ وَهُوَ يَتوقُ بِشَكْلٍ يُثيرُ الدَّهْشَةَ إلى أنْ يَتخَلَّصَ مِنْكِ .»

أجابَتْ : « إنَّهُ لا يَعْلَمُ شَيْئاً عَمّا أعاني مِنْهُ !»

قُلْتُ : « يَجِبُ أنْ تُعامِلَها بِرِقَّةٍ ، يا سَيِّدي ؛ فَقَدْ تَخَلَّتْ عَنْ عائِلَتِها وَأصْدِقائِها وَما كانَتْ تَنْعَمُ بِهِ في مَنْزِلِها مِنْ أجْلِكَ .»

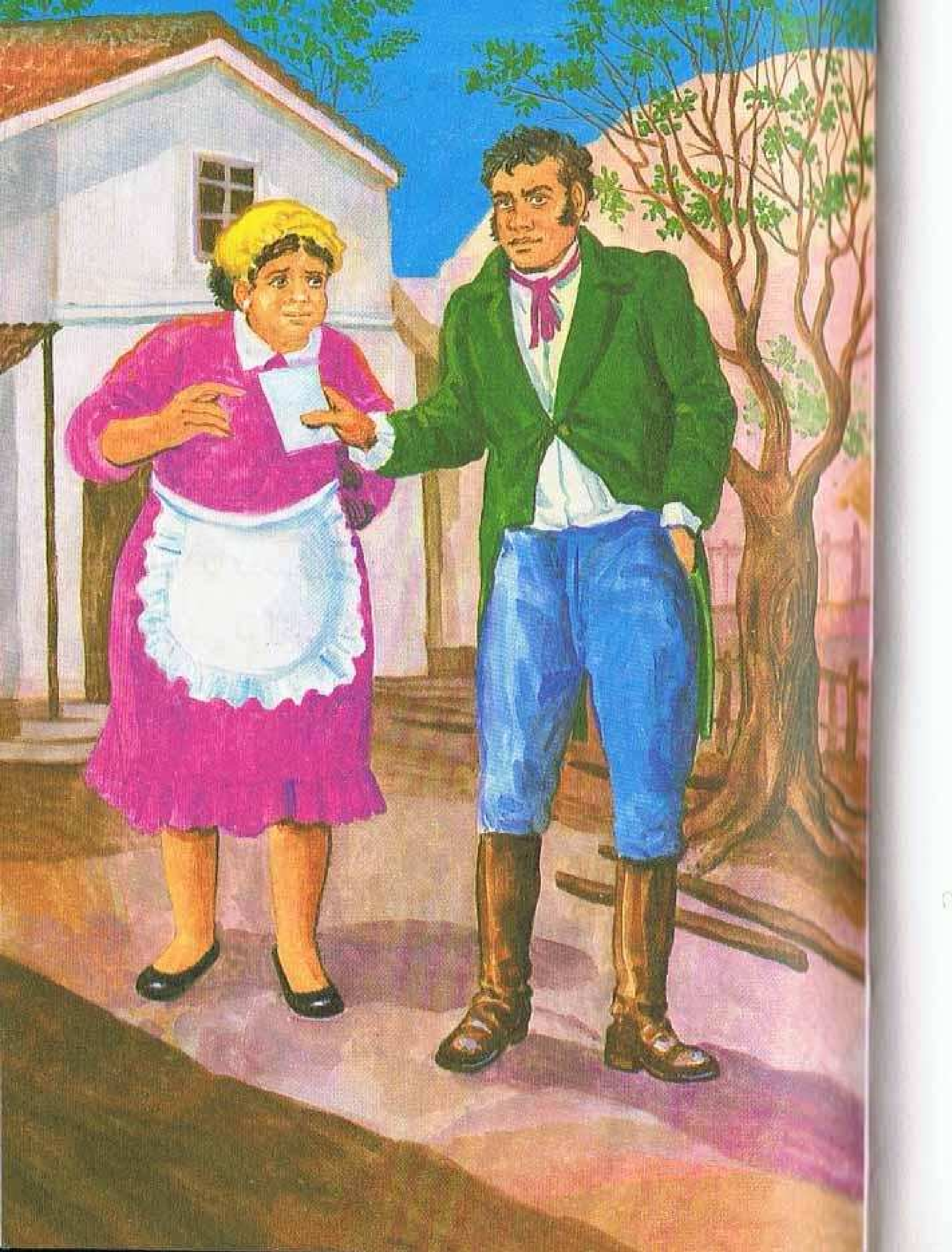
أجابَ : « لَقَدْ تَخَلَّتْ عَنْ كُلِّ هَذِهِ الأشْياءِ تَحْتَ اعْتِقادٍ

خادِعٍ – لَقَدْ تَخَيَّلَتْني بَطَلاً في قِصَّةٍ ، يَتَدَفَّقُ بِالحُبِّ وَالعَطْفِ عَلَيْها ، وَما كانَ يُمْكِنُها أنْ تَعْتَقِدَ أنّي لا أحِبُّها ! وَقَدْ أظْهَرْتُ لَها كَراهِيَتي بِكُلِّ الطُّرُقِ المُمْكِنَةِ الَّتي يُمْكِنُ أنْ تَفْهَمَها ، وَكُنْتُ أفَكِّرُ فيها ، وَبِرَغْمِ قَسْوَتي الشَّديدَةِ في مُعامَلَتِها ، كانَتْ تَعودُ إلَيَّ مُتَلَهِّفَةً . وَحَتّى الآنَ لا تُريدُ أنْ تَتْرُكَني ، وَكانَ يُمْكِنُها أنْ تَهْجُرَني لَوْ أنَّها أرادَتْ ذَلِكَ .»

صاحَتْ إيزابيلا : « إنَّه يَكْذِبُ ، لا تُصَدِّقي أيَّةَ كَلِمَةٍ مِمّا يَقولُهُ. لَقَدْ أخْبَرَني قَبْلَ الآنَ أنَّهُ يُمْكِنُني أنْ أبْتَعِدَ عَنْهُ ، وَلَقَدْ حاوَلْتُ أنْ أفْعَلَ ذَلِكَ – وَلكِنّي لا أسْتَطيعُ أنْ أعيدَ المُحاوَلَةَ . أرْجو ، يا إلين ، أنْ تَعِديني بِألا تَقولي لإدغار أيَّةَ كَلِمَةٍ مِمّا قُلْتُ لَكِ . إنَّ هيثكليف يَقولُ إنَّهُ تَزَوَّجَني لِكَيْ يُسَيْطِرَ عَلى إدغار – وَلكِنّي لَنْ أدَعَهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَأفَضِّلُ المَوْتَ عَلى ذَلِكَ .»

قالَ هيثكليف : « حَسَناً ، كُفّي عَنْ هَذا ، وَاصْعَدي إلى الدَّوْرِ العُلْوِيِّ ، يا إيزابيلا ، فَأنا أريدُ أنْ أقولَ شَيْئاً لإلين .»

ثُمَّ دَفَعَها إلى خارِجِ الغُرْفَةِ ، وَعادَ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ إلى نَفْسِهِ : « لَيْسَ بي شَفَقَةٌ ! لَيْسَ بي شَفَقَةٌ ! إنّي أرى المَخْلوقاتِ التَّعِسَةَ تَتَلَوّى ألَماً ، وَكُلَّما ازْدادَ ألَمُهُمْ ازْدَدْتُ رَغْبَةً في إلْحاقِ الأذى بِهِمْ .»



سَأَلْتُه : « هَلْ تَفْهَمُ ما مَعْنى كَلِمَةِ شَفَقَةٍ ؟ أَ لَمْ تَشْعُرْ بِها في حَياتِكَ ؟»

وبَيْنَما أَضَعُ قُبَّعَتي عَلى رَأسي تَأَهُّباً لِلْخُروجِ ، إذا بِهِ يَقولُ : « لا ، يا إلين ، لا تَذْهَبي الآنَ . يَجِبُ أَنْ تَمُدّي لي يَدَ المُساعَدَةِ دونَ تَوانٍ لِكَيْ أَرى كاثرين . أُقْسِمُ لَكِ أَنّي لا أَقْصِدُ أَنْ أُثيرَ أَيَّةَ مَتاعِبَ ، فَقَطْ أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ مِنْها هِيَ كَيْفَ حالُها الآنَ . لَقَدْ ظَلِلْتُ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ سِتَّ ساعاتٍ في حَديقَتِها ، وَلَسَوْفَ أُكَرِّرُ المُحاوَلَةَ هَذا المَساءَ وَكُلَّ يَوْمٍ ، إلى أَنْ أَتَحَيَّنَ فُرْصَةً لِدُخولِ المَنْزِلِ .»

قُلْتُ : « إنَّ لِقاءً آخَرَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَيِّدي سَوْفَ يَقْتُلُها .»

« يُمْكِنُ تَفادي هَذا ، يا إلين ، بِمُساعَدَتِكِ . يَجِبُ أَنْ تُساعِديني . لَنْ أَدَعَكِ تَعودينَ إلى المَنْزِلِ قَبْلَ أَنْ تَعِديني بِالمُساعَدَةِ !»

ورَفَضْتُ ذَلِكَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرى ، وَلَكِنَّهُ أَجْبَرَني أَخيراً عَلى أَنْ أَرْضَخَ ، وَأَعْطاني خِطاباً لِكاثرين ، وَ وَعَدْتُ بِأَنْ أُسَلِّمَهُ ، وَبِأَنْ أَسْمَحَ لَهُ بِدُخولِ المَنْزِلِ ، إذا وافَقَتْ ، حالَةَ غِيابِ سَيِّدي .

الفصل الثاني عشر

قَرَّرْتُ ألا أُسَلِّمَ كاثرين الخِطابَ ، إلّا بَعْدَ أنْ يَخْرُجَ سَيِّدي مِنَ المَنْزِلِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ ظَلَّ الخِطابُ في جَيْبي لِمُدَّةِ ثَلاثَةِ أيامٍ . وَحينَ كانَ هيثكليف يَدْلِفُ إلى الحَديقَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، كُنْتُ أعْرِفُ ذَلِكَ وَلَكِنّي لَمْ أكُنْ أذْهَبُ إلَيْهِ .

كانَ اليَوْمُ الرّابِعُ هُوَ يَوْمَ الأحَدِ ، وَقَدْ ذَهَبَ إدغار وَالخَدَمُ إلى البَلْدَةِ المُجاوِرَةِ لأداءِ بَعْضِ المَهامِّ ، وَكانَ المَنْزِلُ خالِياً ، وَقَدْ تَرَكْتُ الأبْوابَ مَفْتوحَةً تَماماً ، وَصَعِدْتُ إلى غُرْفَةِ كاثرين .

وَجَدْتُها جالِسَةً كَعادَتِها أمامَ النّافِذَةِ المَفْتوحَةِ ، وَكانَتْ تَرْتَدي ثَوْباً أبْيَضَ ، وكانَ مَظْهَرُها قَدْ تَغَيَّرَ تَماماً ، وَلَكِنَّها حينَ كانَتْ تَجْلِسُ في هُدوءٍ كانَتْ تَبْدو - في تَغَيُّرِها هَذا - في جَمالٍ سَماوِيٍّ ؛

فَالبَريقُ في عَيْنَيْها قَدْ تَحَوَّلَ إلى حُزْنٍ ، وَبَدَتْ عَيْناها تَنْظُرانِ إلى ما وَراءَ الأشْياءِ بِبُعْدٍ شاسِعٍ - إلى عالَمٍ وَراءَ عالَمِنا هَذا . وَحينَ لَمَحْتُ هَذِهِ النَّظْرَةَ في عَيْنَيْها تَأكَّدْتُ أنَّها توشِكُ أنْ تَموتَ .

كانَ ثَمَّ كِتابٌ مَوْضوعٌ أمامَها ، وَلَكِنَّها لَمْ تَكُنْ تَنْظُرُ إلَيْهِ ، وَكانَ إدغار قَدْ سَبَقَ أنْ وَضَعَهُ في مَكانِهِ . وَقَدْ أمْضى ساعاتٍ طِوالاً لِيُثيرَ شَغَفَها بِالكُتُبِ ، الَّتي طالَما أُغْرِمَتْ بِها فيما مَضى .

قُلْتُ : « ثَمَّ خِطابٌ لَكِ ، يا سَيِّدَتي ، عَلَيْكِ أنْ تَقْرَئيهِ بِسُرْعَةٍ لأنَّهُ يَتَطَلَّبُ رَدًّا . هَلْ تَسْمَحينَ لي بِأنْ أفُضَّهُ ؟»

قالَتْ وَهِيَ تُحَدِّقُ عَبْرَ النّافِذَةِ : « أجَلْ .»

فَفَضَضْتُهُ ، وَكانَ خِطاباً قَصيراً ، وَقُلْتُ لَها :

« وَالآنَ ، فَلْتَقْرَئيهِ .»

وَتَرَكَتْهُ يَسْقُطُ مِنْ فَوْقِ رُكْبَتَيْها ، فَأعَدْتُهُ إلى مَكانِهِ ، وَلَكِنَّها لَمْ تَلْتَقِطْهُ .

قُلْتُ أخيراً : « إنَّ الخِطابَ مِنْ هيثكليف .» فَرَفَعَتِ الخِطابَ إلى عَيْنَيْها بِلَهْفَةٍ ، وَبَدَأَتْ تَقْرَأُ ، وَلَكِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَفْهَمَ ما بِهِ .

قُلْتُ : « إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَراكِ . وَهُوَ في الحَدِيقَةِ الآنَ يَنْتَظِرُ أَنْ يَسْمَعَ إِجابَتَكِ . »

بَيْدَ أَنَّ هيثكليف لَمْ يَكُنْ في الحَدِيقَةِ آنَذاكَ ، وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ سَمِعْنا وَقْعَ خُطًى في رَدْهَةِ المَنْزِلِ ، فالْتَفَتَتْ كاثرين صَوْبَ بابِ الغُرْفَةِ . وَفَجْأَةً انْفَتَحَ البابُ وَدَخَلَ هيثكليف ، وَمَشى قُدُماً مُتَّجِهاً إِلَيْها .

ظَلَّ لِمُدَّةِ خَمْسِ دَقائِقَ لا يَنْبِسُ بِبِنْتِ شَفَةٍ ، وَلَمَحْتُ أَنَّهُ لا يَكادُ يَتَحَمَّلُ النَّظَرَ إِلى وَجْهِها . وَلكِنَّ نَظْرَةً واحِدَةً كانَتْ كافِيَةً لأَنْ تُنْبِئَهُ بِأَنَّها توشِكُ أَنْ تَموتَ .

قالَ أَخيراً : « آهٍ يا كاثي ! آهٍ يا حَياتي ! كَيْفَ أَتَحَمَّلُ ؟ »

وَفَجْأَةً تَمَلَّكَ الغَضَبُ كاثرين فَقالَتْ : « ماذا تُرِيدُ الآنَ ؟ لَقَدْ حَطَّمْتَ قَلْبي أَنْتَ وَإِدغار ! لَقَدْ جِئْتُما كِلاكُما لي بِأَحْزانِكُما كَما لَوْ كُنْتُما تَسْتَحِقّانِ الشَّفَقَةَ ! لَنْ أُشْفِقَ عَلَيْكُما ! »

جَثا هيثكليف بِجانِبِها ، وَحاوَلَ أَنْ يَقومَ ، وَلكِنَّها أَمْسَكَتْ بِشَعْرِهِ وَأَبْقَتْهُ جاثِياً .

اِسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَها قائِلَةً : « أَتَمَنّى لَوْ أَنَّني اسْتَطَعْتُ أَنْ أَظَلَّ

مُمْسِكَةً بِكَ إِلى أَنْ نَموتَ نَحْنُ الاثْنانِ ! أَنا لا يَهُمُّني ما عانَيْتَهُ . وَلِمَ لا تُعاني ؟ فَأَنا أُعاني ! هَلْ سَتَنْساني ؟ هَلْ سَتَكونُ سَعِيداً وَأَنا راقِدَةٌ في قَبْري ؟ »

صاحَ هيثكليف في شَراسَةٍ ، وَقَدْ حَرَّرَ رَأْسَهُ مِنْ يَدَيْها ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضاً مِنْ شَعْرِهِ بَقِيَ بَيْنَ أَصابِعِها : « لا تَدْفَعيني إِلى جُنونٍ مِثْلِ جُنونِكِ ! »

وَمَضى يَقولُ : « لا بُدَّ أَنَّ بِداخِلِكِ شَيْطاناً جَعَلَكِ تَتَحَدَّثينَ إِلَيَّ وَأَنْتِ تُوشِكينَ عَلى المَوْتِ ! كُلُّ هذِهِ الكَلِماتِ الَّتي تَتَفَوَّهينَ بِها سَوْفَ تُحْفَرُ في ذاكِرَتي ، وَتَظَلُّ تَنْخَرُ في عِظامي عَميقاً عَميقاً إِلى الأَبَدِ ، يا كاثرين . فَأَنْتِ تَعْلَمينَ أَنَّهُ لا يُمْكِنُني أَنْ أَنْساكِ . وَهكَذا بَيْنَما أَنْتِ تَرْقُدينَ في القَبْرِ هادِئَةً ساكِنَةً سَأَظَلُّ أَنا أُقاسي مِنْ أَجْلِكِ إِلى الأَبَدِ . »

قالَتْ كاثرين : « لَنْ أَنْعَمَ بِالهُدوءِ . » وَكانَ قَلْبُها يَدُقُّ دَقّاً عَنيفاً ، وَظَلَّتْ لِبِضْعِ دَقائِقَ عاجِزَةً عَنِ الكَلامِ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ وَهِيَ أَكْثَرُ رِقَّةً : « أَنا لا أَتَمَنّى لَكَ أَلَماً أَكْثَرَ مِمّا أُقاسي ، يا هيثكليف . كُلُّ ما أَتَمَنّاهُ أَلا يُفَرِّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنا ، وَإِذا كانَتْ كَلِماتي تُسَبِّبُ لَكَ

ألماً بَعْدَ أنْ نفْترِقَ ، فَتذَكَّرْ أنّني سأعاني الألَمَ نفْسَهُ وأنا في قَبْري . وأرْجو أنْ تعْفُوَ عنّي ! تعالَ هُنا واجْثُ مرَّةً أُخْرى .»

ذهَبَ إلى مقْعَدِها مِنَ الخلْفِ وانْحنى علَيْهِ ، ولكِنَّهُ حجَبَ عنْها وَجْهَهُ حتّى لا تراهُ ، الأمْرُ الّذي أفْصحَ عَنْ مشاعِرِهِ بِوُضوحٍ . واسْتدارَتْ هِيَ إلى الخلْفِ لِتنْظُرَ إلَيْهِ ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَسْمحْ لها بِذلِكَ ، واسْتدارَ وذَهَبَ إلى المِدْفأةِ حَيْثُ وَقفَ صامِتاً مولياً لنا ظَهْرَهُ .

راقبَتْهُ كاثرين بِإمْعانٍ ، وبَعْدَ لحظاتٍ قالَتْ في حُزْنٍ : « ها أنْتِ ذي ، يا إلين ، تَرَيْنَ كَيْفَ يُحِبُّني ! لا بأسَ ! لَيْسَ هَذا الرَّجُلُ فَتايَ هيثكليف. إنّني أُحِبُّ فَتايَ وَسآخُذُهُ مَعي ، فَهُوَ كامِنٌ في روحي .» واسْتمَرَّتْ في الحَديثِ : « وَرغْمَ ذلِكَ ، فإنَّ ما يُسبِّبُ لي ضيْقاً شَديداً هُوَ هَذا السِّجْنُ المُحطَّمُ – جِسْمي ، إنّني لَفي كَرْبٍ شَديدٍ لأنّي مُحاصَرَةٌ هُنا . أُريدُ أنْ أنْطَلِقَ إلى ذلِكَ العالَمِ الرّائعِ ، وأنْ أكونَ هُناكَ دائماً ، حيْثُ أرْتفِعُ بَعيداً عَنْكُمْ عالِياً فَوْقَ الجَميعِ .» وراحَتْ تُخاطِبُ نَفْسَها قائلَةً : « يا عَزيزي هيثكليف ، تعالَ إليَّ .»

ونَهضَتْ وَهِيَ في هَذا الشَّوْقِ ، واسْتنَدَتْ إلى ذِراعِ مَقْعَدٍ ، فاسْتدارَ إلَيْها واغْرَوْرَقَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ . ولَبِثا هكَذا لَحْظَةً ، ثُمَّ

قَفزَتْ كاثرين إلى الأمامِ فأمْسكَ بِها قائلاً : « لِماذا احْتقَرْتِني ؟ لِماذا تَصرَّفْتِ ضِدَّ قَلْبِكِ ، يا كاثي ؟ لَقَدْ أحْبَبْتِني فَلِماذا سمَحْتِ لِنَفْسِكِ بِأنْ تَتخلَّيْ عنّي ؟ لَيْسَ عِنْدي لكِ مِنْ كَلِمَةِ مُواساةٍ واحِدَةٍ ؛ فأنْتِ تَسْتحِقّينَ ذلِكَ ! لَقَدْ قَتلْتِ نَفْسَكِ . أنا لَمْ أُحطِّمْ قَلْبَكِ ، فأنْتِ الّتي حطَّمْتِهِ ، وَفي تَحْطيمِكِ لِقَلْبِكِ حطَّمْتِ مَعَهُ قَلْبي . هَلْ تَظُنّينَ أنّني أُحِبُّ أنْ أعيشَ ؟ وأيُّ حَياةٍ تِلْكَ الّتي أعيشُها عِنْدَما – آهِ يا إلَهي ! أ تَرْغَبينَ في أنْ تَعيشي مَعَ روحِكِ في القَبْرِ ؟»

قالَتْ كاثرين باكِيَةً : « كفى ! كفى ! إذا كُنْتُ قَدْ أخْطَأتُ فأنا الآنَ أموتُ بِخَطَئي ، وَفي هذا الكِفايَةُ . وأنْتَ أيْضاً قَدْ تخلَّيْتَ عَنّي ولَكِنّي لَنْ ألومَكَ . إنّي أُسامِحُكَ ، فَسامِحْني أنْتَ أيْضاً .»

أجابَ : « مِنَ الصَّعْبِ أنْ يَتسامَحَ وَيَصْفحَ الإنْسانُ ، وأنْ يَنْظُرَ إلى تِلْكَ العَيْنَيْنِ ويَلْمسَ هاتَيْنِ اليَدَيْنِ النَّحيلَتَيْنِ . لا تَدَعيني أرَ العَيْنَيْنِ . إنّي لأصْفَحُ وأتَسامَحُ فيما سَبَّبْتِهِ لي مِنْ مَتاعِبَ . إنّي أُحِبُّ قاتِلَتي – ولَكِنْ كَيْفَ أسْتَطيعُ أنْ أصْفَحَ عَنْ قاتِلِكِ ؟»

وَلاذَ كِلاهُما بِالصَّمْتِ ، وَقَدْ خَبَّأَ كُلٌّ وَجْهَهُ أمامَ الآخَرِ ،

وَغسلَتْ دُموعُهُما ما بِهِما . وَخُيِّلَ إليَّ أنَّ البُكاءَ كانَ مِنْ كِلَيْهِما ، وَبَدا لي أنَّ هيثكليف كانَ يَسْتَطيعُ البُكاءَ في الأوْقاتِ العَصيبَةِ مِثْلِ ذَلِكَ الظَّرْفِ .

مَرَّتْ فَتْرَةُ بَعْدَ الظُّهْرِ سَريعاً ، فَأعْلَنْتُ أنَّ سَيِّدي في طَريقِهِ لِلْعَوْدَةِ ، فَراحَ هيثكليف يَلْعَنُ وَيَسْخَطُ .

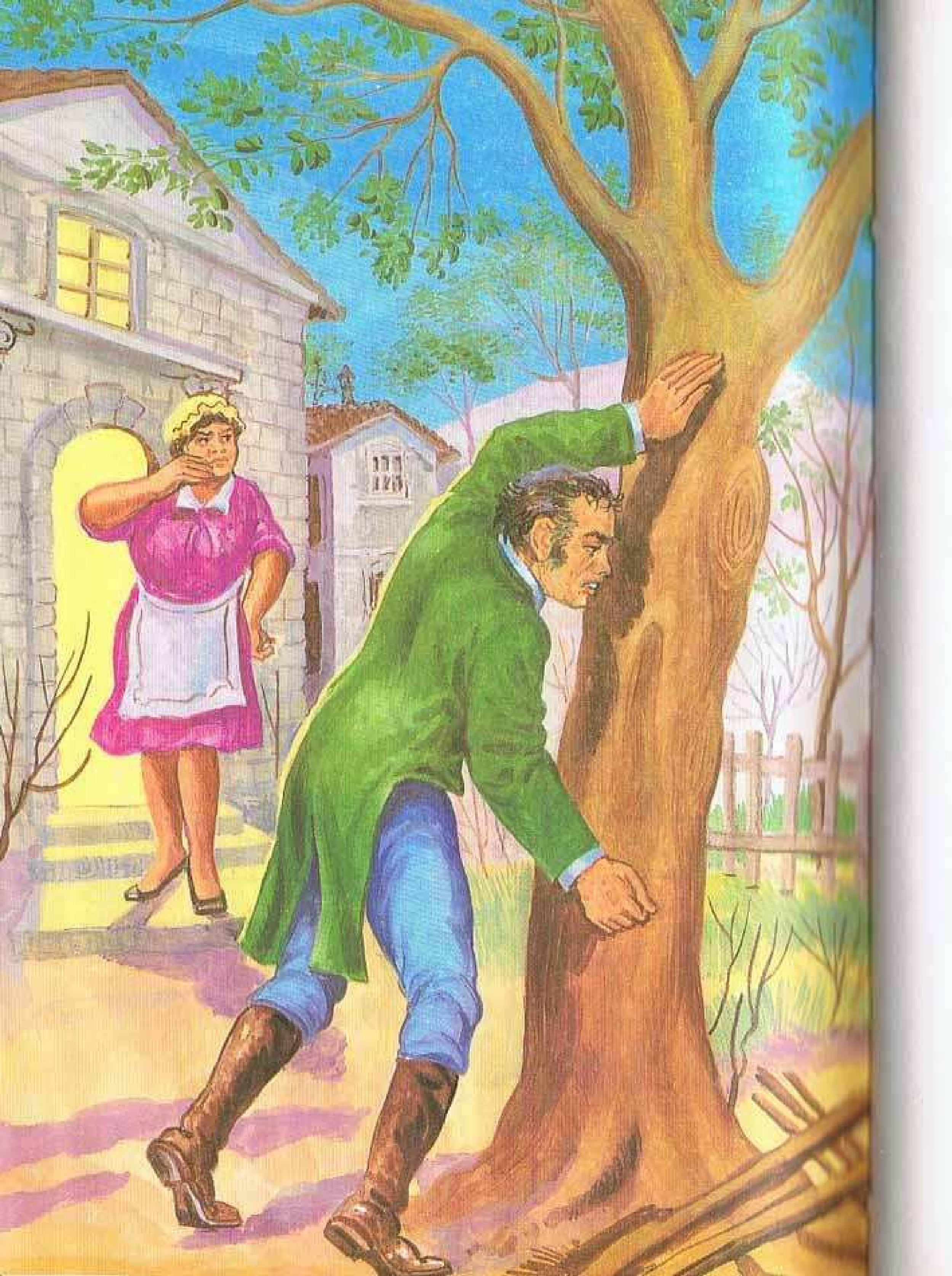
وَقَبْلَ أنْ يَمْضِيَ وَقْتٌ طَويلٌ رَأَيْتُ الخَدَمَ وَهُمْ يَأخُذونَ طَريقَهُمْ إلى بابِ المَطْبَخِ ، وَخَلْفَهُمُ السَّيِّدُ لنتون بِمَسافَةِ أمْتارٍ ؛ فَصِحْتُ : « الآنَ قَدْ وَصَلَ هُوَ إلى هُنا .. أَسْتَحْلِفُكَ بِالسَّماءِ أنْ تُسْرِعَ وَلَنْ تُقابِلَ أحَداً عَلى السُّلَّمِ الأماميِّ . أرْجوكَ أنْ تُسْرِعَ !»

حاوَلَ أنْ يَقِفَ وَلَكِنَّها تَشَبَّثَتْ بِهِ بِقُوَّةٍ ، وَصَرَخَتْ بِحِدَّةٍ : « لا تَذْهَبْ ، يا هيثكليف ! سَأموتُ ! سَأموتُ !»

صِحْتُ : « هَلْ سَتُصْغي إلى جُنونِها ؟ أ تَنْوي أنْ تُحَطِّمَها ؟ إنَّها لا تَعْرِفُ مَعْنى ما تَقولُ ! سَنُدَمَّرُ كُلُّنا !» وَأسْرَعَ إدغار بِالدُّخولِ إلى المَنْزِلِ .

سَقَطَتْ ذِراعا كاثرين مِنْ عُنُقِ هيثكليف ، وَمالَ رَأسُها ، فَظَنَنْتُ أنَّها قَدْ أغْمِيَ عَلَيْها .

قَفَزَ إدغار إلى هيثكليف بِوَجْهٍ غاضِبٍ مُكْفَهِرٍّ ، وَلَكِنَّ هيثكليف أرْقَدَ بِسُرْعَةٍ ذَلِكَ الجِسْمَ الَّذي بَدا وَكَأنَّ لا حَياةَ فيهِ ، وَقالَ : « ساعِدْها لِتَسْتَرِدَّ أنْفاسَها أوَّلاً ، ثُمَّ تَحَدَّثْ إليَّ .» وَخَرَجَ إلى الحَديقَةِ .



الفصل الثالث عشر

أَنْجبَتْ كاثرين بِنْتاً في حَوالى السّاعَةِ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَكانَتْ طِفْلَةً هَزيلَةً بائِسَةً ، جاءَتْ إلى العالَمِ قَبْلَ ميعادِها بِشَهْرَيْنِ . وَقَدْ ماتَتْ أُمُّها بَعْدَ مَوْلِدِها بِبِضْعِ ساعاتٍ ، وَلَمْ تَفْتَحْ عَيْنَيْها لِتَرى إدغار أَوْ لِتُوَدِّعَ هيثكليف .

وَكانَ وَجْهُها في المَوْتِ تُغَطّيهِ مَسْحَةٌ مِنَ السَّلامِ التّامِّ ، وَقَدْ تَطَلَّعْتُ إِلَيْها وَهِيَ مُمَدَّدَةٌ في الصَّباحِ المُشْرِقِ ، فَرَأَيْتُ جَمالاً سَماوِيًّا يَنْبَعِثُ مِنْ وَجْهِها ؛ وَعِنْدَئِذٍ شَعَرْتُ بِأَنَّ روحَها قَدْ صَعِدَتْ إلى بارِئِها .

وَكانَ إدغار يَرْقُدُ إلى جِوارِها مُجْهَداً مِنْ طولِ مُعاناتِهِ ، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَخْرُجَ لأَبْحَثَ عَنْ هيثكليف .

وَ وَجَدْتُهُ في الحَديقَةِ يَسْتَنِدُ إلى شَجَرَةٍ كَبيرَةٍ عَجوزٍ في رُكْنٍ

هادئ من الحديقة ، وحين اقتربتُ منه شخص ببصره إليَّ قائلاً :

« لقد ماتت ، وقد عرفتُ ذلك قُبيل هذه اللحظة . أبعدي منديلك ، ولا تبكي أمامي ، فإنّي ألعنكم جميعاً ! إنّها لا تريد دموعكم .»

كنتُ أذرف الدمع لأجله ولأجلها ، ونحن نُشفق في بعض الأحيان على أناسٍ لا يُشفقون على أنفسهم ولا على غيرهم . ورأيتُ شفتيه تتحرّكان ، فظننتُ بغباءٍ أنّه يُصلّي .

أجبتُ : « أجل ، قد ماتت .»

« كيف ...؟» ولم يستطع أن يُكمل سؤاله ، و وقف يحدجني بنظراته ، رافضاً إشفاقي عليه ؛ ولكنّه كان ينتفض بكلّ جسمه حتّى أطراف أصابعه ، وسأل أخيراً : « كيف ماتت ؟»

أجبتُ : « في هدوءٍ كالحمل الوديع ، فقد أخذت نفساً عميقاً كطفلٍ استيقظ للتوّ ثمّ استسلم للنوم مرّة أخرى ، وسمعتُ قلبها – بعد خمس دقائق – ينبض مرّة واحدة ثمّ توقّف إلى الأبد .»

سأل : « هل .. هل ذكرتِ اسمي ؟»

أجبتُ : « إنّها لم تتعرّف على أحدٍ منذ تركتها . وقد رقدت

وابتسامة عذبة على شفتيها . وانتهت حياتها في حلمٍ جميل . وآمل أن تستيقظ في السماء بمثل هذه الرقّة !»

صاح بعنفٍ مفاجئ : « آمل أن تستيقظ في الجحيم ! لقد خدعتنا حتّى النهاية . فهي الآن ليست في الجنّة . أين هي ؟ لقد ذكرتِ أنّك لا تأبهين لآلامي ! وأنا لي طلب في صلاتي : ألا تهدأ روح كاثرين إيرنشو ما دمتُ على قيد الحياة ! لقد قلتِ ذات مرّة إنّني قتلتك ، فلتدعي روحك تظهر لي إذاً ! فلتكوني معي دائماً ، ولتأخذي أيّ شكلٍ يعجبك . ولتدفعيني إلى الجنون ! فقط أرجو ألا تتركيني وحيداً في هذا العالم الأجوف ! يا إلهي ، لا أستطيع أن أعيش بدون حياتي ! لا أستطيع أن أعيش بدون روحي !»

وضرب رأسه بعنفٍ في الشجرة ، ثمّ رفع عينيه وصاح لا كرجلٍ ولكن كحيوانٍ مفترسٍ يُساق إلى الموت . وقد رأيتُ بقعاً من دمائه على الشجرة ، وبقعاً أخرى على يده ورأسه ، وقد فعل ذلك غالباً مرّات عديدة أثناء الليل . وبعد دقيقة لاحظ أنّي أراقبه ، فأمرني بكلّ خشونة أن أبتعد ، فانصعتُ للأمر .

ولم تُدفن كاثرين مع عائلة لنتون ، ولا مع عائلتها ، بل حُفر لها قبرٌ في منحدرٍ بجوار الأرض القفر التي كانت تحبّها ، و وُضع على قبرها حجرٌ يُشير إليه .

الفصل الرابع عشر

تَلَقَّتْ طِفْلَةُ كاثرين قَليلاً مِنَ الرِّعايَةِ خِلالَ السّاعاتِ الأولى مِنْ ميلادِها ، وَكانَ إدغار شَديدَ الحُزْنِ لِمَوْتِ كاثرين ؛ فَلَمْ يَكُنْ لِيُفكِّرَ في طِفْلَتِه ، وَقَدْ أبْقَيْتُها – بادِئَ الأمْرِ – بَعيداً عَنْهُ . كَمْ كانَتْ هَذِهِ الطِّفْلَةُ بائِسَةً لِكَوْنِها فَتاةً وَلَيْسَتْ وَلَداً ! فَلَمْ يَعُدْ لإدغار وَلَدٌ لِيَرِثَ مُمْتَلَكاتِهِ ، فَسَوْفَ تَؤولُ مُمْتَلَكاتُهُ لأخْتِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ وَلَيْسَ لابْنَتِهِ ، وَكانَ ذَلِكَ يَتَمَشّى مَعَ رَغَباتِ الأبِ لنتون كَبيرِ العائِلَةِ .

وَفي اليَوْمِ التّالي لِوَفاةِ كاثرين ، كُنْتُ في غُرْفَةِ الجُلوسِ ، وَكانَتِ الطِّفْلَةُ الباكِيَةُ عَلى رُكْبَتَيَّ ، وَفَجْأةً انْدَفَعَتِ امْرَأةٌ شابَّةٌ إلى داخِلِ المَنْزِلِ ، لا تَكادُ تَقْوى عَلى الْتِقاطِ أنْفاسِها ، وَتَضْحَكُ بِهِسْتيرِيَّةٍ . كانَتْ إيزابيلا ، وَقَدْ أخْبَرَتْني أنَّها قَطَعَتِ الطَّريقَ مِنْ

مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنغ عَدْواً . وَكانَتْ عَلى وَجْهِها بُقَعُ دَمٍ ، وَكانَتْ ثِيابُها في حالَةٍ رَثَّةٍ ، وَقَدْ هَرَبَتْ مِنْ زَوْجِها أثْناءَ عِراكِهِ مَعَ هندلي ، وَيَبْدو أنَّ هندلي كانَ يُحاوِلُ قَتْلَ هيثكليف .

لَمْ تَبْقَ إيزابيلا في ثرشكروس غرانغ ، لأنَّها كانَتْ تَعْرِفُ أنَّ إدغار لا يُرَحِّبُ بِتَواجُدِها هُناكَ . وَكانَتْ تَخْشى أيْضاً أنْ يَذْهَبَ هيثكليف إلى هُناكَ في مُحاوَلَةٍ لِلْعُثورِ عَلَيْها . وَلِكَيْ تَأمَنَ جانِبَهُ ، كانَ عَلَيْها أنْ تَبْتَعِدَ عَنْهُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ تَرَكَتْ جمرتون إلى الأبَدِ ، وَقَدْ تَلَقّى سَيِّدي رَبُّ المَنْزِلِ أخْباراً بِأنَّها اسْتَقَرَّتْ في الجَنوبِ قُرْبَ لَنْدَن ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ أخَذا يَتَراسَلانِ بِانْتِظامٍ .

ظَلَّ هيثكليف في مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنغ مَعَ هندلي وَهيرتون الصَّغيرِ ، وَكُنْتُ أقابِلُهُ في بَعْضِ الأحْيانِ في القَرْيَةِ ، وَلَكِنَّ إدغار كانَ يُكِنُّ لَهُ كَراهِيَةً عَميقَةً ، لِدَرَجَةِ أنَّهُ كانَ لا يَذْهَبُ إلى أيِّ مَكانٍ يُحْتَمَلُ أنْ يَراهُ فيهِ أوْ يَسْمَعَ عَنْهُ . وَلِذا وَلِحُزْنِهِ عَلى كاثرين فَقَدِ انْقَطَعَ إدغار عَنْ كُلِّ الرِّفاقِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُغادِرَ مَنْزِلَهُ إلّا لِيَتَرَيَّضَ وَحْدَهُ في الأرْضِ القَفْرِ ، أوْ لِيَزورَ قَبْرَ زَوْجَتِهِ في أوْقاتٍ مُتَأخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، أوْ في الصَّباحِ الباكِرِ حينَ لا يَكونُ هُناكَ أحَدٌ .

وَبِمُضِيِّ الزَّمَنِ بَدَأتْ أحْزانُهُ تَقِلُّ ، وَاسْتَطاعَ ألا يُطيلَ فَتْرَةَ

تَعاستِهِ ، فَلَمْ يَتمنَّ أنْ يَظْهَرَ لَهُ شَبَحُ كاثرين !

وكانَ عَزاؤُهُ الوَحيدُ هُوَ ابْنَتَهُ الطِّفْلَةَ ، فَفي بادِئِ الأمْرِ لَمْ يَكُنْ لِيُعيرَها اهْتِماماً ، وَلَكِنَّ فُتورَهُ سَرْعانَ ما تَلاشى . وَقَدْ تَحَكَّمَتْ في قَلْبِهِ تِلْكَ الطِّفْلَةُ الصَّغيرَةُ قَبْلَ أنْ تَسْتَطيعَ النُّطْقَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، وَقَبْلَ أنْ تَسْتَطيعَ أنْ تَخْطُوَ خُطْوَةً واحِدَةً . وَقَدْ أسْماها كاثرين ، وَلَكِنَّهُ كانَ يُناديها بِكاثي لِيَكونَ ثَمَّ اخْتِلافٌ بَيْنَها وَبَيْنَ أمِّها .

وَلَمْ تَمْضِ بِضْعَةُ أسابيعَ عَلى هُروبِ إيزابيلا مِنْ هيثكليف حَتّى وَصَلَتْنا أخْبارٌ بِأنَّها أيْضاً أنْجَبَتْ طِفْلاً ، وكانَ وَلَداً ، وَقَدْ أطْلَقَتْ عَلَيْهِ اسْمَ لنتون . وكانَ الوَلَدُ كَما قالَتْ مُنْذُ وِلادَتِهِ ضَعيفَ البِنْيَةِ .

سَمِعَ هيثكليف عَنْ وِلادَةِ ابْنِهِ ، وَاكْتَشَفَ أيْضاً المَكانَ الَّذي تَعيشُ فيهِ إيزابيلا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إلَيْها ، وَلَكِنَّهُ كَثيراً ما كانَ يَسْألُ عَنِ الطِّفْلِ حينَ كانَ يَراني ؛ وَإذْ سَمِعَ أنَّهُ سُمِّيَ لنتون ، افْتَرَّ ثَغْرُهُ عَنِ ابْتِسامَةٍ باهِتَةٍ ، وَقالَ : « إنَّهُمْ يُريدونَني أنْ أبْغُضَهُ أيْضاً ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

أجَبْتُ : « إنَّهُمْ لا يُريدونَ أنْ تَعْرِفَ شَيْئاً عَنْهُ .»

قالَ : « وَلَكِنِّي سَأعْرِفُ عِنْدَما أريدُ .»

كَثيراً ما طافَ بِخاطِري كَمْ يَخْتَلِفُ إدغار عَنْ هندلي إيرنشو ، فَهُما في مُواجَهَةِ مُشْكِلاتٍ مُتَشابِهَةٍ يَتَصَرَّفانِ تَصَرُّفاتٍ مُتَضارِبَةً ، فَكِلاهُما قَدْ فَقَدَ زَوْجَةً كانَ يُحِبُّها حُبّاً جَمّاً ، وَكِلاهُما تَرَكَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ طِفْلاً ؛ فَفَقَدَ هندلي كُلَّ أمَلٍ في الحَياةِ ، وَلَكِنَّ إدغار أظْهَرَ شَجاعَةً حَقيقِيَّةً ، فَهُوَ قَدْ وَثِقَ بِاللهِ وَبَعَثَ اللهُ فيهِ العَزاءَ وَالسَّكينَةَ . وَيَبْدو أنَّ هندلي كانَ أقْوى شَخْصِيَّةً مِنْ إدغار ، وَلَكِنَّهُ رَغْمَ ذَلِكَ كانَ الأضْعَفَ تَحَمُّلاً .

لَمْ يَعِشْ هندلي ، بَعْدَ مَوْتِ أخْتِهِ ، سِوى سِتَّةِ شُهورٍ ؛ وماتَ وَهُوَ في السّابِعَةِ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ ، أيْ في مِثْلِ عُمْري .

وَبِمَوْتِهِ لَمْ تَؤُلْ مُرْتَفَعاتُ وَذِرنغ لابْنِهِ هيرتون ، وَلَكِنَّها آلَتْ لِهيثكليف ؛ لأنَّ هندلي كانَ قَدْ خَسِرَ كُلَّ شَيْءٍ يَمْتَلِكُهُ في لَعِبِ الوَرَقِ .

وَلَمْ يَنَلْ هيرتون شَيْئاً ، فَأرادَ إدغار أنْ يَأخُذَهُ لِيَعيشَ في ثرشكروس غرانغ ، وَلَكِنِّي حينَ أخْبَرْتُ هيثكليف بِذَلِكَ ؛ ضَحِكَ ضِحْكَةً لا تَنُمُّ عَنْ رِضاً وَقالَ : « إنّي لأحِبُّ فِكْرَةَ تَرْبِيَةِ طِفْلٍ ؛ فَإذا كُنْتِ سَتَأخُذينَ هَذا الصَّغيرَ فَسَوْفَ أسْتَرِدُّ ابْني عِوَضاً عَنْهُ .»

وَمِنْ ثَمَّ لَمْ نَفْعَلْ أيَّ شَيْءٍ إزاءَ هَذا ، وَتَرَكْنا الطِّفْلَ هيرتون في

رِعايَةِ هيثكليف .

وَهكَذا انْتَقَمَ هيثكليف لِنَفْسِهِ مِنْ عَدُوِّهِ القَديمِ هندلي ، وَقَدْ أصْبَحَ سَيِّدَ مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ، وَأصْبَحَ ابْنُ هندلي خادِمًا لَهُ . وَلكِنَّ انْتِقامَ هيثكليف لَمْ يَقِفْ عِنْدَ هَذا الحَدِّ ، فَقَدْ كانَ لَهُ عَدُوٌّ آخَرُ – هُوَ إدغار .

الفصل الخامس عشر

كانَتْ الاثْنَتا عَشْرَةَ سَنَةً الَّتي أعْقَبَتْ ذَلِكَ ، أسْعَدَ أيّامِ حَياتي ؛ حَيْثُ كُنْت أرْقُبُ الطِّفْلَةَ الصَّغيرَةَ كاثي وَهِيَ تَنْمو لِتُصْبِحَ طِفْلَةً صَحيحَةَ البَدَنِ ، قَوِيَّةَ البُنْيانِ . وَقَدْ جَلَبَتِ السَّعادَةَ في ذَلِكَ البَيْتِ التَّعِسِ . كانَتْ جَميلَةً حَقًّا ، وَتَتَمَتَّعُ بِعَيْنَيْنِ مِثْلِ عيونِ عائِلَةِ إيرنشو الجَميلَةِ الدّاكِنَةِ ، وَشَعْرِ عائِلَةِ لنتون الأصْفَرِ . وَكانَتْ مِثْلَ أمِّها مَرِحَةً ، بِقَلْبٍ كَريمٍ يَغْمُرُهُ الحُبُّ ، ولكِنَّها كانَتْ في الحَقيقَةِ تَخْتَلِفُ عَنْ أمِّها ؛ فَغَضَبُها لَمْ يَكُنْ قَطُّ حادًّا ، وَحُبُّها لَمْ يَكُنْ عَنيفًا ، وَكانَ صَوْتُها رَقيقًا وَتَعْبيراتُ وَجْهِها تَأمُّلِيَّةً ، وَلكِنْ كانَ لَها أخْطاؤُها ، وَأحَدُها إصْرارُها عَلى التَّمَسُّكِ بِرَأيِها في كُلِّ شَيْءٍ .

مُنْذُ أنْ كانَتْ طِفْلَةً صَغيرَةً امْتَلَكَتْ زِمامَ قَلْبِ والِدِها ، فَكانَ

يَنْسى أحزانَهُ في ظِلِّ البَهْجَةِ الَّتي كانَ يَشْعُرُ بِها في رُفْقَتِها .
وَكانَتْ هِيَ وَأبوها مُتلازِمَيْنِ مُعْظَمَ ساعاتِ اليَوْمِ ، وَكانَ يُعَلِّمُها كُلَّ دُروسِها . وَكانَتْ سَرِيعَةَ الخاطِرِ ، وَتَعَلَّمتْ بِسُهولَةٍ وَيُسْرٍ وَشَغَفٍ .

وَلَمْ تَكُنْ تَتَعَدّى وَحْدَها – إلى أنْ بَلَغَتِ الثّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها – حُدودَ الحَديقَةِ. وَكانَ إدغار يَصْحَبُها مَعَهُ لِلْخارِجِ أحْيانًا ، وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ يَعْهَدُ بِها لأحَدٍ غَيْرِهِ . ولَمْ تَسْمَعْ عَنْ مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ أوِ السَّيِّدِ هيثكليف .

وَكانَتْ تَبْدو راضِيَةً عَنْ حَياتِها الهادِئَةِ ، وَلَكِنَّها أحْيانًا كانَتْ تَتَطَلَّعُ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَةِ نَوْمِها إلى التِّلالِ البَعيدَةِ ، وَتَسْألُ إلين : « لَيْتَني أدْري ما يَقومُ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنْ تِلْكَ التِّلالِ ، هَلْ هُوَ البَحْرُ ؟»

« لا ، يا آنِسَةُ كاثي ، إنَّها أيْضًا تِلالٌ مِثْلُ هَذِهِ .»

كانَتْ تَهْتَمُّ بِوَجْهٍ خاصٍّ بِسِلْسِلَةِ التِّلالِ الصَّخْرِيَّةِ الَّتي يُطْلِقونَ عَلَيْها صُخورَ بنيستون الشّامِخَةَ . وَكانَتْ هَذِهِ المُرْتَفَعاتُ الصَّخْرِيَّةُ تَبْدو عِنْدَ الأصيلِ ذَهَبِيَّةَ اللَّوْنِ ، عَلى حينِ كانَتِ الحُقولُ أسْفَلَها غارِقَةً في ظِلالٍ باهِتَةٍ .

قالَتْ : « أتَمَنّى أنْ أقِفَ عَلى قِمَّةِ هَذِهِ الصُّخورِ . وَإنّي لأتَساءَلُ

لِماذا تَبْدو مُشْرِقَةً إلى وَقْتٍ مُتَأخِّرٍ حَتّى بَعْدَ حُلولِ المَساءِ ؟»

« لأنَّها جِدُّ عالِيَةٍ ، تَضْرِبُ في عَنانِ السَّماءِ ، وَمُنْحَدِرَةٌ ، وَهِيَ لا تَسْتَحِقُّ عَناءَ زِيارَتِها بِأنْفُسِنا ، وَحَديقَةُ ثرشكروس غرانغ أفْضَلُ مِنْها بِكَثيرٍ .»

« وَلَكِنَّني أعْرِفُ الحَديقَةَ وَلا أعْرِفُ تِلْكَ التِّلالَ ، وَيَسْتَطيعُ حِصاني الصَّغيرُ « ميني » أنْ يَأخُذَني إلَيْها في يَوْمٍ ما ، وَسَوْفَ أطْلُبُ مِنْ أبي أنْ يَذْهَبَ مَعي .»

وَلَكِنَّ الطَّريقَ إلى صُخورِ بنيستون كانَ يَسيرُ بِجانِبِ مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ، وَلَمْ يَكُنْ إدغار يَتَحَمَّلُ اجْتِيازَها ، وَمِنْ ثَمَّ حينَ كانَتْ كاثي تَسْألُهُ : « أ لَمْ أكْبَرْ بِما يَكْفي لأنْ أذْهَبَ إلى صُخورِ بنيستون ؟» كانَ يُجيبُها : « لَمْ يَحِنِ الوَقْتُ بَعْدُ ، يا حَبيبَتي . لَمْ يَحِنْ .»

تُوُفِّيَتْ إيزابيلا هيثكليف بَعْدَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً تَقْريبًا مِنْ تَرْكِها لِزَوْجِها ، وَذَلِكَ – عَلى ما أعْتَقِدُ – نَتيجَةَ حُمّى ، وَقَدْ كَتَبَتْ لأخيها إدغار تَقولُ لَهُ إنَّها في طَريقِها إلى المَوْتِ ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ أنْ يَذْهَبَ إلَيْها لِتُوَدِّعَهُ وَتُسَلِّمَهُ لنتون لِيَعيشَ في أمانٍ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَكانَ يَحْدوها الأمَلُ بِأنْ يَرْفُضَ أبوهُ التَّكَفُّلَ بِتَرْبِيَتِهِ ، وَمِنْ ثَمَّ يَتْرُكُهُ لإدغار .

وافَقَ سَيِّدي أَنْ يَذْهَبَ في الحالِ ، فَتَرَكَ كاتي في رِعايَتي مُحَذِّراً ألا تَتَجاوَزَ الحَديقَةَ حَتّى وَهِيَ بِصُحْبَتي ، وَلَمْ يَكُنْ يُفَكِّرُ عَلى الإِطْلاقِ أَنَّها سَتَذْهَبُ وَحْدَها !

غابَ سَيِّدي عَنِ المَنْزِلِ ثَلاثَةَ أَسابيعَ . وَفي أَوَّلِ يَوْمٍ أَوْ في اليَوْمَيْنِ الأَوَّلَيْنِ كانَتْ تَجْلِسُ في رُكْنٍ مِنَ المَكْتَبَةِ ، وَمَنَعَها حُزْنُها مِنَ القِراءَةِ أَوِ اللَّعِبِ ، ثُمَّ بَدَأَتْ تُسَلّي نَفْسَها بِالذَّهابِ إِلى الحَديقَةِ ، مُتَظاهِرَةً بِأَنَّها سائِحَةٌ في أَراضٍ نائِيَةٍ . وَكانَتْ تَظَلُّ دائِماً بَعيدَةً عَنِ المَنْزِلِ مِنْ إِفْطارِ الصَّباحِ حَتّى مَوْعِدِ شُرْبِ الشّاي ، ثُمَّ تَقْضي المَساءَ في سَرْدِ قِصَّةِ رِحْلاتِها الخَيالِيَّةِ .

وَذاتَ صَباحٍ جاءَتْني وَقالَتْ إِنَّها تَتَخَيَّلُ نَفْسَها تاجِرَةً في طَريقِها إِلى عُبورِ الصَّحْراءِ ، وَعَلَيَّ أَنْ أُزَوِّدَها بِكَمِّيَّةٍ مِنَ الطَّعامِ لِنَفْسِها وَحَيَواناتِها ، فَمَلأْتُ لَها سَلَّةً مِنَ الطَّعامِ وَأَقْلَعَتْ مَعَ حِصانِها وَثَلاثَةِ كِلابٍ وَهِيَ سَعيدَةٌ .

جاءَ وَقْتُ تَناوُلِ الشّاي ، وَلَمْ تَعُدْ كاتي ، وَلَكِنْ ظَهَرَ «رَحّالَة» ، وَهُوَ أَكْبَرُ الكِلابِ سِنّاً ، وَلَكِنَّ كاتي وَحِصانَها وَالكَلْبَيْنِ الآخَرَيْنِ لَمْ يُعْثَرْ لَها عَلى أَثَرٍ في أَيِّ مَكانٍ . وَأَخيراً ذَهَبْتُ أَنا لِلْبَحْثِ عَنْها فَوَجَدْتُ قُرْبَ نِهايَةِ الحَديقَةِ رَجُلاً يَعْمَلُ في السّورِ ، وَسَأَلْتُه عَمّا إِذا كانَ قَدْ رَأى كاتي .

أَجابَ : « لَقَدْ رَأَيْتُها في هَذا الصَّباحِ . وَقَدْ دَفَعَتْ حِصانَها لِيَقْفِزَ مِنْ فَوْقِ السّورِ ، ثُمَّ امْتَطَتْ صَهْوَتَهُ وَرَكَضَتْ بِهِ بَعيداً . »

وَأَدْرَكْتُ في الحالِ أَنَّها لا بُدَّ أَنْ تَكونَ قَدْ تَوَجَّهَتْ إِلى صُخورِ بنيستون ، وَأَسْرَعْتُ لأَلْحَقَ بِها في الطَّريقِ الَّتي تُؤَدّي إِلى مُرْتَفَعاتِ وُذِرنغ . وَتَأَمَّلْتُ المَوْقِفَ : ماذا أَفْعَلُ لَوْ أَنَّها انْزَلَقَتْ عَلى الصَّخْرِ وَانْكَسَرَتْ إِحْدى عِظامِها ؟

وَلَكِنّي وَجَدْتُ أَحَدَ كِلابِنا خارِجَ بَيْتِ السَّيِّدِ هيثكليف يَرْقُدُ تَحْتَ الجِدارِ ، وَالدَّمُ يَسيلُ مِنْ أُذُنَيْهِ ، فَقَرَعْتُ البابَ بِشِدَّةٍ .

فَتَحَتْ مُديرَةُ المَنْزِلِ البابَ وَقالَتْ : « آهِ . لَقَدْ جِئْتِنا مِنْ قِبَلِ سَيِّدَتِكُمُ الصَّغيرَةِ . إِنَّها هُنا في أَمانٍ . تَفَضَّلي بِالدُّخولِ وَخُذي قِسْطاً مِنَ الرّاحَةِ ، فَرَبُّ البَيْتِ وَجوزيف في الخارِجِ . »

دَخَلْتُ فَوَجَدْتُ كاتي تَجْلِسُ عَلى المَقْعَدِ الَّذي كانَ فيما مَضى مَقْعَدَ والِدَتِها وَهِيَ طِفْلَةٌ . وَكانَتْ قُبَّعَتُها مُعَلَّقَةً عَلى الجِدارِ ، وَبَدَتْ في غايَةِ الاطْمِئْنانِ وَالهُدوءِ ، تَضْحَكُ وَتَتَحَدَّثُ إِلى هيرتون الَّذي أَصْبَحَ الآنَ شابّاً يافِعاً في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ . وَكانَ يُحَدِّقُ إِلَيْها بِاهْتِمامٍ ، وَلَكِنَّهُ بَدا لا يَفْهَمُ إِلّا القَليلَ مِنَ المُلاحَظاتِ وَالأَسْئِلَةِ الَّتي تَوالَتْ مِنْها .

وَقَدْ عَلِمْتُ فيما بَعْدُ أَنَّهُما تَقابَلا خارِجَ بَوّابَةِ البَيْتِ ، حَيْثُ

حَدَثَتْ مَعْرَكَةٌ بَيْنَ كِلابِ المَزْرَعَةِ وَكِلابِ كاثي ، وَقَدْ بَذَلَ أَصْحابُ المَزْرَعَةِ جَهْداً كَبيراً في الفَصْلِ بَيْنَها . ثُمَّ دَلَّ هيرتون كاثي عَلى الطَّريقِ إلى صُخورِ بنيستون ، وَيَبْدو أَنَّهُما أَصْبَحا صَديقَيْنِ حَميمَيْنِ .

سَعِدْتُ حينَ رَأَيْتُ كاثي بِخَيْرٍ ، وَلَكِنَّني أَخْفَيْتُ سَعادَتي هَذِهِ تَحْتَ وَجْهٍ غاضِبٍ .

« أَيَّتُها الفَتاةُ السَّيِّئَةُ ! لَقَدْ وَقَعْتِ في خَطَأٍ جَسيمٍ ، فَماذا سَيَقولُ والِدُكِ إدغار ؟ لَنْ أَثِقَ بِكِ مَرَّةً أُخْرى ! ضَعي هَذِهِ القُبَّعَةَ عَلى رَأْسِكِ وَتَعالَيْ مَعي إلى المَنْزِلِ في الحالِ ! »

قالَتْ باكِيَةً : « أَيَّ خَطَأٍ ارْتَكَبْتُ ؟ لَنْ يَغْضَبَ مِنّي أَبي . إنَّهُ لا يَغْضَبُ كَما تَغْضَبينَ أَبَداً ! » وَأَزاحَتِ القُبَّعَةَ الَّتي كُنْتُ أَقومُ بِوَضْعِها عَلى رَأْسِها .

قُلْتُ : « حَسَنٌ ، يا آنِسَةُ كاثي ! لَوْ أَنَّكِ عَلِمْتِ مَنْ صاحِبُ هَذا البَيْتِ فَسَيُسْعِدُكِ جِدًّا أَنْ تَخْرُجي مِنْهُ ! »

اسْتَدارَتْ إلى هيرتون قائِلَةً: « إنَّهُ بَيْتُ أَبيكَ ، أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أَجابَ وَقَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ : « لا . »

« بَيْتُ مَنْ إذاً ؟ هَلْ هُوَ بَيْتُ سَيِّدِكَ ؟ »

ازْدادَ وَجْهُهُ حُمْرَةً ، وَبَدَأَ يَشْتُمُ في نَفْسِهِ .

الْتَفَتَتْ إلَيَّ كاثي قائِلَةً : « لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ ابْنَ صاحِبِ المَنْزِلِ ، فَقَدْ كانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ ‹‹ مَنْزِلِنا ›› وَلَمْ يَفُهْ بِكَلِمَةِ ‹‹ آنِسَة ›› وَقَدْ كانَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ إذا كانَ خادِماً ، أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

انْقَلَبَ وَجْهُ هيرتون عِنْدَما سَمِعَ هَذا الكَلامَ الصِّبْيانِيَّ داكِناً كَغَمامَةٍ عاصِفَةٍ ، وَأَنا لَمْ أُجِبْها وَلَكِنَّني هَزَزْتُها بِصَمْتٍ وَتَمَكَّنْتُ مِنْ وَضْعِ قُبَّعَتِها عَلى رَأْسِها .

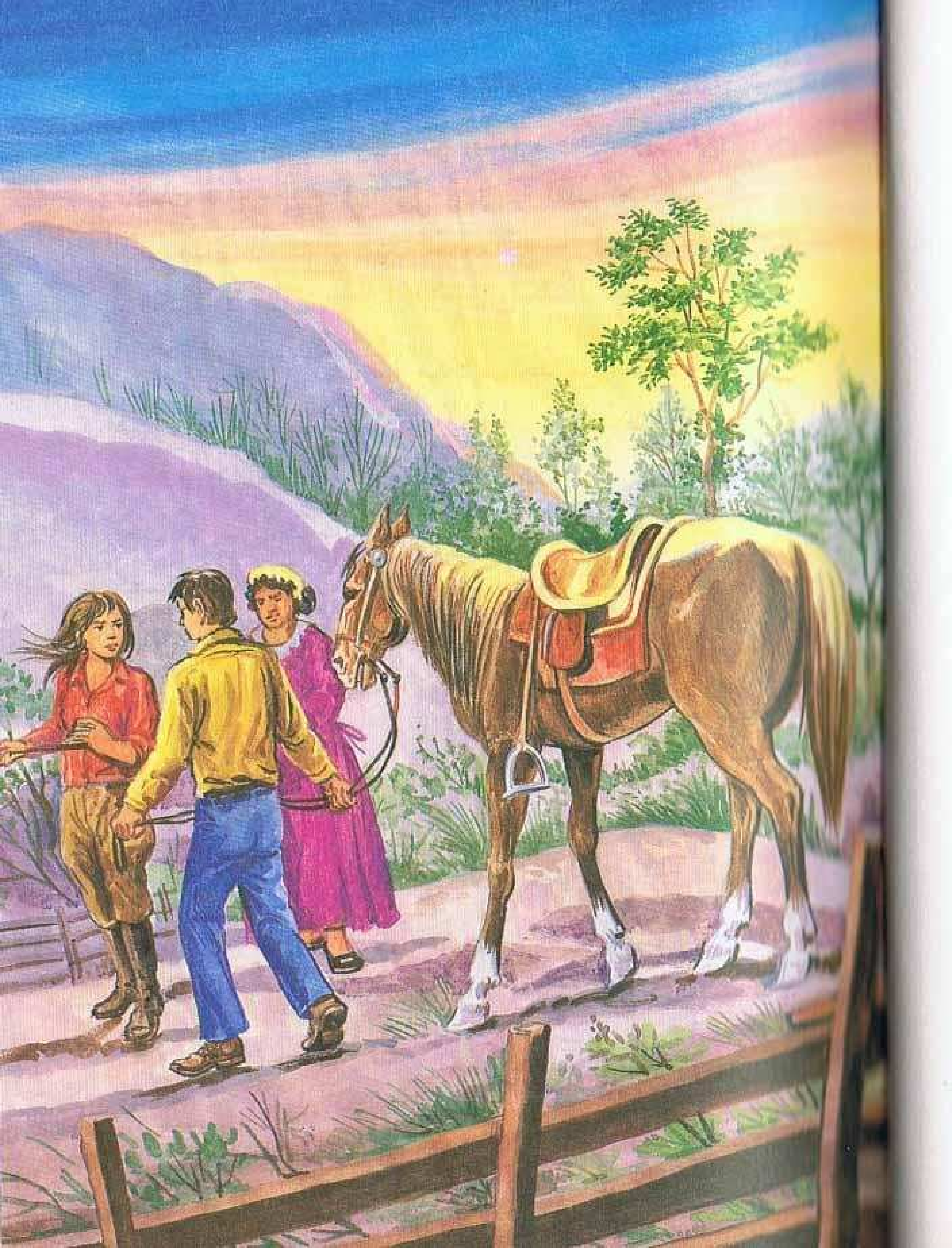
قالَتْ لِهيرتون كَما لَوْ كانَ أَحَدَ خَدَمِها في غرانغ : « وَالآنَ أَحْضِرْ لي حِصاني . » وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ ، فَأَعادَتْ بِحِدَّةٍ : « ما هَذا ؟ قُلْتُ أَحْضِرْ لي حِصاني ! »

أَجابَ بِفَظاظَةٍ : « تَبًّا لَكِ ! سَوْفَ تَكونينَ أَنْتِ في الجَحيمِ قَبْلَ أَنْ أَكونَ أَنا خادِمَكِ ! »

تَساءَلَتْ كاثي في دَهْشَةٍ : « سَتَراني ماذا ؟ »

« مَلْعونَةٌ في الجَحيمِ ، أَيَّتُها الفَتاةُ الوَقِحَةُ . »

قُلْتُ : « أَنْتِ تَرَيْنَ أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الرِّفاقِ كُنْتِ مَعَهُمْ . يَجِبُ أَنْ تُسْتَخْدَمَ كَلِماتٌ رَقيقَةٌ لِفَتاةٍ رَقيقَةٍ ! تَعالَيْ لِنَبْحَثَ عَنْ حِصانِكِ ‹‹ ميني ›› بِأَنْفُسِنا . »



صاحَتْ : « ولكِنْ ، يا إيلين ، كَيْفَ يَجْرُؤُ على التَّحدُّثِ إليَّ بِهٰذِهِ الطَّريقَةِ ؟»

قالَتْ زيلاه مُديرَةُ المَنْزِلِ : « اِهْدَئي ، يا آنِسَةُ ، فَالسَّيِّدُ هيرتون لَيْسَ ابْنَ صاحِبِ البَيْتِ ، ولٰكِنَّهُ ابْنُ خالِكِ .»

ضَحِكَتْ كاثي بِسُخْرِيَةٍ قائِلَةً : « هُوَ ابنُ خالي !»

« أجَلْ . إنَّهُ ابْنُ خالِكِ .»

« إيهِ ، يا إيلين ! لا تَدَعيهِمْ يَقولونَ مِثْلَ هٰذا الكَلامِ ؛ فَأبي قَدْ ذَهَبَ إلى لَنْدَن لِيَأتِيَ بِابْنِ عَمَّتي . فَابْنُ عَمَّتي هُوَ ابْنُ رَجُلٍ نَبيلٍ .» ثُمَّ بَدَأتْ في البُكاءِ .

هَمَسْتُ : « اِهْدَئي ، فَالمَرْءُ قَدْ يَكونُ لَهُ أبْناءُ عَمٍّ أوْ خالٍ كَثيرونَ وَمِنْ جَميعِ الأنْواعِ دونَ أنْ يَكونوا سَيِّئينَ بِسَبَبِ ذٰلِكَ .»

صاحَتْ باكِيَةً وَهِيَ تُعَلِّقُ على هٰذا الأمْرِ بِصَوْتٍ أكْثَرَ نَشيجاً : « لا ، إنَّهُ لَيْسَ ابْنَ خالي ، لَيْسَ ابْنَ خالي ، يا إيلين .»

لاحَتْ على هيرتون عَلاماتُ الأسى إذْ رَأى كاثي تَبْكي ، فَأحْضَرَ لَها الحِصانَ وَرَحَلْنا إلى مَنْزِلِنا في الحالِ .

لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أمْنَعَ نَفْسي مِنَ الابْتِسامِ لِكَراهِيَتِها لِهٰذا الإنْسانِ

المِسْكين . وَكانَ يَلْبَسُ مَلابِسَ عامِلٍ في مَزْرَعَةٍ ، وَكَذَلِكَ كانَ يَتَحَدَّثُ ، وَلَكِنَّهُ كانَ قَوِيَّ البِنْيَةِ وَسيماً . وَقَدْ لَمَحْتُ في وَجْهِهِ عَلاماتٍ تَدُلُّ عَلى عَقْلٍ أَفْضَلَ وَشَخْصِيَّةٍ تَفْضُلُ شَخْصِيَّةَ والِدِهِ ، وَلَكِنَّ هَذا وَذاكَ كانا يَخْتَفِيانِ تَحْتَ سَحْنَةٍ فَظَّةٍ ، فَلَمْ يَتَعَلَّمِ القِراءَةَ أو الكِتابَةَ وَلا كَيْفَ وَما يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَ .

وَرُحْتُ أُفَكِّرُ : كَيْفَ بَلَغَ هيثكليف حَدًّا مِنَ القَسْوَةِ جَعَلَهُ يُرَبّي هيرتون بِهَذِهِ الطَّريقَةِ ؛ فَما كانَ لِيَضْرِبَهُ . وَكانَتْ طَبيعَةُ الفَتى الَّتي لا تَعْرِفُ الخَوْفَ هِيَ الَّتي أَنْقَذَتْهُ مِنَ الضَّرْبِ . فَهيثكليف كانَ يُحِبُّ أَنْ يَضْرِبَ النّاسَ الَّذينَ كانوا يَخْشَوْنَهُ ، وَلَكِنَّ هَذا النَّوْعَ مِنَ القَسْوَةِ كانَ أَسْوَأَ ، فَهيثكليف بِتَرْبِيَتِهِ الوَلَدَ وَالنُّزولِ بِهِ إلى مَرْتَبَةِ الحَيَوانِ ، كانَ قَدْ أَكْمَلَ انْتِقامَهُ مِنْ هندلي .

الفصل السادس عشر

وَصَلَ خِطابٌ مِنْ إدغار يُبْلِغُنا فيه بِوَفاةِ إيزابيلا ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَأْتي بِابْنِها لنتون ، فَغَمَرَتِ الفَرْحَةُ وَالتَّأَثُّرُ كاثي ؛ فَها هُوَ ذا أبوها يَعودُ إِلَيْها ، وَهِيَ سَوْفَ تُقابِلُ ابْنَ عَمَّتِها الحَقيقِيَّ .

قالَتْ وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ العَرَبَةَ : « إنَّ لنتون يَصْغُرُني بِسِتَّةِ شُهورٍ . وَكَمْ جَميلٍ أن يَكونَ رَفيقي في اللَّعِبِ ! إنَّني سَعيدَةٌ ، وأبي العَزيزُ سَعيدٌ . »

وَأَخيراً لاحَتْ لَنا العَرَبَةُ ، وَعِنْدَما اقْتَرَبَتْ لَمَحَتْ كاثي والِدَها مِنَ النّافِذَةِ ، فَمَدَّتْ إِلَيْهِ ذِراعَيْها . وَتَوَقَّفَتِ العَرَبَةُ ، فَنَزَلَ مِنْها وَهُوَ في شَوْقٍ عارِمٍ إِلَيْها. وَظَلّا لِبِضْعِ دَقائِقَ لا يُفَكِّرُ كُلٌّ مِنْهُما إلّا في الآخَرِ ، وَقَدْ تَطَلَّعْتُ أنا إلى داخِلِ العَرَبَةِ بَحْثاً عَنْ لنتون ؛ فَوَجَدْتُهُ يَغِطُّ في نَوْمٍ عَميقٍ في رُكْنٍ مِنَ العَرَبَةِ . وَكانَ وَلَداً ذابِلاً ضَعيفَ

البِنْيَةِ ، وَجْهُهُ يُشْبِهُ وَجْهَ إدغار إلى حَدٍّ بَعيدٍ بِاسْتِثْناءِ نَظْرَتِهِ الغَوْغائِيَّةِ الَّتي لا تُشْبِهُ نَظْرَةَ إدغار .

قالَ إدغار : « إنَّهُ لَجِدُّ مُنْهَكٍ مِنْ مَتاعِبِ الرِّحْلَةِ . » وأَيْقَظَ لنتون ثُمَّ أَنْزَلَهُ إلى الأَرْضِ ، وَقالَ لِكاثي : « هَذا ابْنُ عَمَّتِكِ . » ثُمَّ شَبَّكَ أَيْدِيَهُما مَعاً قائِلاً لِلنتون : « إنَّها مُغْرَمَةٌ بِكَ ؛ فَحاوِلْ أَلا تُضايِقَها بِبُكائِكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، وَلْتُحاوِلْ أَنْ تَبْتَهِجَ الآنَ ، فَالرِّحْلَةُ قَدِ انْتَهَتْ ، وَما عَلَيْكَ سِوى أَنْ تَسْتَريحَ وَتَسْتَمْتِعَ . »

أَجابَ الصَّبِيُّ وَهُوَ يَبْتَعِدُ عَنْ قُبُلاتِ كاثي : « إذاً دَعْني أَذْهَبْ لأَنامَ . »

ذَهَبْنا جَميعاً إلى المَكْتَبَةِ حَيْثُ وَجَدْنا الشّايَ قَدْ أُعِدَّ ، وَقَدْ أَجْلَسْتُ لنتون في كُرْسِيٍّ بِجوارِ المِنْضَدَةِ ، وَلَكِنَّهُ بَدَأَ يَبْكي قائِلاً: « لا أَسْتَطيعُ الجُلوسَ عَلى مَقْعَدٍ . »

قالَ لَهُ خالُهُ بِرِقَّةٍ : « إذاً فَلْتَذْهَبْ إلى الأَريكَةِ ، وَسَوْفَ تُحْضِرُ لَكَ إيلين بَعْضَ الشّايِ . »

رَقَدَ لنتون عَلى الأَريكَةِ ، وَحَمَلَتْ إلَيْهِ كاثي كوبَ الشّايِ ، وَقَدِ اتَّخَذَتْ قَراراً لا رَجْعَةَ فيهِ ، وَهُوَ أَنْ تُدَلِّلَ ابْنَ عَمَّتِها ؛ فَبَدَأَتْ تَتَحَسَّسُ شَعْرَهُ النّاعِمَ ، وَتُرَبِّتُ عَلى ذِراعِهِ ، ثُمَّ رَفَعَتِ الشّايَ إلى

شَفَتَيْهِ لِيَشْرَبَ كَالطِّفْلِ . وَقَدْ سُرَّ هُوَ لِذَلِكَ ، لأَنَّهُ كانَ مِنْ وُجوهٍ عَديدَةٍ يُشْبِهُ طِفْلاً صَغيراً .

قالَ لي رَبُّ المَنْزِلِ وَهُوَ يُراقِبُهُما : « سَوْفَ يَنْصَلِحُ حالُهُ إذا أَبْقَيْناهُ مَعَنا ، يا إيلين . »

قُلْتُ : « أَجَلْ ، إذا أَبْقَيْناهُ . » وَتَمَنَّيْتُ أَلا تَنْشُرَ كاثي خَبَرَ وُصولِهِ في مُرْتَفَعاتِ وَذَرِنغ .

وَقَدْ تَقَرَّرَ هَذا الأَمْرُ حَتّى قَبْلَ الوَقْتِ الَّذي كُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ ، فَقَدْ بَعَثَ هيثكليف بِجوزيف لِيَأْتِيَ بِابْنِهِ في نَفْسِ هَذا المَساءِ . وَلَمّا كانَ الصَّبِيُّ نائِماً ، فَقَدْ رَفَضَ إدغار أَنْ يُسَلِّمَهُ لِجوزيف ؛ وَلَكِنَّهُ وَعَدَ بِأَنْ يَبْعَثَ بِهِ في اليَوْمِ التّالي . وَكانَ يَشْعُرُ بِالأَسى حينَ يُفَكِّرُ في تَسْليمِهِ لَهُمْ ، وَلَكِنْ كَيْفَ كانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَ سِوى أَنْ يَنْصاعَ لِرَغْبَةِ والِدِهِ ، وَيُسَلِّمَ الصَّبِيَّ ؟

لَمْ يَكُنْ لنتون سَعيداً حينَ أَيْقَظْتُهُ مُبَكِّراً في الصَّباحِ التّالي ، وَأَخْبَرْتُهُ بِأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُعِدَّ نَفْسَهُ لِرِحْلَةٍ أُخْرى ، وَقُلْتُ لَهُ : « لَسَوْفَ تَقْضي بَعْضَ الوَقْتِ مَعَ أَبيكَ . »

صاحَ قائِلاً : « أَبي ! إنَّ أُمّي سَبَقَ أَنْ أَخْبَرَتْني أَنَّهُ لَيْسَ لي أَبٌ ، وَإنّي لأُفَضِّلُ أَنْ أَبْقى مَعَ خالي . وَلِماذا لَمْ تَعِشْ أُمّي وَهُوَ مَعاً

كَما يَفْعَلُ غَيْرُهُما مِنَ البَشَرِ ؟»

أَجَبْتُ : « كانَ والِدُكَ مُضْطَرًّا إلى أَنْ يَبْقى في الشَّمالِ لِظُروفٍ خاصَّةٍ بِعَمَلِهِ ، وَمِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى كانَ عَلى أُمِّكَ أَنْ تَعيشَ في الجَنوبِ لِظُروفٍ خاصَّةٍ بِصِحَّتِها .»

« ولكِنْ لِماذا لَمْ تَتَحدَّثْ أُمّي مَعي عَنْ أَبي ؟ فَهِيَ كَثيراً ما تَحدَّثَتْ عَن خالي مُدَّةً طَويلَةً ، الأَمْرُ الَّذي حَدا بي إلى أَنْ أُحِبَّهُ ، فَكَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أُحِبَّ أَبي ، وأُمّي لَمْ تُحدِّثْني عَنْهُ قَطُّ ؟ فأَنا لا أَعْرِفُهُ .»

قُلْتُ : « كُلُّ الأَطْفالِ يُحِبّونَ آباءَهُمْ .»

وأَقْلَعْنا لِلرِّحْلَةِ في صَباحِ يَوْمٍ مُشْمِسٍ ، وَقَدِ امْتَطى لنتون صَهْوَةَ جَوادِ « ميني » ، ومَشَيْتُ أَنا إلى جِوارِهِ .

وَحينَ وَصَلْنا إلى مُرْتَفعاتِ وَذْرِنغ تَقَدَّمْتُ أَنا وَفَتَحْتُ البابَ ، وَكانَتِ العائِلَةُ قَدْ فَرَغَتْ لِلتَّوِّ مِنْ تَناوُلِ طَعامِ الإِفْطارِ .

صاحَ هيثكليف : « مَرْحَبًا ، يا إلين ! لَقَدْ أَحْضَرْتِ مَعَكِ مَنْ يَنْتَمي إلَيَّ ، أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ لَقَدْ كُنْتُ أَخْشى أَنْ أَضْطَرَّ إلى الذَّهابِ بِنَفْسي لأُحْضِرَهُ . دَعينا نُلْقِ نَظْرَةً عَلَيْهِ .»

ذَهَبَ هيثكليف إلى البابِ يَتْبَعُهُ هيرتون وَجُوزيف ، وَقَدْ بَدأ ثَلاثَتُهُمْ يُحَمْلِقونَ إلى وَجْهِ لنتون المِسْكينِ .

قالَ جُوزيف أخيراً : « إنّي موقِنٌ مِنْ أَنَّهُ أَرْسَلَ ابْنَتَهُ بَدَلاً مِنِ ابْنِكَ ، يا سَيِّدي !»

قَهْقَهَ هيثكليف بِطَريقَةٍ ساخِرَةٍ وَقالَ : « يا إلَهي ! ما هَذا الجَمالُ ! ما أَرْوَعَ هَذا المَخْلوقَ الظَّريفَ اللَّطيفَ ! إيه .. تَبًّا لَهُ ، يا إيلين ، فَهُوَ أَسْوأُ مِمّا كُنْتُ أَتَوَقَّعُ رَغْمَ أَنّي لَمْ أَتَوَقَّعِ الكَثيرَ !»

طَلَبْتُ مِنَ الصَّبيِّ المَذْعورِ أَنْ يَتَرَجَّلَ وَيَدْخُلَ البَيْتَ ، وَلَمْ يَكُنِ الصَّبِيُّ لِيَفْهَمَ مَغْزى كَلامِ والِدِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ – في الواقِعِ – مُتأَكِّدًا مِنْ أَنَّ هَذا الرَّجُلَ الغَريبَ الدّاكِنَ البَشَرَةِ ، السّاخِرَ الضِّحْكَةِ ، هُوَ والِدُهُ ! وَالْتَصَقَ بي وَقَدْ صَعَقَهُ خَوْفٌ مُتَصاعِدٌ . وَلَمّا سَأَلَهُ هيثكليف أَنْ يَذْهَبَ إلَيْهِ أَخْفى وَجْهَهُ في كَتِفي .

قالَ هيثكليف وَقَدْ جَلَسَ وَسَحَبَ الوَلَدَ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ : « نَحْنُ لَنْ نَمَسَّكَ بِسوءٍ ، يا لنتون . إنَّكَ تُشْبِهُ أُمَّكَ تَماماً .» وَراحَ يَتَحَسَّسُ شَعْرَهُ الأَشْقَرَ بِيَدَيْهِ ، وَيُرَبِّتُ عَلى ساقَيْهِ وَذِراعَيْهِ الَّتي كانَتْ جَميعاً ضَعيفَةً بِنِسَبٍ مُتَساوِيَةٍ . وَرَفَعَ الصَّبِيُّ عَيْنَيْهِ الزَّرْقاوَيْنِ الواسِعَتَيْنِ إلى وَجْهِ أَبيهِ هيثكليف .

سَأَلَهُ هيثكليف : « هَلْ تَعْرِفُني ؟»

أجابَ لنتون مَذْعوراً : « لا !»

« أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّكَ سَمِعْتَ عَنّي .»

أجابَ الطِّفْلُ مَرَّةً أخْرى : « لا !»

« لا ؟ لَقَدْ أخْطَأَتْ أُمُّكَ خطأً بالِغًا ، إذْ لَمْ تَذْكُرْ لكَ شَيْئًا عَنْ أبيكَ ! سَوْفَ أُخبِرُكَ أنا إذًا : أنْتَ ابْني ! كُنْ وَلَدًا عاقِلاً ، وَسَوْفَ أرْعاكَ . ماذا تَنْتَظِرينَ ، يا إلين ؟ يُمْكِنُكِ أنْ تعودي إلى المَنْزِلِ .»

أجَبْتُ : « آمُلُ أنْ ينالَ الوَلَدُ عَطْفَكَ ، يا سَيِّدي هيثكليف ، وَإلّا فَلَنْ تُبْقِيَهُ لِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ ، وَتَذَكَّرْ أنَّ الوَلَدَ لَيسَ بِقَوِيِّ البِنْيَةِ .»

قالَ هيثكليف ضاحِكًا : « سَوْفَ أكونُ جِدَّ عَطوفٍ عَلَيْهِ ، وَلأَبْدَأْ هَذا العَطْفَ الآنَ . أحْضِرْ لِلْوَلَدِ ، يا جُوزيف ، شَيْئًا لِلإفْطارِ ، وَاذْهَبْ أنْتَ ، يا هيرتون ، لِعَمَلِكَ .» وخَرَجَ الاثْنانِ مَعًا ، وَاقْتَرَبَ هيثكليف مِنّي .

وَقالَ : « لَقَدِ اتَّخَذْتُ قَرارًا بِأنْ يُصْبِحَ ابْني مالِكًا لِثرشكروس غرانغ ، ولا أرْغَبُ الآنَ في أنْ يَموتَ ، وَلَيسَ قَبْلَ أنْ أتأكَّدَ مِنْ أنْ ثرشكروس غرانغ سَتَؤولُ مِنْهُ إليَّ . وَبالإضافَةِ إلى ذَلِكَ ، فَهُوَ

وَلَدي ، وَأُريدُ أنْ أسْعَدَ بِرُؤْيَةِ طِفْلي سَيِّدًا مالِكًا لأرْضِ إدغار . وَهَذا هُوَ السَّبَبُ الوَحيدُ الَّذي مِنْ أجْلِهِ سَوْفَ أتَحَمَّلُهُ ؛ فَأنا أحْتَقِرُهُ لِذاتِهِ ، وَأبْغَضُهُ لِلذِّكْرَياتِ الَّتي يُعيدُها مَرْآهُ لِخَيالي . سَوْفَ أرْعاهُ كَما يَجِبُ ، وَقَدْ أعْدَدْتُ غُرْفَةً مُريحَةً لَهُ ، وَاتَّفَقْتُ أنْ يَأتيَ إلَيْهِ مُدَرِّسٌ خاصٌّ لِيُعَلِّمَهُ ثَلاثَ مَرّاتٍ كُلَّ أسْبوعٍ . وَقَدْ أمَرْتُ هيرتون بِأنْ يُطيعَهُ ، وَأقْصِدُ بِذَلِكَ أنْ أجْعَلَهُ يَحْتَفِظُ بِأخْلاقِ النَّبالَةِ الكامِنَةِ فيهِ !»

وَحَدَجَ الوَلَدَ الَّذي كانَ مُنْزَوِيًا في رُكْنٍ بِنَظْرَةٍ غاضِبَةٍ ، ثُمَّ قالَ: « وَلَكِنَّني آسِفٌ إذْ يُساوِرُني الشُّعورُ بِأنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ إلّا قَبَسًا ضَئيلاً مِنْ هَذا العَناءِ ، وَكُنْتُ أتمنى مِنْ أعْماقِ قَلْبي أنْ أشْعُرَ بِالفَخارِ بِابْني – وَهَذِهِ هِيَ النِّعْمَةُ الوَحيدَةُ الَّتي أتَمَنّاها في هَذا العالَمِ .»

وَجاءَ جوزيف بِبَعْضِ الطَّعامِ لِلنتون ، أمّا أنا فَقَدِ انْسَلَلْتُ إلى الخارِجِ . وَبَيْنَما كُنْتُ أُغْلِقُ البابَ خَلْفي سَمِعْتُ صُراخًا :

« لا تَتْرُكيني ! لَنْ أبْقى هُنا !»

وَلَكِنَّ البابَ ظَلَّ مُغْلَقًا ، وَمَكَثَ لنتون في مُرْتَفَعاتِ وَذَرنغ .

الفصل السابع عشر

بَكَتْ كاثي بُكاءً مُرًّا عِنْدَما اكْتَشَفَتْ ذَهابَ ابْنِ عَمِّها ، وَقَدْ أَفْهَمْناها أَنَّ أَباهُ قَدِمَ وَأَخَذَهُ لِيَعيشَ مَعَهُ هُناكَ ، ولكِنْ لَمْ نُخْبِرْها بِهُوِيَّةِ أَبيهِ . وَلَمْ تَكُنْ تَتَصَوَّرُ قَطُّ أَنَّ الأَبَ هُوَ صاحِبُ المَنْزِلِ الرّاسِخِ الَّذي شُيِّدَ في الأَرْضِ القَفْرِ الَّتي سَبَقَ أَنْ زارَتْها ، وَلا أَنَّ لنتون يَعيشُ عَلى بُعْدِ بِضْعَةِ كيلو مِتْراتٍ مِنْها .

وَكُنْتُ في بَعْضِ الأَحْيانِ أُقابِلُ مُديرَةَ المَنْزِلِ ، وَهِيَ قادِمَةٌ مِنْ مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنغ إلى القَرْيَةِ . وَكُنْتُ أَطْلُبُ إِلَيْها أَنْ تَحْكِيَ لي شَيْئًا مِنْ أَخْبارِ لنتون ، فَكانَتْ تَقولُ إِنَّهُ دائِماً مُتَوَعِّكُ الصِّحَّةِ ، وَدائِمُ السُّعالِ ، أَوْ يُصابُ بِنَزْلَةِ بَرْدٍ ، وَأَحْيانًا بِأَلَمٍ مِنْ نَوْعٍ ما . وَإِنَّها لَمْ تَكُنْ تُحِبُّهُ ، فَقَدْ كانَ – في رَأْيِها – وَلَدًا أَنانِيًّا لا يُفَكِّرُ في شَيْءٍ سِوى صِحَّتِهِ هُوَ .

وَمَرَّ الوَقْتُ وَالرِّضا يَعُمُّ البَيْتَ في ثرشكروس غرانغ ، إلى أَنْ بَلَغَتْ كاثي السّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها ، وَكانَ يَوْمُ ميلادِها هُوَ نَفْسُهُ يومَ مَوْتِ أُمِّها ، ولِهَذا كانَ والِدُها يَقْضي يَوْمَهُ في المَكْتَبَةِ وَحيداً . وَكانَ ذَلِكَ اليَوْمُ رَبيعِيًّا جَميلاً ، وَطَلَبَتْ مِنّي كاثي أَنْ أَذْهَبَ مَعَها لِلتَّرَيُّضِ في الأَرْضِ القَفْرِ .

وَبَيْنَما كُنْتُ أَسيرُ شَعَرْتُ بِمُتْعَةٍ وَأَنا في كَنَفِ شَمْسٍ دافِئَةٍ ، وَأَصْغَيْتُ إلى شَقْشَقَةِ العَصافيرِ وَهِيَ تُغَرِّدُ في الجَوِّ ، وَتَقَدَّمَتْني كاثي في السَّيْرِ وَقَدْ تَطايَرَ شَعْرُها الذَّهَبِيُّ خَلْفَها ، وَكانَتْ جِدَّ سَعيدَةٍ في تِلْكَ الأَيّامِ .

عَلى سُفوحِ التِّلالِ وَفي جَنَباتِ الأَوْدِيَةِ وَعَبْرَ الشَّواطِئِ سِرْنا ، وَكُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالتَّعَبِ .

قُلْتُ : « لَقَدْ حانَ الوَقْتُ لِنَعودَ إلى البَيْتِ ، يا كاثي .» وَاسْتَمَرَّتْ تَقولُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ : « لِنَذْهَبْ إلى مَدًى أَبْعَدَ ، يا إلين .» وَجَرَتْ أَمامي إلى أَنِ اخْتَفَتْ عَنْ ناظِرَيَّ ، وَكُنّا قَدْ وَصَلْنا إلى مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنغ . وَحينَ لاحَتْ لِعَيْنَيَّ مَرَّةً أُخرى ، رَأَيْتُها تَتَحَدَّثُ مَعَ شَخْصٍ ما ، وَاتَّضَحَ لي أَنَّهُ هيثكليف نَفْسُهُ ، وَكانَ هيرتون يَقِفُ إلى جِوارِهِما ، وَقَدْ بَدا فَظًّا كَما عَهِدْناهُ .

سَأَلَتْ كاثي هيثكليف : « مَنْ أَنْتَ ؟ هَلْ هَذا الفتى ابْنُكَ ؟ لَقَدْ سَبَقَ لي أَنْ رَأَيْتُهُ .»

أجابَ هيثكليف : « لا ، إنَّهُ لَيْسَ ابْني ، وَلِيَ ابْنٌ وَقَدْ سَبَقَ لَكِ أَنْ رَأَيْتِهِ أَيْضاً . إنَّ مَنْزِلي لَقَريبٌ مِنْ هُنا ، فَلِمَ لا تَتَفَضَّلين بِالدُّخولِ وَتَأْخُذينَ قِسْطاً مِنَ الرّاحَةِ ؟»

هَمَسْتُ لِكاثي بِأَنَّهُ يَنْبَغي ألا نَذْهَبَ مَعَهُ ، وَلَكِنَّها رَفَضَتْ طاعَتي ، وَأَخَذَتْ تَعْدو بِشَغَفٍ تِجاهَ بَيْتِ المَزْرَعَةِ الرَّماديِّ اللَّوْنِ ، وَالمَبْنِيِّ بِالحِجارَةِ .

قالَ هيثكليف وَهُوَ يُمْسِكُ بِذِراعي : « هَيّا ، يا إلين .»

أَجَبْتُ : « لا ، يا هيثكليف . إنّي لَمُتأكِّدَةٌ أَنَّكَ تَقْصِدُ شَرًّا ! سَوْفَ تُقابِلُ هِيَ لنتون ، وَ ...»

« إنّي أُريدُها أَنْ تُقابِلَ لنتون ! إنَّ خُطَّتي خُطَّةٌ أَمينَةٌ ، وَكَريمَةٌ ؛ فَإنّي آمُلُ أَنْ يَقَعَ كُلٌّ مِنْهُما في حُبِّ الآخَرِ ، وَيَنْتَهي هَذا الحُبُّ بِالزَّواجِ . وَفي الوَقْتِ الحالِيِّ لَنْ تَرِثَ الفَتاةُ شَيْئاً بَعْدَ مَوْتِ والِدِها ، وَلَكِنْ لَوْ أَنَّها تَزَوَّجَتْ لنتون فَسَوْفَ تَشْتَرِكُ مَعَهُ وَريثَةً لِثرشكروس غرانغ .

كانَتْ كاثي في انْتِظارِنا عِنْدَ البَوّابَةِ ، وَقَدْ عَلَتِ ابْتِسامَةٌ شَفَتَيْ هيثكليف حينَ رَمَقَها بِنَظْرَةٍ وَتَحَدَّثَ بِصَوْتٍ رَقيقٍ . وَكُنْتُ أنا بَلْهاءَ حينَ ساوَرَني الاعْتِقادُ بِأَنَّ ذِكْرى أُمِّها سَوْفَ تَقِفُ حائِلاً دُونَ رَغْبَتِهِ في إلْحاقِ الأذى بِها .

دَخَلْنا البَيْتَ ، وَكانَ لنتون يَقِفُ بِجِوارِ المِدْفَأَةِ ، وَبَدا أَطْوَلَ مِنْ عُمْرِهِ – سِتَّةَ عَشَرَ عاماً تَقْريباً – وَ وَسيماً بِطَريقَةٍ أُنْثَوِيَّةٍ .

سَأَلَ هيثكليف كاثي : « وَالآنَ مَنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟»

أجابَتْ مُتَسائِلَةً : « هَلْ هُوَ ابْنُكَ ؟» وَراحَتْ تُجيلُ بَيْنَهُما النَّظَرَ في شَكٍّ .

أجابَ هيثكليف : « أَجَلْ .. أَجَلْ . وَلَكِنْ هَلْ هَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ تَرَيْنَهُ ؟ أَلا تَتَذَكَّرُ ، يا لِنتون ، ابْنَةَ خالِكَ ؟»

صاحَتْ كاثي في دَهْشَةٍ تَمْتَزِجُ بِالفَرَحِ : « هَلْ هَذا هُوَ لنتون الصَّغيرُ ؟ لَقَدْ أَصْبَحَ أَطْوَلَ مِنّي قامَةً !»

وَقَبَّلَتْهُ بِحَرارَةٍ وَأَخَذا كِلاهُما يَتَبادَلانِ النَّظَراتِ وَهُما في دَهْشَةٍ ، ثُمَّ اقْتَرَبَتْ كاثي مِنْ هيثكليف وَصاحَتْ : « أَنْتَ إذاً عَمّي !» وَدَنَتْ مِنْهُ لِتُقَبِّلَهُ وَهِيَ تَسْأَلُهُ : « لِماذا لا تَزورُنا في ثرشكروس غرانغ مَعَ لنتون ما دُمْتَ تَعيشُ قَريباً مِنّا ؟»

أجاب: « لَقَدْ زُرتُ مَنْزِلَكُمْ هَذا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ قَبْلَ أنْ تولَدي .»

مَضَتْ كاثي تَقولُ : « لَسَوْفَ أَتَرَيَّضُ سَيراً عَلى الأَقْدامِ هُنا كُلَّ صَباحٍ ، وَسَوْفَ آتي بِأَبي ، أَلا يَسُرُّكَ أنْ تَلْتَقينا ؟»

أجابَ العَمُّ : « هَذا أمرٌ لا شَكَّ فيهِ ! وَلكِنِ انْتَظِري .. إنَّ السَّيِّدَ لنتون يَبْغُضُني ؛ فَقَدْ تَشاجَرْنا ذاتَ يَوْمٍ . وَإذا أَفْضَيْتِ إِلَيْهِ بِأَنَّكِ كُنْتِ هُنا ، فَلَنْ يَسْمَحَ لكِ بَعْدَ الآنَ بِزِيارَتِكِ لَنا .»

سَأَلَتْهُ كاثي : « وَلِمَ تَشاجَرْتُما ؟»

« لأَنَّهُ كانَ يَعْتَبِرُني أَقَلَّ مِنْ أنْ أَسْتَحِقَّ أنْ أَتزوَّجَ أُخْتَهُ .»

قالَتْ كاثي : « كانَ هَذا خَطَأً مِنْهُ ، وَلَكِنَّ لنتون وَأنا لا شَأْنَ لَنا بِهَذا الشِّجارِ ، وَعَلى ذَلِكَ فَإذا مُنِعْتُ مِنَ المَجيءِ إلى هُنا ، يُمْكِنُهُ هُوَ أنْ يَأْتِيَ إلى ثرشكروس غرانغ .»

قالَ ابنُ عَمَّتِها : « سَتَكونُ المَسافَةُ جِدَّ بَعيدَةٍ . إنَّ مَسيرَةَ سِتَّةِ كيلومِتْراتٍ لَخَليقَةٌ بِأنْ تُخْمِدَ أَنْفاسي ! لا ، يا كاثي ، تَعالَيْ أَنْتِ إِلَيْنا هُنا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ كُلَّ أُسْبوعٍ ، وَلَيْسَ كُلَّ صَباحٍ .»

حَدَجَ هيثكليف ابْنَهُ بِنَظْرَةٍ ساخِرَةٍ ، وَأَسَرَّ إِلَيَّ قائِلاً : « يُؤْسِفُني ، يا إلين ، أنْ يَذْهَبَ تَعَبي هَباءً ؛ فَالفَتاةُ لا بُدَّ أنْ تَكْتَشِفَ حَقيقَتَهُ ثم

تَنْفُضَهُ عَنْها إلى الشَّيْطانِ ! لَوْ أَنَّهُ كانَ هيرتون ! أَ تَعْلَمينَ أَنَّني كُنْتُ أَتَمَنّى عَشَراتِ المَرّاتِ يَوْمِيّاً لَوْ أَنَّهُ كانَ ابْني ؟ كانَ يُمْكِنُ أنْ أُحِبَّ هَذا الوَلَدَ لَوْ لَمْ يَكُنِ ابْنَ هندلي !»

ثُمَّ اسْتَدارَ إلى لنتون قائِلاً : « أَ لَيْسَ ثَمَّةَ مِنْ شَيْءٍ في المَزْرَعَةِ تُريهِ لابْنَةِ خالِكَ ؟ اِصْطَحِبْها لِتَرى حِصانَكَ .»

قالَ لنتون لِكاثي : « أَلا تُفَضِّلينَ أنْ تَجْلِسي هُنا ؟»

أجابَتْ وَهِيَ تُلْقي نَظْرَةً إلى البابِ : « لَسْتُ أَدْري .»

مِنَ الواضِحِ أَنَّها كانَتْ مُتَلَهِّفَةً لِلقِيامِ بِبَعْضِ النَّشاطِ ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ جالِساً ، وَاقْتَرَبَ بِمَقْعَدِهِ مِنَ المِدْفَأَةِ .

وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَ هيرتون مُبْتَلَّ الشَّعْرِ ؛ إذْ كانَ يَغْتَسِلُ .

صاحَتْ كاثي ، وَقَدْ تَذَكَّرَتْ كَلِماتِ مُديرَةِ المَنْزِلِ : « إنَّهُ لَيْسَ بِابْنِ خالي ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

قالَ هيثكليف : « بَلْ إنَّهُ ابْنُ خالِكِ .» وَضَحِكَ لِتَغْييرِها المَشوبِ بِالدَّهْشَةِ الغاضِبَةِ .

« هيرتون ، خُذِ ابْنَةَ عَمَّتِكَ وَطُفْ بِها في المَزْرَعَةِ ، وَإنّي لأَلْفِتُ نَظَرَكَ لأنْ تَتَصَرَّفَ كَرَجُلٍ نَبيلٍ ، فَلا تَنْبِسْ بِلَفْظٍ مُسيءٍ ، وَلا

تُحدِّقْ إلى وَجْهِ الفَتاةِ ، وَكُنْ واضِحاً في كَلامِكَ ، ولْتُخرِجْ يَدَيْكَ مِنْ جَيْبَيْكَ . هيّا اذْهَبْ ورَفِّهْ عَنْها بِمُنْتَهى اللُّطفِ .»

وأخَذَ يُراقِبُهما وَهُما يَبْتَعِدانِ عَنِ النّافذَةِ وَقَدْ أشاحَ هيرتون بِوَجْهِهِ عَنْ كاثي .

قالَ هيثكليف : « لَقَدْ أخرَسْتُ لِسانَهُ ، فَلَنْ يَجْرُؤَ على أنْ يَتفوَّهَ لَها بِكَلِمَةٍ . هَلْ تَتَذَكَّرينَ ، يا إلين ، حينَ كُنْتُ في مِثْلِ عُمُرِهِ — أقْصِدُ حينَ كُنتُ أصْغَرَ مِنْهُ بِبِضْعِ سَنَواتٍ ، هَلْ كُنتُ أبْدو في مِثْلِ بَلاهَتِهِ ؟»

أجَبْتُ : « بَلْ أسْوأ ، لأنَّكَ كُنْتَ صاحِبَ مِزاجٍ مُتَقلِّبٍ .»

« لَقَدْ حَقَّقَ هيرتون آمالي ، فَقَدْ نَزَلْتُ بِهِ إلى حَضيضٍ مِثْلِ الَّذي أنْزَلَني إلَيْهِ والِدُهُ . لَوْ أنَّهُ كانَ أبْلَهَ ما كانَ ذَلِكَ لِيَروقَني ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِأبْلَهَ . إنّي لأفْهَمُ ما يَجْتاحُهُ مِنْ مَشاعِرَ ، لأنّي قَدْ مَرَرْتُ بِمِثْلِ هَذِهِ المَشاعِرِ ، وَإنّي لأدْرِكُ كَمْ يُعاني الآنَ تَماماً . إنَّها بِدايَةٌ لِما سَوْفَ يُعاني ، وَلَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ أنْ يُفيقَ مِنْ فَظاظَتِهِ لأنّي قَدْ دَرَّبْتُهُ على احْتِقارِ الكُتُبِ وَالعِلْمِ ، لِذَلِكَ فَإنَّهُ أصْبَحَ في الحَقيقَةِ مُغْرَماً بي أنا ؛ فَهُوَ يَعْتَبِرُني صَديقَهُ الوَحيدَ !»

لَمْ يَسْتَطِعْ لنتون أنْ يَسْمَعَ كَلِماتِ والِدِهِ ، وَتَمَلَّكَتْهُ حَيْرَةٌ .

وَجالَ بِخاطِري أنَّهُ حَزِنَ إذْ فاتَتْهُ فُرْصَةُ رُفْقَةِ كاثي ، وَقَدْ لاحَ ذَلِكَ لِوالِدِهِ أيْضاً .

صاحَ بِهِ والِدُهُ بِلَهْجَةٍ مَشوبَةٍ بِبَهْجَةٍ مُفْتَعَلَةٍ : « انْهَضْ أيُّها الكَسولُ وَاتْبَعْهُما ! لَقَدْ خَرَجا لِلتَّوِّ .»

وَقَفَ لنتون ثُمَّ خَرَجَ ، وَكانَتْ كاثي إذْ ذاكَ تَتَطَلَّعُ إلى الكَلِماتِ المَحْفورَةِ فَوْقَ البابِ ، وَسَمِعَتْها تَسْألُ رَفيقَها عَنْها ، فَحَمْلَقَ هيرتون إلى أعلى ، وَحَكَّ رَأسَهُ قائِلاً : « إنَّها نَوْعٌ سَخيفٌ مِنَ الكِتابَةِ ، وَلا أسْتَطيعُ أنْ أقْرَأها .»

صاحَتْ كاثي : « لا تَسْتَطيعُ قِراءَتَها ؟ أنا أسْتَطيعُ قِراءَتَها . إنَّها الإنْجليزِيَّةُ . وَلَكِنْ لِماذا كُتِبَتْ هُنا ؟»

ضَحِكَ لنتون ، وَلأوَّلِ مَرَّةٍ بَدا مُبْتَهِجاً ، وَقالَ : « إنَّ هيرتون لا يَعْرِفُ القِراءَةَ .»

قالَتْ كاثي : « يَبْدو أنَّهُ غَبِيٌّ ! أمَريضٌ هُوَ بِعَقْلِهِ ؟ يَبْدو أنَّهُ لا يَفْهَمُ ما أقولُ .»

ضَحِكَ لنتون مَرَّةً أخْرى وَقالَ : « إنَّها تَظُنُّ ، يا هيرتون ، أنَّكَ أبْلَهُ ، وَهَذِهِ نَتيجَةُ احْتِقارِكَ التَّعَلُّمَ مِنَ الكُتُبِ .»

احْمَرَّ وَجْهُ هيرتون حُزْنًا وَغَضَبًا ، وَصاحَ تارِكًا إيّاهُما : « لَوْ لَمْ تَكُنْ فَتاةً أَكْثَرَ مِنْكَ فَتًى ، يا لنتون ، لَطَرَحْتُكَ أَرْضًا .» وبَقِيَ الاثْنانِ سَعِيدَيْنِ مَعًا .

ظَلِلْنا في مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنْغ حَتّى بَعْدَ الظَّهيرَةِ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُقْنِعَ كاثي بِالرَّحيلِ قَبْلَ ذَلِكَ . وَحينَ وَصَلْنا المَنْزِلَ أَفْضَتْ لِوالِدِها بِقِصَّةِ زِيارَتِنا ، وَأَنْهَتْ حَديثَها بِقَوْلِها : « إِنّي لأَعْلَمُ أَنَّهُ حَدَثَ شِجارٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ السَّيِّدِ هيثكليف ، يا أَبي ، وَلَكِنَّ لنتون وَأَنا لا شَأْنَ لَنا بِذَلِكَ ؛ فَلْنَكُنْ عَلى الأَقَلِّ أَصْدِقاءَ ! وَلَيْسَ ثَمَّةَ مِنْ مُعارَضَةٍ مِنْ جانِبِ السَّيِّدِ هيثكليف .»

قالَ والِدُها : « إِنَّ هيثكليف رَجُلٌ شِرّيرٌ جِدًّا ، وَيَجِدُ لَذَّةً في تَدْميرِ مَنْ يَكْرَهُهُمْ . إِنَّهُ يَكْرَهُني ، يا كاثي ، وَسَوْفَ يَكْرَهُكِ أَيْضًا بِسَبَبي ، وَلِهَذا فَإِنّي أَمْنَعُكِ مِنَ الذَّهابِ إِلى بَيْتِهِ .» ثُمَّ أَفْضى بِقِصَّةٍ عَنْ مُعامَلَةِ هيثكليف لإيزابيلا ، وَكَيْفَ اسْتَطاعَ أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلى مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنْغ ، وَلِمَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْها .

وَقَدْ أَصابَتْ قِصَّةُ هيثكليف كاثي في الصَّميمِ ، وَلَكِنَّها لَمْ تَكُنْ لِتَتَنازَلَ عَنْ صَداقَتِها لِلنتون ، فَقَدْ بَعَثَتْ إِلَيْهِ – سِرًّا – بِخِطابٍ ، وَبادَلَها الرَّدَّ عَلى خِطابِها ، وَاسْتَمَرَّتِ الخِطاباتُ المُتَبادَلَةُ

بَيْنَهُما لِمُدَّةِ سِتَّةِ أَسابيعَ ، وَهِيَ خِطاباتٌ يُمْكِنُ أَنْ نُطْلِقَ عَلَيْها خِطاباتٍ غَرامِيَّةً . وَقَدِ اعْتَبَرْتُ تِلْكَ الخِطاباتِ أَشْياءَ تافِهَةً فَأَحْرَقْتُها جَميعًا ، وَحَذَّرْتُ كاثي مِنْ أَنَّني سَأُفْضي لِوالِدِها بِها إِذا اسْتَمَرَّتْ في كِتابَةِ مِثْلِ هَذِهِ الخِطاباتِ إِلى لنتون ، فَأَخَذَتْ كاثي تَبْكي وَتَلْتَمِسُ مِنّي أَلا أَفْعَلَ ذَلِكَ ، وَ وَعَدَتْني بِعَدَمِ إِرْسالِ خِطاباتٍ أُخْرى إِلى مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنْغ .

الفصل الثامن عشر

أخَذَ الصَّيْفُ يَقْتَرِبُ مِنْ نِهايَتِهِ ، وَحَلَّ الخَريفُ ، وَلَمْ تَكُنْ كاثي سَعيدَةً في ذَلِكَ الوَقْتِ ، بَلْ أخَذَتْ أحْزانُها تَتَزايَدُ ، كَما بَدأ بالُها يُصابُ بِالبَلْبَلَةِ مُنْذُ أنْ أوقِفَتِ الخِطاباتُ بَيْنَها وَبَيْنَ لنتون . وَكانَتْ أيْضاً قَلِقَةً عَلى والِدِها الَّذي أُصيبَ بِنَزْلَةِ بَرْدٍ شَديدَةٍ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَتَرَيَّضَ مَعَها كَما كانَ يَفْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ ، بَلْ قَبَعَ رَهينَ المَنْزِلِ طَوالَ الشِّتاءِ ، وَرُحْتُ أنا أتَرَيَّضُ مَعَ كاثي بَدَلاً مِنْهُ .

وَحَدَثَ ذاتَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ أكتوبر بَعْدَ الظَّهيرَةِ أنْ كُنْتُ أتَرَيَّضُ مَعَها ، وَكانَ إدْغار أسْوَأ حالاً مِنَ المُعْتادِ ، وَبَدَتْ كاثي حَزينَةً جِدًّا . وَكانَتْ تَسيرُ إلى جِواري بَطيئَةً تَحْتَ الأشْجارِ ، فَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مِنْ عَدْوٍ أوْ قَفْزٍ الآنَ ، وَرَأيْتُها تَرْفَعُ يَدَها لِتَمْسَحَ دَمْعَةً طَفَرَتْ مِنْ عَيْنَيْها .

سَألْتُها : « لِماذا تَبْكينَ ، يا حَبيبَتي كاثي ؟ ما مِنْ ضَرَرٍ أصابَ أباكِ ؛ إنَّها لَيْسَتْ سِوى نَزْلَةِ بَرْدٍ خَفيفَةٍ .»

قالَتْ كاثي : « سَوْفَ تَزْدادُ حالَتُهُ سُوءاً ، وَماذا سَأفْعَلُ أنا حينَ يَتْرُكُني أبي وَأنْتِ ، وَأجِدُ نَفْسي وَحيدَةً أمامَ أعاصيرِ الحَياةِ القاسِيَةِ؟ كَمْ سَيَكونُ هَذا العالَمُ تَعِساً حينَ يَخْتَفي أبي وَأنْتِ وَراءَ القَبْرِ !»

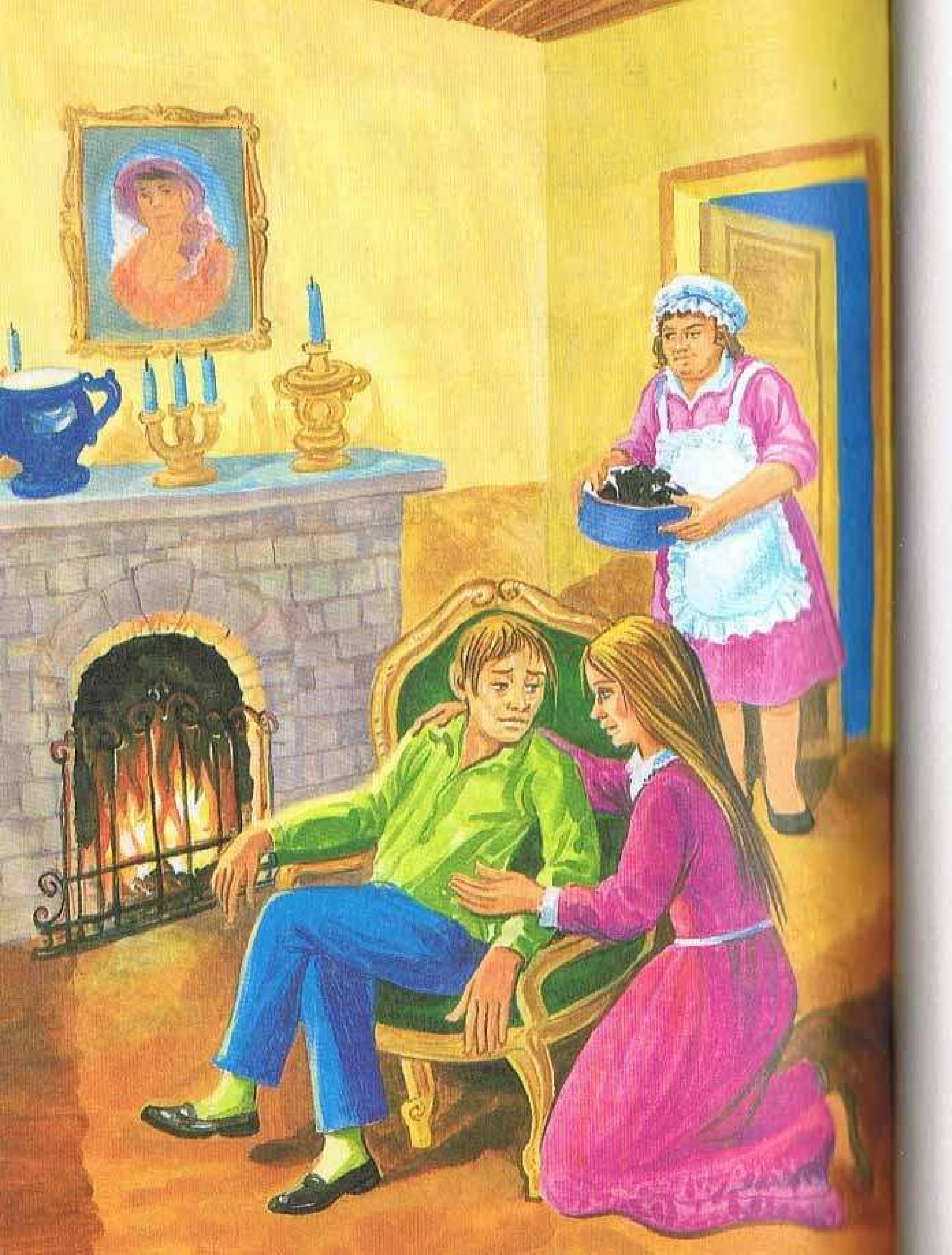
قُلْتُ لَها : « إنَّ أباكِ لَمْ يَزَلْ شابًّا ، وَأنا ما زِلْتُ في فُتُوَّتي في الخامِسَةِ وَالأرْبَعينَ مِنَ العُمْرِ فَقَطْ ، وَآمُلُ أنْ يَكونَ أمامَنا بَقِيَّةٌ مِنَ العُمْرِ طَويلَةٌ قَبْلَ أنْ نَموتَ !»

وَبَيْنَما كُنّا نَسيرُ وَصَلْنا إلى نِهايَةِ المُتَنَزَّهِ ، فَتَسَلَّقَتْ كاثي الجِدارَ وَجَلَسَتْ عَلَيْهِ ، وَأخَذَتْ تُطِلُّ عَلى الطَّريقِ أسْفَلَها ، وَسَمِعْتُ فَجْأةً وَقْعَ أقْدامِ جَوادٍ ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ رَجُلٍ يَقولُ :

« إيهِ ، يا آنِسَةُ لنتون ! لا تَذْهَبي .»

رَدَّتْ كاثي : « لَنْ أتَحَدَّثَ إلَيْكَ ، يا سَيِّدُ هيثكليف !»

« لَدَيَّ مِنَ الأخْبارِ الهامَّةِ ما أريدُ أنْ أُفْضِيَ بِهِ إلَيْكِ ، أخْبارٌ عَنْ لنتون . أراكِ مَلِلْتِ مِنْ كِتابَةِ خِطاباتٍ لَطيفَةٍ إلَيْهِ ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ وَلَكِنَّهُ هُوَ كانَ يُحِبُّكِ . وَلَكِنَّ الحَقيقَةَ المُؤَكَّدَةَ أنَّهُ يَموتُ



حُبًّا فيكِ ! وَلَسَوْفَ يُوارى القَبْرَ ما لَمْ تُنْقِذيهِ أَنْتِ !»

صِحْتُ : « لا تُصْغي إلى كَذِبِهِ ، يا آنِسَةُ كاثي !»

قالَ هيثكليف : « إيهِ ، يا إلين ، أَنْتِ هُنا ؟ أُقْسِمُ إِنَّ لنتون في الطَّريقِ إلى المَوْتِ . تَعالَوْا لِتَرَوْا بِأَنْفُسِكُمْ . سَوْفَ أَتَغَيَّبُ عَنِ البَيْتِ لِمُدَّةِ أُسْبوعٍ .»

وَانْطَلَقَ بَعيداً بِجَوادِهِ ، وَرَجَعْنا نَحْنُ إلى المَنْزِلِ ، وَكانَ يَبْدو الجِدُّ عَلى وَجْهِ كاثي .

قُلْتُ : « أَرْجو أَنْ تَتَذَكَّري الآنَ أَنَّ لنتون حَتّى الآنَ لَمْ يَرَكِ غَيْرَ مَرَّتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فَقَطْ ! وَمِنَ المُحالِ أَنْ يَموتَ شَخْصٌ حُبًّا في آخَرَ غَريبٍ عَنْهُ .»

أَجابَتْ : « قَدْ تَكونينَ عَلى صَوابٍ ، يا إلين ، وَلَكِنْ لَنْ يَهْدَأَ لي بالٌ إلى أَنْ أَرى بِنَفْسي .»

وَمِنْ ثَمَّ فَقَدِ اتَّفَقْتُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَها إلى مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ . وَحينَ وَصَلْنا وَجَدْنا لنتون وَحيداً في غُرْفَةِ المَعيشَةِ ، جالِساً في كُرْسِيٍّ ضَخْمٍ بِجِوارِ المِدْفَأَةِ الَّتي أَخَذَتْ نارُها تَخْبو شَيْئاً فَشَيْئاً ، فَرَكَضَتْ كاثي إِلَيْهِ .

قالَ وَهُوَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ : « أَ هَذِهِ أَنْتِ ، يا آنِسَةُ لنتون ؟ لا تُقَبِّليني ؛ فالقُبْلَةُ تَقْطَعُ أنْفاسي . لَقَدْ قالَ أبي إنَّكِ سَتَأْتينَ . هَلْ تَسْمَحين بإغْلاقِ البابِ ؟ لَقَدْ تَرَكْتِهِ مَفْتوحاً ، وَلَنْ يُحْضِرَ أَحَدٌ فَحْماً لِلنارِ . إنَّ الجَوَّ شَديدُ البُرودَةِ !»

أَحْضَرْتُ بِنَفْسي بَعْضَ الفَحْمِ ، وَأَوْقَدْتُ النّارَ فَأَخَذَتْ تَلْتَمعُ . وَجالَ بِخاطِري أَنَّ لنتون أصيبَ بِحُمّى وَسَقَطَ مَريضاً .

قالَتْ كاثي : « هَلْ أَنْتَ سَعيدٌ بِرُؤْيَتي ؟»

سَأَلَها: « لِمَ لَمْ تَأْتي مِنْ قَبْلُ ؟ كان يَجِبُ أَنْ تَأْتي بَدَلاً مِنْ كِتابَةِ الخِطاباتِ ، فَقَدْ أَصابَتْني كِتابَةُ تِلْكَ الخِطاباتِ الطَّويلَةِ بإعياءٍ .»

أَجابَتْ : « وَلَكِنْ أَنْتَ سَعيدٌ أَنْ تَراني الآنَ ؟»

اِبْتَسَمَ ابْتِسامَةً خافِتَةً ، وَقالَ : « أَجَلْ ، أنا سَعيدٌ . وَإِنَّهُ لَشَيْءٌ جَميلٌ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتاً كَصَوْتِكِ ، وَلَكِنَّني كُنْتُ أَعيشُ في تَعاسَةٍ لأَنَّكِ لَمْ تَأْتي ، وَقَدْ قالَ لي أبي إنَّكِ لَمْ تَأْتي بِسَبَبِ خَطَأٍ مِنّي ، وَقَدِ اعْتَبَرَني شَيْئاً لا قيمَةَ لَهُ يَسْتَحِقُّ العَطْفَ ، وَقالَ إِنَّكِ تَحْتَقِرينَني ، وَلَكِنْ أَنْتِ لا تَحْتَقِرينَني ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ يا آنِسَةُ ... ؟»

قالَتْ سَيِّدَتي : « أَرْجو أَنْ تَدْعوني كاثي . أَحْتَقِرُكَ أَنْتَ ؟! أَنْتَ

تَلي أَبي وَإِلين في قَلْبي . إِنَّني أُحِبُّكَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ .»

« يقولُ أبي إِنَّكِ لَوْ كُنْتِ زَوْجَتي لأَحْبَبْتِني أَكْثَرَ مِنْ أَبيكِ وَمِنْ كُلِّ العالَمِ .»

أَجابَتْ بِصورَةٍ جِدِّيَّةٍ : « لا ، يَجِبُ عَلَيَّ أَلا أُحِبَّ أَيَّ شَخْصٍ أَكْثَرَ مِنْ أَبي . وَفي بَعْضِ الأَحْيانِ يَكْرَهُ الرِّجالُ زَوْجاتِهِمْ ، فَأَبوكَ كانَ يَبْغُضُ أُمَّكَ .»

« هَذا غَيْرُ صَحيحٍ !»

« لا ، إِنَّهُ صَحيحٌ . أَبي أَخْبَرَني بِذَلِكَ ، وَهُوَ لا يَكْذِبُ أَبَداً .»

قالَ لنتون : « سَأُخْبِرُكِ بِشَيْءٍ : كانَتْ أُمُّكِ تُبْغِضُ أَباكِ !»

صاحَتْ كاثي وَهِيَ جِدُّ غاضِبَةٍ ، الأَمْرُ الَّذي دَعاها أَلا تَسْتَمِرَّ في الحَديثِ : « ماذا ؟!»

أَضافَ : « وَهِيَ كانَتْ تُحِبُّ أَبي .»

بَلَغَ الغَضَبُ بِكاثي حَدًّا جَعَلَها تَدْفَعُ المَقْعَدَ بِقَدَمِها دَفْعَةً شَديدَةً ، فَأَصابَ لنتون الَّذي سَقَطَ عَلى ذِراعِهِ ، وَبَدَأَ يَسْعُلُ بِشِدَّةٍ ، وَاسْتَمَرَّ السُّعالُ مَعَهُ فَتْرَةً طَويلَةً ، مِمّا جَعَلَني أَشْعُرُ بِخَوْفٍ شَديدٍ . أَمّا كاثي فَقَدْ أُصيبَتْ بِفَزَعٍ لِما سَبَّبَتْهُ لَهُ مِنْ أَذًى ، وَراحَتْ تَبْكي بُكاءً مُرًّا .

وَأمْسكْتُ بِلنتون إلى أنْ تَوَقَّفَ عَنِ السُّعالِ ، وَسألْتُهُ : «كَيْفَ حالُكَ الآنَ ، يا سَيِّدُ لنتون ؟»

أجابَ : « إنّي أتمنّى لَوْ أنَّ شُعورَها يكونُ مِثْلَ شُعوري . كانَ الأمْرُ صَعباً .» ثُمَّ أخَذَ يَئِنُّ بِصَوْتٍ مَسْموعٍ .

قالَتْ كاثي أخيراً : « إنّي آسِفَةٌ ، يا لنتون ، لأنّي آذَيْتُكَ . هَلْ إصابَتُكَ شَديدَةٌ ؟»

أجابَ : «كُفّي عَنِ الكَلامِ ، فَأنا لا أطيقُ أنْ أسْمَعَكِ تَتَحَدَّثينَ .» وَلَمْ يَنْظُرْ إلَيْها أوْ يَتَحَدَّثْ مَرَّةً أخْرى .

وَأخيراً نَهَضَتْ كاثي لِتَنْصَرِفَ ، وَتَبِعْتُها ، ولكِنْ ما إنْ وَصَلْنا إلى البابِ حَتّى سَمِعْنا صَرْخَةً مُدَوِّيَةً : فَقَدِ انْزَلَقَ لنتون مِنْ مَقْعَدِهِ إلى أرْضِيَّةِ الغُرْفَةِ ، وَظَلَّ يَتَقَلَّبُ وَيَتَلَوّى كَطِفْلٍ مُدَلَّلٍ .

رَفَعْتُهُ إلى الأريكَةِ قائِلَةً: « هَيّا نَنْصَرِفْ ، يا آنِسَةُ كاثي ! يُمْكِنُكِ أنْ تَرَيْ بِنَفْسِكِ الآنَ أنْ صِحَّتَهُ السَّيِّئَةَ لَيْسَتْ بِسَبَبِ مُعاناتِهِ في حُبِّكِ !»

وَضَعَتْ كاثي وِسادَةً تَحْتَ رَأسِهِ ، وَلكِنَّهُ أخَذَ يَتَقَلَّبُ بِضيقٍ ، وَقالَ : « هَذِهِ الوِسادَةُ غَيْرُ مُرْتَفِعَةٍ بِدَرَجَةٍ كافِيَةٍ .» فَأحْضَرَتْ كاثي وِسادَةً أخْرى وَ وَضَعَتْها فَوْقَ الوِسادَةِ الأولى .

قالَ لنتون : « لَقَدْ أصْبَحَتْ مُرْتَفِعَةً أكْثَرَ مِنَ اللّازِمِ . اِجْلِسي عَلى الأريكَةِ وَدَعيني أسْنِدُ رَأسي إلى رُكْبَتَيْكِ .» فَجَلَسَتْ وَأراحَ رَأسَهُ عَلى رُكْبَتَيْها قائِلاً : « هَذِهِ هِيَ الطَّريقَةُ الَّتي تَعَوَّدَتْ أمّي أنْ تَجْلِسَ بِها مَعي . وَالآنَ يُمْكِنُكِ أنْ تُغَنّي لي أغْنِيَّةً أوْ تَقولي قَصيدَةً طَويلَةً لَطيفَةً .»

وَألْقَتْ كاثي مِنْ ذاكِرَتِها أطْوَلَ قَصيدَةٍ اسْتَطاعَتْ أنْ تَتَذَكَّرَها ، ثُمَّ اسْتَعادَتْ قَصيدَةً ثُمَّ أخْرى . وَهَكَذا شَعَرَ الاثْنانِ بِمُتْعَةٍ كَبيرَةٍ ، وَاسْتَمَرّا عَلى هَذِهِ الحالِ إلى أنْ عادَ هيرتون لِتَناوُلِ الغَداءِ .

سَألَها لنتون وَقَدْ أمْسَكَ بِردائِها حينَ هَمَّتْ بِالقِيامِ : « هَلْ سَتَأتينَ غَداً ، يا كاثي ؟»

أجَبْتُ أنا : « لا ، وَلا حَتّى بَعْدَ غَدٍ .» وَلكِنَّ كاثي انْحَنَتْ وَهَمَسَتْ بِشَيْءٍ في أذُنِهِ ؛ فَلاحَتْ عَلى شَفَتَيْهِ ابْتِسامَةٌ .

الفصل التاسع عشر

خمّنْتُ أنَّ كاثي تُخطِّطُ لِزيارةِ لنتون مرّةً أخرى ، فصمّمْتُ أنْ أحولَ دونَ ذلِكَ ، ولكنّني في اليومِ التالي مرِضْتُ ، وكانَ ذلِكَ أشدَّ مرَضٍ أصِبْتُ بِهِ طَوالَ حياتي ، فقدْ ظلِلْتُ ثلاثةَ أسابيعَ وأنا حَبيسةُ حُجْرتي ، لا أغادِرُها .

كانَتْ كاثي أعظَمَ سلْوى لي ؛ فحالما كانَتْ تترُكُ غُرْفَةَ السّيِّدِ لنتون ، كانَتْ تأتي إلى فِراشي ؛ فقدْ كانَ يوْمُها مُوزَّعًا بينَنا ، ولكِنَّ المساءَ كانَ لها . ولَمْ أفكِّرْ فيما كانَتْ تفعَلُ بعْدَ السّاعةِ السّادِسةِ مساءً . وحينَ تحسّنَتْ حالتي اكْتشَفْتُ سرَّها ، فقدْ كانَتْ في كُلِّ أمْسِيةٍ تقريبًا تركَبُ جوادَها ، وتذْهَبُ إلى مُرْتفعاتِ وذْرِنغ ؛ كيْ ترى لنتون .

وقدْ رأتْهُ في زيارتِها لَهُ مرّتَينِ أوْ ثلاثَ مرّاتٍ مُبْتهِجًا ، وحينئذٍ

كانَتْ تجِدُ مُتْعَةً في الحَديثِ معَهُ ، أمّا في الزِّياراتِ الأخْرى فقدْ كانَتْ تَسوءُها إمّا مُعاناتُهُ أوْ أنانِيَّتُهُ .

وفي إحْدى الأمْسِيّاتِ كانَتْ تدْخُلُ إلى المَنْزِلِ ، فقابلَتْ هيرتون في الحَديقةِ ، فأشارَ في ضوْءِ القَمرِ السّاطِعِ إلى كِتابَةٍ أعْلى البابِ الأماميِّ .

قالَ بِلَهْفَةٍ : « إنّني أسْتطيعُ ، يا كاثرين ، أنْ أقْرأ الآنَ .» وقرأ بأناةٍ وباهتِمامٍ اسْمَ هيرتون إيرنشو ، ولَكِنْ حينَ طلَبَتْ مِنْهُ أنْ يَقْرأ التّاريخَ الّذي يلي الاسْمَ لَمْ يَسْتَطِعْ ، فهُوَ ، كَما قالَ لها ، لمْ يتعلَّمْ كيْفَ يقْرأ الأرْقامَ حتّى ذلِكَ الوقْتِ ، الأمْرُ الّذي جعَلَ كاثي تضْحَكُ مِلْءَ شِدْقَيْها .

قالَتْ لي : « يا لَهُ مِنْ غَبِيٍّ ، يا إلين !»

أجَبْتُ : « لا ، يا عزيزَتي ، كاثي ! يَجِبُ ألا توَجِّهي إليْهِ مِثْلَ هذِهِ التُّهْمَةِ ؛ فهيرتون كانَ طِفْلاً حسّاسًا ومُجْتهِدًا ، كَما كُنتِ أنْتِ نفْسُكِ . ولَكِنَّهُ لَمْ ينَلْ حظا مِنَ الدُّروسِ مِثْلَكِ . وهذا ما جعَلَه فظا غليظًا .»

لقَدْ كانَتْ هُناكَ مُشاجَراتٌ كثيرةٌ بيْنَ كاثي ولنتون ، وكُلُّها

نَتيجةُ طَبيعتِهِ المُلتَوية . وكانَتْ تَصْفَحُ عَنْهُ في كُلِّ مُشاجَرَةٍ ، وَتَعلَّمتْ أنْ تتحمَّل طَبْعَه الحادَّ وَصِحَّتَهُ السَّيِّئَة.

مَضَتْ كاثي تَقولُ : « أمّا بِخُصوص هيثكليف ، فإنَّني لا أكادُ أراهُ ؛ فَهُوَ يَتَحاشاني عَنْ عَمْدٍ ، وأنا أزورُ لنتون في غُرفَةِ الجُلوسِ الصَّغيرَةِ الخاصَّةِ بِهِ . والآن ، يا إيلين لَقَدْ سَمِعْتُ كُلَّ شَيْءٍ فإذ ما مَنَعْتِني مِن الذَّهابِ إلى مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ فَسَوْفَ تَكونينَ السَّبَبَ في تَعاسَةِ شَخْصَيْنِ ! لا تُخْبِري أبي بِهَذِهِ الأمورِ – هَلْ تَعِدينَ بِذَلِكَ ؟»

أجَبْتُ : « سَوْفَ أعْقِدُ العَزْمَ تِجاهَ هَذِهِ النُّقْطَةِ بِالذَّاتِ غَداً ، يا آنِسَةُ كاثي .» وذَهَبْتُ مِنْ غُرْفَتي إلى غُرْفَةِ سَيِّدي وَأخْبَرْتُهُ بِالقِصَّةِ كُلِّها .

وَبَديهِيٌّ أنَّ السَّيِّدَ لنتون رَفَضَ أنْ يَسْمَحَ لِكاثي بِزِيارَةِ مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ مَرَّةً أخرى .

تَتابَعَتْ أيّامُ الرَّبيعِ ، وَتَحَسَّنَتْ صِحَّةُ السَّيِّدِ لِنْتون بِدَرَجَةٍ تَسْمَحُ لَهُ بِالخُروجِ ، وَبَدَأَ يَخْرُجُ لِلتَّرَيُّضِ مَعَ كاثي مَرَّةً أخرى في الأماكِنِ المُجاوِرَةِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ تَتَحَسَّنْ صِحَّتُهُ تَحَسُّناً مَلموساً ، وأدْرَكَ أنَّهُ لَنْ يَعيشَ طَويلاً .

وَقَدْ ألَحَّ عَلَيْهِ وَأزْعَجَهُ خاطِرٌ طَغى عَلى كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ أنَّ كاثي قَدْ تَحْيا وَحيدَةً ، وَقَدْ عادَ بِخاطِرِهِ إلى ابْنِ أخْتِهِ لنتون : هَلْ يَصْلُحُ زَوْجاً لِكاثي ؟ لَقَدْ خَشِيَ أنْ يَكونَ لنتون ألعوبَةً في يَدَيْ أبيهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ طافَ بِهِ الأمَلُ أنَّهُ يَسْتَطيعُ أنْ يَبْعَثَ في قَلْبِ كاثي الأمانَ وَالاطمِئْنانَ لِفَقْدِهِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ كَتَبَ خِطاباً إلى لنتون ، وَرَدَّ لنتون بِخِطابٍ طالِباً مِنْ خالِهِ أنْ يَسْمَحَ لَهُ بِمُقابَلَةِ كاثي .

وَما إن انْقَضى الرَّبيعُ وَحَلَّ الصَّيْفُ حَتّى بَدَأَ سَيِّدي يَزْدادُ ضَعْفاً ، وَقالَ أخيراً إنَّ كاثي يُمكِنُها أنْ تُقابِلَ ابْنَ عَمَّتِها في الأراضي القَفْرِ وَهِيَ بِرُفْقَتي . وَقَدْ قَرَّرَ أنَّ زَواجَ كاثي بِلنتون هُوَ أفْضَلُ حَلٍّ لِمُشْكِلَةِ كاثي ، فَهِيَ حينَ تَتَزَوَّجُ بِوريثِ والِدِها سَوْفَ يُمكِنُها أنْ تَظَلَّ في مَنْزِلِ العائِلَةِ .

وَلَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لَهُ بِبالٍ أنَّ حَيَوِيَّةَ لنتون كانَتْ في سَبيلِها إلى الأفولِ بِسُرْعَةٍ كَسُرْعَةِ أفولِ صِحَّتِهِ هُوَ ؛ فَما مِنْ طَبيبٍ كانَ يَزورُ المرتفعات ، وَما مِنْ أحَدٍ أبانَ عَنْ حالَةِ لنتون الصِّحِّيَّةِ . وَلَمْ نَكُنْ نَتَصَوَّرُ أنَّ هيثكليف يُمْكِنُ أنْ يُعامِلَ طِفْلاً في طَريقِهِ إلى المَوْتِ بِهَذِهِ القَسْوَةِ ، وَلَكِنَّ هيثكليف كانَ يَخْشى أنَّ خُطَطَهُ الآثِمَةَ

يُمكِنُ أنْ يُفسِدَها المَوْتُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ أجْبَرَ لنتون المِسْكينَ بِأنْ يَتظاهَرَ بِأنَّهُ عاشِقٌ مُتيَّمٌ .

وَما إنْ وافى شَهْرُ أغسطس حَتّى دُبِّرَتْ أوَّلُ مُقابَلَةٍ بَيْنَ كاثي وَلنتون ، وَكان عَلَيْنا أنْ نَرْكَبَ جَوادَيْنا لِمُقابَلَتِهِ في الأراضي القَفْرِ ، في مُنْتَصَفِ الطَّريقِ بَيْنَ المَنْزِلَيْنِ .

كانَ في انْتِظارِنا ، وَحين قامَ لاحَظْتُ أنَّهُ كانَ تَقريباً قَدْ وَصَلَ إلى حالَةٍ مِنَ الضَّعْفِ تُعْجِزُهُ عَنِ الوُقوفِ ، فَقَدْ بَدا ذابِلاً بِشَكْلٍ مُريعٍ ، وَهزِيلاً إلى حَدٍّ كَبيرٍ . وَقَدْ نَدَّتْ عَنْ كاثي صَرْخَةُ دَهْشَةٍ عِنْدَ رُؤْياهُ .

تَساءَلَتْ : « هَلْ أنْتَ ، يا لنتون ، أسْوَأُ مِنْ عَهْدِنا بِكَ ؟ »

أجابَ وَهُوَ مُنْقَطِعُ الأنْفاسِ: « لا ، فأنا أفْضَلُ . إنني لَمُتْعَبٌ – هَذا كُلُّ ما في الأمْرِ ، والجَوُّ حارٌّ لِدَرَجَةٍ لا تَسْمَحُ بِالمَشْيِ فَهَيّا بِنا نَسْتَريحُ . »

جَلَسَتْ كاثي . ومالَ هو نَحْوَها ، وَبَدَأتِ الحَديثَ إلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُجيبَ ، وَما مِنْ شَيْءٍ فاهَتْ بِهِ قابَلَهُ بِاهْتِمامٍ .

وَسَرْعانَ ما أدْرَكَت كاثي أنَّ رُفْقَتَنا لَهُ كانَتْ عُقوبَةً لَهُ وَلَيْسَ

مُتْعَةً . واقْتَرَحَتْ هِيَ أنْ نَعودَ إلى المَنْزِلِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الفِكْرَةَ أفْزَعَتْ لنتون بِشَكْلٍ غَريبٍ ، فَألْقى بِنَظْرَةٍ إلى المرتفعات وطَلَبَ إليها أنْ تَبْقى نِصْفَ ساعَةٍ عَلى الأقَلِّ .

تَطَلَّعَتْ كاثي إلَيْهِ في دَهْشَةٍ ، فَاسْتَأنَفَ حَديثَهُ قائِلاً : « وَتَعالَيْ إلى هُنا مَرَّةً أخْرى يَوْمَ الخَميسِ المُقْبِلِ ، وإذا قابَلْتِ أبي فَلا تَجْعَليهِ يَظُنُّ أنّني كُنْتُ صامِتاً وَأبْلَهَ فَلَسَوْفَ يَثورُ غَضَباً . »

قالَت كاثي : « أنا لا أعْبَأُ بِغَضَبِه . »

قال لنتون : « وَلكِنّي أنا أعْبَأُ . »

جَلَسْنا في صَمْتٍ لِبِضْعِ دَقائِقَ ، و سَقَطَ رَأسُ لنتون عَلى صَدْرِهِ ، فَقَدْ غَلَبَهُ النُّعاسُ .

هَمَسَتْ كاثي لي : « هَلْ مَضَتْ نِصفُ ساعَةِ الآنَ ، يا إيلين ؟ لِماذا أرادَ أنْ يَراني ؟ هَلْ تَظُنّين أنَّ والِدَهُ أرْغَمَهُ عَلى هَذا اللِّقاءِ ؟ »

اسْتَيْقَظَ لنتون فَجْأةً قائِلاً : « أعْتَقِدُ أنّني سَمِعْتُ صَوْتَ أبي . » ثُمَّ صَرَخَ في فَزَعٍ : « إنَّهُ قادِمٌ . »

وَعِنْدَما سَمِعَتْ كاثي هَذا الخَبَرَ ابْتَعَدَتْ عَنْهُ بِسُرْعَةٍ ، وصاحَتْ

وَهيَ تَقْفِزُ فَوْقَ جَوادِها : « سَوْفَ أكون هُنا يَوْمَ الخَميسِ المُقْبِلِ .
إلى اللِّقاءِ ! أسْرِعي ، يا إيلين .»

وَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْنا عِنْدَما رَكِبْنا وابْتَعَدْنا ؛ فَقَدْ كانَ يُفَكِّرُ فَقَطْ في والِدِهِ .

الفصل العشرون

مَرَّت عَشَرَةُ أيّامٍ كانَ فيها إدغار لنتون يَزْدادُ ضَعْفاً يَوْماً بَعْد يَوْم ، فَلَمْ يَكُنْ بِاسْتِطاعَتِنا أنْ نَخْدَعَ كاثي بَعْدَ الآنَ : لَقَدْ فَهِمَت تَماماً أنَّ أباها في الطَّريقِ إلى المَوْتِ .

كانَتْ تَقْضي كُلَّ دَقيقَةٍ مِنَ النَّهارِ إلى جِوارِهِ ، وقَد شَحَبَ وَجْهُها مِنْ طولِ مُلازَمَتِها لَهُ وَ أحْزانِها عَلَيْهِ ، . وحينَ جاءَ يَوْمُ الخَميسِ لَمْ يَكُنْ لَها رَغْبَةٌ في الخُروجِ لِمُقابَلَةِ لنتون ، رَغْمَ أنَّ وَالِدَها كانَ يُريدُها أنْ تَذْهَبَ إلَيْهِ ، فَقَدْ شَعَرَ بِراحَةٍ عِنْدَما جالَ بِخاطِرِهِ أنَّ كاثي لَنْ تُتْرَكَ وَحيدَةً بَعْدَ وَفاتِهِ .

كانَ الوَقْتُ بَعْدَ الظَّهيرَةِ حينَ سِرْنا ، و وَجَدْنا لنتون في نَفْسِ المَكانِ الَّذي اخْتارَ أنْ يَظَلَّ فيهِ مِنْ قَبْلُ .

قالَ بِصُعوبَةٍ : « إنَّ الوَقْتَ مُتأخِّرٌ . أ لَيْسَ أبوكِ جِدَّ مَريضٍ ؟

لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أنكِ لَنْ تأتي .»

صاحَتْ كاثي : « لَقَدِ اشْتَدَّتْ وَطْأَةُ المَرَضِ على والِدي ؛ فَلماذا إذًا تُبْعِدُني عَنْهُ ؟ وَأَسْتَطيعُ أنْ أكْتَشِفَ مِنْ مَلامحِ وَجْهِكَ أَنَّكَ عازِفٌ عَنْ مقابَلَتي ! وَهَذِهِ هِيَ المَرَّةُ الثَّانِيَةُ الَّتي تأتي بي إلى هُنا دونَ داعٍ عَلى الإِطْلاقِ .»

قالَ لِنتون مُتَوَسِّلاً : « أَسْتَحْلِفُكِ بِاللهِ ، يا كاثي ، ألا تَغْضَبي . احْتَقِريني إذا أَرَدْتِ ، وَلَكِن لا تُبْغِضيني ، فَأَنا لا أَسْتَحِقُّ غَضَبَكِ .» ثُمَّ أَلْقَى بِنَفْسِهِ عَلى الأَرْضِ عِنْدَ قَدَمَيْها وَأَمْسَكَ بِثَوْبِها .

صاحَتْ كاثي : « أَيُّها الوَلَدُ الأَحْمَقُ الغَبِيُّ ! إِنِّي لأَحْتَقِرُكَ فِعلاً ! اُتْرُكْ ثَوْبي ، فَسَوْفَ أعودُ إلى المَنْزِلِ . اِنْهَضْ وَلا تتصرَّفْ تصرُّفًا مُخْزِيًا – لا لا تَتَصَرَّفْ هكَذا !»

صاحَ لنتون باكِيًا : « آهِ ! لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتحمَّلَ ! كاثي ، كاثي ، لَوْ أَنَّكِ تَركْتِني فإنَّكِ تَحكُمينَ عَلَيَّ بِالمَوْتِ ، وَلا أَجْرُؤُ على أَنْ أُخْبِرَكِ بِالسَّبَبِ . إِنَّ حَياتي بَيْنَ يَدَيْكِ ، يا عَزيزَتي كاثي . لَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلْتِ إِنَّكِ تُحِبّينَني – إذًا لا تَتْرُكيني ، يا كاثي العطوفُ .. الجَميلَةُ .. الطيبةُ ! ولَعَلَّكِ تَقْبَلينَ – وعِنْدَئِذٍ سَوْفَ يَتْرُكُني أعيشُ مَعَكِ حَتّى المَوْتِ .»

انْحَنَتْ سَيِّدَتي الشّابَّةُ عَلَيْهِ بِما يَتَدافَعُ فيها مِن مَشاعِرِ حَنانٍ قَديم وَسَأَلَتْهُ : « أَقْبَلُ ماذا ؟ أَقْبَلُ أَنْ أَبْقى هنا ؟ أَخْبِرْني بِمَعْنَى هذا الحَديثِ الغَريبِ ، وَسَأَبْقى .»

« وَلَكِنَّ والِدي سَوْفَ يُؤْذيني ، وَإِنّي لأَخْشاهُ .. لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُخْبِرَكِ .»

كُنْتُ أَتساءَلُ ما هُوَ السِّرُّ الَّذي يُخْفيهِ ، وإذا بِهيثكليف يَظْهَرُ .

قالَ بِانْشِراحٍ: « حَسَنًا ، يا إيلين .. كَيْفَ حالُكُمْ في ثرشكروس غرانغ ؟ يَقولُ البَعْضُ إِنَّ إدغار لنتون في فِراشِ المَوْتِ ، هَلْ هَذا صَحيحٌ ؟»

أَجَبْتُ : « أَجَلْ ، إِنَّ سَيِّدي يُحْتَضَرُ .»

سألَ : « كَمْ تَظُنّينَ سَيَمْتَدُّ بِهِ العُمْرُ ؟ الأَفْضَلُ أن يُعَجِّلَ بِنهايَتِهِ ، وإلا فإنَّ ذَلِكَ الفتى سَيموتُ قَبْلَه ! آمُلُ أَنْ يَموتَ خالُهُ قَبْلَهُ .»

وأَلْقى بِنَظْرَةٍ على لنتون الَّذي كان لا يَزالُ مُمَدَّدًا على الأَرْضِ.

« اِنْهَضْ ، يا لنتون ! اِنْهَضْ في هَذِهِ اللَّحْظَةِ !»

حاوَلَ لنتون مُحاوَلاتٍ عَديدَةً أن يُطيعَ ، غَيْرَ أَنَّ نَظْرَةَ والِدِهِ إِلَيْهِ

سَبَّبَتْ لَهُ خَوْفًا وَعَجْزًا ، وَانْهارَتْ قُوَّتُهُ فَسَقَطَ عَلى ظَهْرِهِ .

« عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ ! انْهَضْ في الحالِ !!»

الْتَقَطَ أَنْفاسَهُ قائِلاً : « سَوْفَ أَفْعَلُ ذَلِكَ ، يا أَبي . دَعْني وَحْدي لَحْظَةً . مُدّي لي يَدَكِ ، يا كاثي .»

قالَ والِدُهُ : « انْهَضِ الآنَ عَلى قَدَمَيْكَ ، وَسَوْفَ تَمدُّ إِلَيكَ يَدَها. هَلْ تَتعطَّفين فَتَمْشينَ مَعَهُ إلى البَيْتِ ، يا آنسةُ كاثي ؟ إِنَّهُ يَرْتَعِشُ إذا لَمَسْتِهُ ؛ فَهُوَ يَخْشاني كَما لَوْ كُنْتُ أَنا الشَّيْطانَ مُجَسَّماً .»

قالَتْ كاثي : « إِنَّني ، يا عَزيزي لنتون ، لا أَسْتَطيعُ الذَّهابَ إِلى مُرْتَفَعاتِ وَذَرِنغ ؛ فَأَبي قَدْ مَنَعَني مِنْ ذَلِكَ . وأبوكَ أَنْتَ لَنْ يُؤْذِيَكَ؛ فَلِماذا تَقِفُ مَذْعوراً بِهَذِهِ الصُّورَةِ ؟»

أجابَ : « أنا لا أَسْتَطيعُ دُخولَ ذَلِكَ البَيْتِ مَرَّةً أُخْرى ، ولا بُدَّ أَنْ تُرافِقيني في دُخولِهِ مَرَّةً أُخْرى .»

قالَ والِدُهُ : « كُفَّ عَنْ هَذا الكَلامِ ، فَلَنْ نُلِحَّ عَلى كاثي يا لنتون ، وَلا بُدَّ مِنْ دُخولِكَ مَعي .»

تَشَبَّثَ لنتون بِابْنَةِ عَمَّتِهِ كاثي ، وَتَوَسَّلَ إِلَيها بِحَرارَةٍ أَنْ تَذْهَبَ

مَعَهُ ، وَقَد بَدا في حالَةٍ تَقْرُبُ مِن الجُنونِ خَوْفاً وَذُعْرًا . كَيْفَ يُمْكِنُها أَنْ تَرْفُضَ الذَّهابَ مَعَهُ ؟

وَصَلْنا إِلى بَوّابَةِ مُرْتَفَعاتِ وَذَرِنغ ، وَانْتَظَرْتُ أَنا هُناكَ في حينِ مَشَتْ كاثي بِلِنتون إِلى كُرْسِيٍّ .

قالَ هيثكليف وَهُوَ يَدْفَعُني إِلى الأَمامِ : « تَعالَيْ ، يا إيلين ، إِلى الدّاخِلِ واجْلِسي وَدَعيني أَنا أُغْلِقُ البابَ .» وأَغْلَقَ البابَ بِالقُفْلِ ، وَقَفَزْتُ أَنا في ذُعْرٍ وَانْتَحَيْتُ جانِباً .

أَضافَ قائِلاً: « سَوْفَ تَتَناوَلينَ الشّايَ قَبْلَ أَنْ تَذْهَبي إِلى البَيْتِ ؛ فَأَنا وَحْدي في البَيْتِ اليَوْمَ ، وَلِذا فَأَنا في حاجَةٍ إِلى رَفيقٍ لَطيفٍ يُؤْنِسُني . اجْلِسي بِجِوارِهِ ، يا آنِسَةُ كاثي ، سَوْفَ أُهْديكِ كُلَّ ما أَمْتَلِكُ ، وَهَدِيَّتي هَذِهِ لا تَسْتَحِقُّ أَنْ تَقْبَلِيها ، وَلَكِنْ لَيْسَ ثَمَّةَ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ أُقَدِّمُهُ إِلَيكِ ، وأَقْصِدُ بِهَدِيَّتي هَذِهِ لنتون . لا تَحْدِجيني بِنَظَراتِكِ بِهَذا الشَّكْلِ ! يا لَلْعَجَبِ ، إِنَّني أُريدُ أَنْ أَبْطِشَ بأيِّ شَيْءٍ يَتَمَلَّكُهُ الخَوْفُ مِنّي .»

صاحَتْ كاثي : « أنا لَسْتُ بِخائِفَةٍ مِنْكَ .» وكانَتْ عَيْناها السَّوْداوانِ تَلْتَمِعانِ غَضَباً وهِيَ تَقولُ : « أَعْطِني هَذا المِفْتاحَ ! سَوْفَ آخُذُهُ .» وحاوَلَتْ أَنْ تُمْسِكَ بِالمِفْتاحِ مِنْ يَدِهِ ، وَلَكِنَّهُ ضَمَّ

أصابعَهُ عَلى المِفْتاحِ بإحْكامٍ .

قالَ : « اِبْتَعِدي ، يا كاثرين لنتون .»

لَمْ تُلقِ كاثرين بالاً لِتحْذيرِهِ ، فَهاجَمَتْ يَدَهُ أَوَّلاً بأظْفارِها ثُمَّ بِأسْنانِها ، فَأسْقَطَ هيثكليف المِفْتاحَ مِنْ يَدِهِ ، وَأمْسَكَها بإحْدى يَدَيْهِ وَجَذَبَها عَلى رُكْبَتَيْهِ ، وراحَ يَضْرِبُها عَلى جانِبَي رَأسِها .

صَرَخْتُ أنا ثُمَّ هَجَمْتُ عَلَيْهِ قائِلَةً : « أيُّها الشَّيْطانُ !» ولكِنَّ لَكْمَةً في صَدْري أخْرَسَتْني ، فَأنا بَدينَةٌ وَسُرْعانَ ما تَقَطَّعَتْ أنْفاسي .

تَرَكَها واتَّكَأتْ هِيَ عَلى المِنْضَدَةِ وَيَداها تَسْندانِ رَأسَها ، وكانَتْ تَنْتَفِضُ كَوَرَقَةِ شَجَرٍ .

قالَ هيثكليف وَهُوَ يَلْتَقِطُ المِفتاحَ : « لَقَدْ رَأيْتِ أنَّني أعْرِفُ كَيْفَ أعاقِبُ الصِّغارَ. اِذْهَبي إلى لنتون الآنَ وَابْكي كما تَشائينَ ، فَغَداً سَأصْبِحُ والِدَكِ – الوالِدَ الوَحيدَ لَكِ في الحَياةِ بَعْدَ أيّامٍ قَلائِلَ . سَوْفَ أنْزِلُ بِكِ عُقوباتٍ كَثيرَةً ، وَأرى أنَّكِ تَسْتَطيعينَ تَحَمُّلَ الكَثيرِ.»

وَانْدَفَعَتْ كاثي نَحْوي بَدَلاً مِنْ أنْ تَذْهَبَ إلى لِنْتون ، وَكانَ هُوَ يَجْلِسُ في رُكْنٍ مِنْ أريكَةٍ هادِئاً كَفَأرٍ ، وَأظُنُّ أنَّهُ كانَ سَعيداً أن

يَرى العِقابَ يَنْزِلُ عَلى شَخْصٍ آخَرَ غَيْرِه .

قامَ هيثكليف بإعْدادِ الشّايِ وَصَبِّهِ .

قالَ : « اِشْرَبي الشّايَ ؛ فَلَيْسَ بِهِ مِنْ سُمٍّ . سَوْفَ أذْهَبُ لأبْحَثَ عَنْ جَوادَيْكُما .» وَتَرَكَنا وَأغْلَقَ البابَ خَلْفَهُ بِالقُفْلِ .

كانَ أوَّلُ ما فَكَّرْنا فيهِ هُوَ أنْ نَجِدَ وَسيلَةً لِلْخُروجِ ، وَلكِنْ كانَتْ كُلُّ الأبْوابِ مُغْلَقَةً ، أمّا النَّوافِذُ فَكانَتْ أضْيَقَ مِنْ أنْ تَسْمَحَ لَنا بِالنَّفاذِ مِنْها . وَهكَذا أصْبَحْنا أسيرَتَيْنِ في مُرْتَفَعاتِ وَذَرِنغ .

الفصل الحادي والعشرون

صِحْتُ : « إنَّكَ تَعْلَمُ ، يا لنتون ، ماذا يَنْوي والِدُكَ الشَّيْطانيُّ النَّزْعَةِ أنْ يَفْعَلَ ، فَعَلَيْكَ أنْ تُخْبِرَنا بِهِ .»

قالَ : « أعْطيني قَليلاً مِنَ الشّايِ ، ثُمَّ أخْبِرُكِ .»

أعْطَتْهُ كاثي فِنْجاناً مِنَ الشّايِ فَقالَ : « لَقَدْ تَساقَطَتْ دُموعُكِ في الفِنْجانِ ، يا كاثي ، فَلَنْ أشْرَبَهُ . أعْطيني بَدَلاً مِنْهُ.» فَدَفَعَتْ بِفِنْجانٍ آخَرَ إلَيْهِ .

شَعَرْتُ بِغَضَبٍ حينَ رَأَيْتُهُ عَلى هَذِهِ الحالَةِ مِنَ الهُدوءِ ؛ إذْ لَمْ يَخْشَ عَلى نَفْسِهِ ؛ فَقَدْ زالَ عَنْهُ خَوْفُهُ الشَّديدُ حالَما دَخَلْنا المَنْزِلَ . وَأغْلَبُ ظَنّي أنَّهُ صَدَرَ إلَيْهِ أمْرٌ بِأن يَحْتالَ عَلَيْنا لِنَدْخُلَ إلى المَنْزِلِ ، وَحينَ نَجَحَ في ذَلِكَ أصْبَحَ بِمَنْجاةٍ مِنْ غَضَبِ أبيهِ .

قالَ لنتون وَهُوَ يَشْرَبُ الشّايَ : « أبي يُريدُنا أنْ نَتَزَوَّجَ ، وَهُوَ

يَعْرِفُ أنَّ أباكِ لَنْ يُوافِقَ عَلى زَواجِنا الآنَ . وَيَخْشى أبي أنْ أموتَ إذا كانَ عَلَيْنا أنْ نَنْتَظِرَ ؛ وَلِذا فَسَوْفَ نَتَزَوَّجُ في الصَّباحِ ، وَعَلَيْكِ أنْ تَبْقَيْ هُنا طَوالَ اللَّيْلِ .»

صاحَتْ كاثي : « أنْتَظِرُ طَوالَ اللَّيْلِ ؟ لا ! سَوْفَ أحْرِقُ البابَ ، وَسَأخْرُجُ .» وَتَحَرَّكَتْ نَحْوَ النّارِ ، وَخافَ لنتون عَلى نَفْسِهِ مَرَّةً أخْرى وَبَدَأَ يَبْكي: « أَلا تَتَزَوَّجينَني وَتُنْقِذينَني؟ كاثي ، يا أعَزَّ النّاسِ إلَيَّ ، يَجِبُ ألا تَذْهَبي وَتَتْرُكيني . يَجِبُ أنْ تُطيعي أبي !»

في هَذِهِ اللَّحْظَةِ عادَ هيثكليف وَقالَ : « إنَّ جَوادَيْكُما قَدْ عادا إلى المَنْزِلِ .»

صاحَتْ كاثي : « دَعْني ، يا سَيِّدُ هيثكليف ، أرْجِعُ لِمَنْزِلي ، وَ أعِدُكَ أنْ أتَزَوَّجَ لنتون ، وَأبي كَذَلِكَ يُحِبُّ أنْ أتَزَوَّجَهُ ، وَأنا أحِبُّهُ . لِماذا تُريدُ أنْ تُرْغِمَني عَلى فِعْلِ شَيْءٍ أنا أريدُ أنْ أفْعَلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي؟ وَلَكِنْ إذا مَكَثْتُ طَوالَ اللَّيْلِ هُنا فَإنَّ أبي سَيَشْعُرُ بِتَعاسَةٍ ، فَكَيْفَ أكونُ أنا سَبَباً في تَعاسَتِهِ وَهُوَ ... ؟»

قاطَعَني هيثكليف قائِلاً : « إنّي لأشْعُرُ بِالرِّضا الكامِلِ حينَ أفَكِّرُ أنَّ أباكِ سَيَكونُ تَعِساً ، وَسَوْفَ أعْمَلُ عَلى أنْ تَفي بِوَعْدِكِ بِالزَّواجِ مِنْ لنتون ؛ وَلَنْ تُغادِري هَذا المَنْزِلَ ما لَمْ تَفْعَلي ذَلِكَ .»

« ابْعَثْ بإيلين إذَنْ لِتُخْبِرَهُ بِأَنَّني بِخَيْرٍ ! سَوْفَ يَظُنُّ ، يا إيلين ، أَنَّنا في عِدادِ المَفْقودينَ . تُرى مَاذا نَفْعَلُ ؟»

كانَ هيثكليف رَجُلاً بِلا قَلْبٍ وَلا رَحْمَةٍ ؛ فَقَدْ حَبَسَنا أَرْبَعَةَ أَيّامٍ في مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ . وَتَزَوَّجَتْ كاثي بِلنتون ، وَمَعَ ذَلِكَ بَقينا حَبيسَتَيْنِ . وَلَمْ أُشاهِدِ الزَّواجَ ، فَقَدْ أُغْلِقَتْ عَلَيَّ غُرْفَةُ زيلاه ، وَكانَ هيرتون يُحْضِرُ لَنا الطَّعامَ مَرَّةً كُلَّ يَوْمٍ ، وَما كُنْتُ لأَرى شَخْصاً آخَرَ غَيْرَهُ ، وَ واضِحٌ أَنَّ زيلاه وَجوزيف قَدْ أُبْعِدا عَمْداً .

وَلَمْ يُطْلَقْ سَراحُنا إلّا في أُمْسِيَةِ اليَوْمِ الخامِسِ ، فَأَسْرَعْنا إلى غرانْغ وَنَحْنُ نَخْشى أَنْ يَكونَ إدغار قَدْ ماتَ .

وَصَلْنا وَأَنْفاسُنا تَتَقَطَّعُ وَ وُجوهُنا ذابِلَةٌ ، وَحَيّانا الخَدَمُ بِدَهْشَةٍ وَفَرَحٍ عَظيمَيْنِ ، وَلَمْ يَكُنْ سَيِّدُ البَيْتِ قَدْ ماتَ بَعْدُ كَما أَخْبَرَنا الخَدَمُ .

وَقَدْ قَصَدْتُ إلى غُرْفَتِهِ أَوَّلاً حَتّى أُعِدَّهُ لِعَوْدَةِ كاثي ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ تَغَيَّرَ كَثيراً في هَذِهِ الأَيّامِ القَليلَةِ ، وَبَدا ضَئيلاً عِنْدَما كانَ راقِداً في انْتِظارِ المَوْتِ ، أَصْغَرَ كَثيراً مِنْ سِنِّ التّاسِعَةِ وَالثَّلاثينَ .

هَمَسْتُ لَهُ : « إنَّ كاثي قادِمَةٌ ، يا سَيِّدي .»

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْضُرَ لِقاءَهُما ، فَوَقَفْتُ خارِجَ بابِ غُرْفَةِ النَّوْمِ

لِمُدَّةِ رُبْعِ السّاعَةِ قَبْلَ أَنْ أَدْخُلَ . كُلُّ شَيْءٍ كانَ ساكِناً : كانَ حُزْنُ كاثي صامِتاً كَفَرَحِ أَبيها .

قَبَّلَ وَجْهَها وَهَمَسَ : « إنّي ذاهِبٌ إلى كاثرين حَبيبَتي – وَيَوْماً ما سَتَأْتينَ إلَيْنا ، يا صَغيرَتي العَزيزَةَ .»

وَلَمْ يَتَحَرَّكْ أَوْ يَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَاسْتَمَرَّتْ عَيْناهُ مُثَبَّتَتَيْنِ في وَجْهِها وَالفَرَحُ يَمْلَؤُهُما ، إلى أَنْ تَوَقَّفَ عَنِ التَّنَفُّسِ وَرَحَلَتْ روحُهُ عَنْ جِسْمِهِ . وَلا نَسْتَطيعُ أَنْ نُحَدِّدَ لَحْظَةَ وَفاتِهِ بِدِقَّةٍ : فَقَدْ رَحَلَ بِهُدوءٍ .

الفصل الثاني والعشرون

قُمْنا بِدَفْنِ إدْغار لِنْتون بِجوارِ زَوْجَتِه ، كَما أرادَ . وَأصْبَحَ ثْرَشْكروس غرانْغ مِلْكاً لِلِنْتون هيثكليف ، ولَكِنَّ والِدَهُ كانَ المالِكَ الحَقيقِيَّ . وَقَدْ أصْدَرَ أوامِرَهُ بِطَرْدِ كُلِّ الخَدَمِ بِاسْتِثْنائي .

وَجاءَ إلى ثْرَشْكروس غرانْغ في المَساء عَقِبَ دَفْنِ إدغار ، وَقَدْ دَخَلَ إلى المَنْزِلِ مُباشَرَةً بِدونِ أنْ يَقْرَعَ البابَ ، فَقَدْ أصْبَحَ الآنَ هُوَ سَيِّدَ المَنْزِلِ . وَنَهَضَتْ كاثي بِسُرْعَةٍ تُريدُ أنْ تَخْرُجَ مِنَ الغُرْفَةِ ، فَأمْسَكَ بِذِراعِها قائِلاً : « تَوَقَّفي ؛ فَلَيْسَ ثَمَّ هُروبٌ بَعْدَ الآنَ ! فَلَقَدْ جِئْتُ لأعيدَكِ إلى البَيْتِ .»

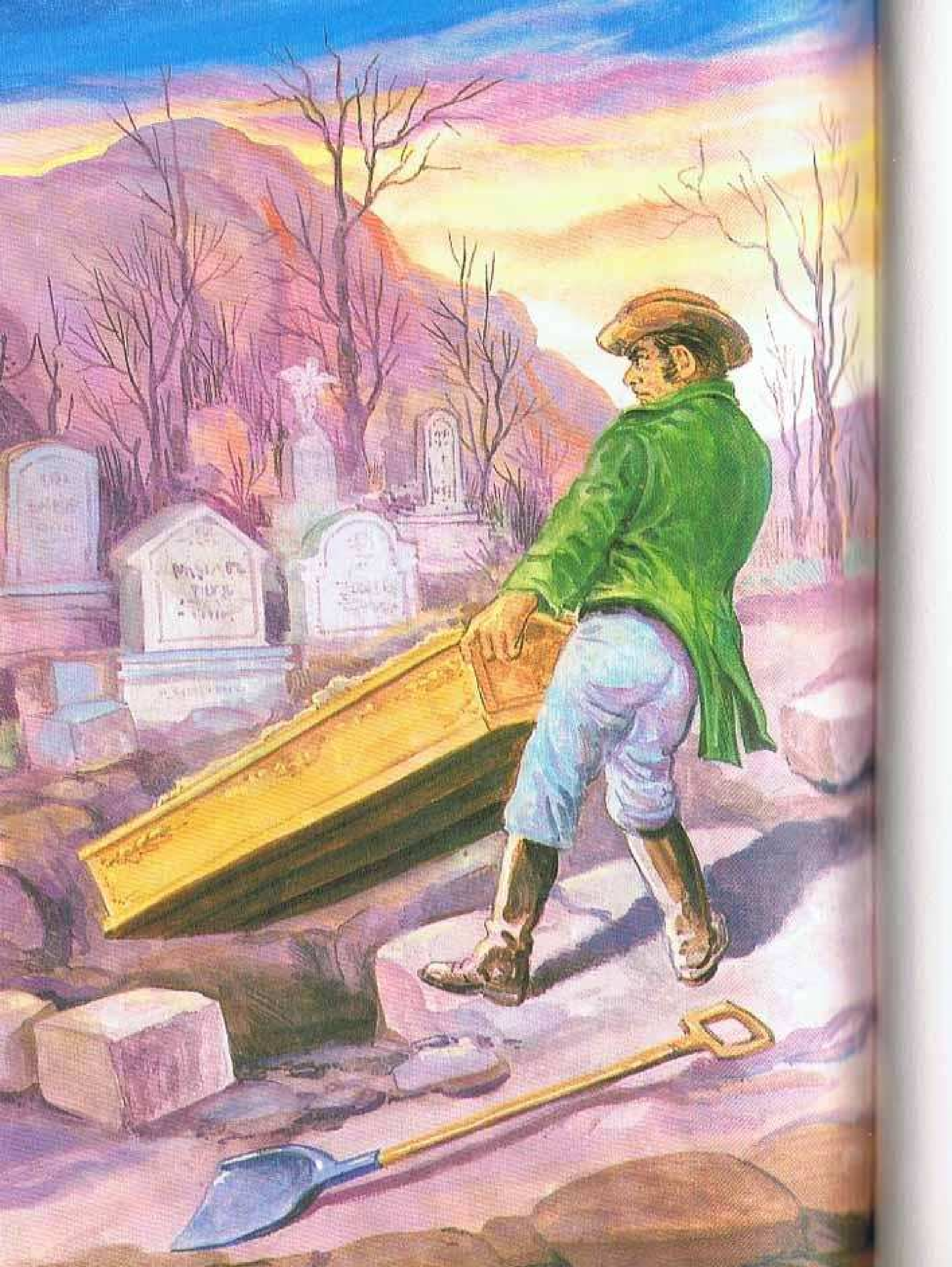
اِلْتَمَسْتُ مِنْهُ أنْ يَتْرُكَ كاثي في هَذا البَيْتِ وَيَبْعَثَ بِلِنتون إلَيْها ، وَأضَفْتُ : « بِما أنَّكَ تَبْغَضُ الاثْنَيْنِ ، فَلَنْ تَشْعُرَ بِأسَفٍ عَلى فِراقِهِما .»

أجابَ : « إنَّني أُريدُ أنْ أُؤَجِّرَ المَنْزِلَ لِشَخْصٍ سَيَدْفَعُ إيجاراً لِسُكْناهُ فيهِ ، وَبِالطَّبْعِ أُريدُ أنْ يَعيشَ أوْلادي حَوْلي . أسْرِعي ، يا كاثي ، وَأحْضِري حاجِياتِكِ .»

وَبَيْنَما كانَتْ كاثي تَسْتَعِدُّ جالَ بِبَصَرِهِ في الغُرْفَةِ ، لَقَدْ كانَتْ هِيَ نَفْسَ الغُرْفَةِ الَّتي دَخَلَ فيها كَزائِرٍ مُنْذُ ثَماني عَشْرَةَ سَنَةً خَلَتْ ، وَكانَتْ صورَةٌ فاخِرَةٌ لِكاثرين لنتون مُعَلَّقَةً عَلى الجِدارِ ، تَفَحَّصَها ثُمَّ قالَ :

« سَوْفَ آخُذُها إلى البَيْتِ لا لأنَّني أحْتاجُ إلَيْها وَلَكِنْ ...» ثُمَّ انْفَرَجَتْ شَفَتاهُ عَنِ ابْتِسامَةٍ غَريبَةٍ : « سَوْفَ أُخْبِرُكِ عَمّا فَعَلْتُ بِالأمْسِ . ذَهَبْتُ إلى المَقابِرِ وَرَأيْتُ الحَفّارَ يَحْفِرُ قَبْراً لإدغار بِجِوارِ قَبْرِ كاثرين (هُناكَ غُرْفَةٌ لي في الجانِبِ الآخَرِ !) وَطَلَبْتُ مِنْهُ أنْ يُزيحَ التُّرابَ عَنِ التّابوتِ الَّذي يَضُمُّ جُثَّتَها ، وَفَتَحْتُهُ وَرَأيْتُ وَجْهَها مَرَّةً أخْرى – لا يَزالُ وَجْهُها كَما هُوَ ! وَقَدْ فَكَكْتُ جانِباً مِنَ التّابوتِ ، لَيْسَ جانِبَ لنتون ... تَبّاً لَهُ ! وَأعْطَيْتُ الحَفّارَ بَعْضَ النُّقودِ وَطَلَبْتُ مِنْهُ أنْ يَنْزِعَ ذَلِكَ الجانِبَ بَعيداً عِنْدَما أُدْفَنُ أنا هُناكَ ، وَيَنْزِعَ جانِبَ تابوتي أيْضاً وَهَكَذا سَوْفَ نَنامُ في القَبْرِ مَعاً .»

صِحْتُ : « يا لَكَ مِنْ شِرّيرٍ ، يا سَيِّدُ هيثكليف ! أ لَمْ تَشْعُرْ



بِخِزْيٍ وَأَنْتَ تُزْعِجُ المَوْتى في قُبورِهِمْ ؟»

« أُزْعِجُها ؟ لا ! لَقَدْ أَزْعَجَتْني هِيَ لَيْلَ نَهارَ خِلالَ ثَمانِيَةَ عَشَرَ عاماً حَتّى اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ ، وَفيها شَعَرْتُ بِسَلامٍ وَاطْمِئْنانٍ .»

اِسْتَأْنَفَ حَديثَهُ قائِلاً : « أَنْتِ تَعْلَمينَ ، يا إيلين ، أَنَّني فَزِعْتُ كُلَّ الفَزَعِ حينَ وَدَّعَتِ الحَياةَ ، وَطَلَبْتُ مِنْها أَنْ تَعودَ إِلَيَّ ؛ فَأَنا أَعْتَقِدُ اعْتِقاداً راسِخاً في الأَشْباحِ ؛ فَفي أُمْسِيَةِ اليَوْمِ الَّذي دُفِنَتْ فيهِ ذَهَبْتُ إِلى المَقابِرِ وَقُلْتُ لِنَفْسي : « سَوْفَ أَحْتَضِنُها بَيْنَ ذِراعَيَّ مَرَّةً أُخْرى .»

« وَأَحْضَرْتُ مِجْرَفَةً وَبَدَأْتُ الحَفْرَ بِكُلِّ قُوايَ ، حَتّى اصْطَدَمَتِ المِجْرَفَةُ بِتابوتِها ، فَبَدَأْتُ أَسْتَعْمِلُ يَدَيَّ . وَ وَصَلْتُ تَقْريباً إِلى غِطاءِ التّابوتِ ، وَنَزَعْتُهُ فَسَمِعْتُ إِذْ ذاكَ صَرْخَةً خافِتَةً مِنْ فَوْقي عَلى حافَةِ القَبْرِ .

« وَكُنْتُ أُدْرِكُ أَنَّهُ ما مِنْ شَيْءٍ بِجِواري ، وَلكِنَّني سَمِعْتُ الصَّرْخَةَ مَرَّةً أُخْرى بِالقُرْبِ مِنْ أُذُني . وَبَدا لي أَنَّ نَفَساً دافِئاً يَهُبُّ في وَجْهي ، وَشَعَرْتُ شُعوراً جازِماً بِأَنَّ كاثرين كانَتْ هُناكَ لا في القَبْرِ ، بَلْ بِجِواري ، فَتَوَقَّفْتُ عَنْ عَمَلي الشّاقِّ المُخيفِ وَنَظَرْتُ إِلى أَعْلى وَشَعَرْتُ بِالرّاحَةِ ، الرّاحَةِ التّامَّةِ ، وَقَدْ ظَلَّتْ هِيَ مَعي

إلى أن ملأتُ القبرَ مرّةً أخرى بالتُّرابِ ثُمَّ اتَّجهتْ بي نحوَ المنْزلِ ،
وكُنْتُ على يقينٍ أنّي سوفَ أراها في المنْزلِ .» ثُمَّ توقّفَ عنِ
الكلامِ قليلاً .

« وأسرعْتُ إلى غُرْفتِها ، وشعرْتُ أنّها بجواري ، وكِدْتُ أنْ
أراها ، ومعَ ذلكَ لمْ أستطعْ ؛ فقدْ كانتْ شيْطاناً بالنِّسْبةِ لي كما
كانتْ غالباً في حياتِها ! وحينَ كُنْتُ أجلسُ في البيْتِ معَ هيرتون،
بدا لي أنّني إذا خرجْتُ منْهُ فسوْفَ أقابِلُها . وحينَ كُنْتُ أخرجُ
إلى الأراضي القفرِ كُنْتُ إخالُ أنّي سألْقاها وهِيَ مُقْبِلةٌ إلى المنْزلِ،
ولَمْ أكُنْ أطيقُ النّوْمَ في غُرْفتِها . وحينَ كُنْتُ أغمضُ عيْنيَّ ،
كانَتْ إمّا خارجَ النّافذةِ وإمّا في الطّريقِ إلى دُخولِ الغُرْفةِ ، أوْ
مُسْندةً رأسَها على الوِسادةِ بجواري . وكانَ عليَّ أنْ أفتحَ عيْنيَّ
لأنظُرَ هُنا أوْ هُناكَ مُترقّباً إيّاها ؛ ومِنْ ثَمَّ فقدْ كُنْتُ أفتحُ عيْنيَّ ثُمَّ
أغمضُهُما مِئاتِ المرّاتِ في كُلِّ ليْلةٍ ، وكُنْتُ لا أرى شيْئاً. والآنَ ،
مُنْذُ أنْ رأيْتُ وجْهَها مرّةً أخرى ، أصبحْتُ أشْعُرُ بارْتياحٍ أكْثَرَ مِن
ذي قبْلُ .»

كانَ يفْحصُ صورةَ كاثرين مرّةً أخرى حينَ دخلَتْ كاثي
البيْتَ ، وأخبرَتْهُ بأنَّ جوادَها سوْفَ يكونُ جاهزاً في خلالِ دقيقةٍ

واحِدةٍ .

قالَ لي : « ابْعثي بالصّورةِ إليَّ غداً . أمّا أنتِ ، يا كاثي ،
فيُمكِنُكِ أنْ تستغْني عن جوادِكِ ، لأنّكِ لنْ تحتاجي إلى جيادٍ في
مُرْتفعاتِ وذرِنْغ ؛ فسوْفَ تكفي قدماكِ . هيّا بِنا .»

« وداعاً ، يا إيلين .»

هكذا همسَتْ لي سيّدتي الصّغيرةُ العزيزةُ ، وحينَ قبّلَتْني كانَتْ
شفتاها بارِدتَيْنِ كالثّلْجِ .

قالَتْ : « أرْجو أنْ تأتي لِزيارَتي ، يا إيلين .»

قالَ هيثكليف : « لا ، لا تأتي ، يا إيلين ؛ فأنا لا أحِبُّ أنْ يأتِيَ
الفُضوليّونَ إلى منْزِلي !»

وخرجَتْ كاثي معَ أبيها الجديدِ .

الفصل الثالث والعشرون

ماتَ إدغار لنتون في شَهْرِ أغسطس (آب) ، أيْ مُنْذُ خَمْسَةِ أشْهُرٍ ، وَنَحْنُ الآن في شَهْرِ يناير (كانون الثاني) . وَلَمْ أرَ كاثي مُنْذُ غادَرَتْنا ، وَقَدْ قُمْتُ بِزِيارَةٍ لِلْمُرْتَفَعاتِ ، وَلٰكِنَّ جوزيف وَقَفَ أمامَ البَيْتِ وَلَمْ يَسْمَحْ لي بِالدُّخولِ .

وَ ذاتَ يَوْمٍ قابَلْتُ زيلاه في القَرْيَةِ ، وَدَفَعْتُها لِتَتَحَدَّثَ عَنْ كاثي . وَتَبَيَّنَ لي أنَّها تَعْتَبِرُ كاثي مُتَعَجْرِفَةً ، وَأنَّها لاتُحِبُّها . وَلٰكِنَّ زيلاه امْرَأةٌ أنانيَّةٌ وَغَبِيَّةٌ ، فَقَدْ أضْمَرَتِ الكَراهِيَةَ لِسَيِّدَتي الشّابَّةِ في نَفْسِ الأمْسِيَةِ الَّتي وَصَلَتْ فيها إلى المُرْتَفَعاتِ . وَأخْبَرَتْني أنَّ كاثي قَدْ صَعِدَتْ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ دونَ أنْ تُحَيِّيَ زيلاه وَجوزيف ، وَأغْلَقَتْ على نَفْسِها غُرْفَةَ لنتون ، وَقَدْ ظَلَّتْ فيها إلى الصَّباحِ . وَبَعْدَئِذٍ حينَ كانَ هيثكليف وَهيرتون يَتَناوَلانِ طَعامَ الإفْطارِ نَزَلَتْ وَهِيَ في حالَةِ ذُعْرٍ ، وَسَألَتْ إذا كانَ هيثكليف

يُمْكِنُهُ أنْ يَبْعَثَ مَنْ يَأتي بِطَبيبٍ لأنَّ لنتون كانَ مَريضاً .

أجابَ هيثكليف : « إنَّنا نَعْلَمُ ذَلِكَ ، وَلٰكِنَّ حَياتَهُ لا تُساوي قُلامَةَ ظُفْرٍ ، وَلَنْ أُنْفِقَ مِليماً واحِداً عَلَيْهِ .»

كانَ على كاثي أنْ تَرْعى لنتون بِنَفْسِها رِعايَةً كامِلَةً ، وَلَمْ تَكُنْ لِتَأخُذَ قِسْطاً مِنَ الرّاحَةِ ، كَما لاحَظَتْ ذَلِكَ الخادِمَةُ زيلاه مِنْ وَجْهِها الشّاحِبِ وَعَيْنَيْها الذّابِلَتَيْنِ الثَّقيلَتَيْنِ .

وَ ذاتَ لَيْلَةٍ أتَتْ لِغُرْفَةِ زيلاه وَقالَتْ : « أخْبِري هيثكليف أنَّ ابْنَهُ في طَريقِهِ لِلْمَوْتِ ، وَأنا جِدُّ واثِقَةٍ وَمُتَأكِّدَةٍ هَذِهِ المَرَّةَ مِنْ ذَلِكَ . انْهَضي في الحالِ ، وَاذْهَبي وَأخْبِريهِ .»

لَمْ تَنْهَضْ زيلاه ، وَعادَتْ لِلنَّوْمِ مَرَّةً أخْرى ، وَلٰكِنْ بَعْدَ مُضِيِّ نِصْفِ ساعَةٍ دُقَّ الجَرَسُ بِعُنْفٍ فَأيْقَظَ هيثكليف ، الَّذي دَعا زيلاه لِتَرى ما الخَطْبُ ، فَأفْضَتْ إلَيْهِ بِرِسالَةِ كاثي ، فَراحَ يَسُبُّ وَيَشْتُمُ ، ثُمَّ أشْعَلَ شَمْعَةً وَذَهَبَ بِها إلى غُرْفَتِهِما .

كانَتْ كاثي تَجْلِسُ بِجِوارِ الفِراشِ وَيَداها مُطْبِقَتانِ حَوْلَ رُكْبَتَيْها ، فَقَرَّبَ هيثكليف النّورَ مِنْ وَجْهِ لنتون وَنَظَرَ إلَيْهِ وَلَمَسَهُ ، ثُمَّ قالَ : « وَالآنَ ، يا كاثي ، بِماذا تَشْعُرينَ ؟» فَلَمْ تُجِبْ بِشَيْءٍ.

أعادَ السُّؤالَ : « بِماذا تَشْعُرينَ ، يا كاثي ؟»

أجابَتْ : « إنَّهُ في مَأمَنٍ ، وأنا حُرَّة ، ويَجِبُ أنْ أشْعُرَ أنّي بِخَيْرٍ ، ولَكِنَّكَ تَرَكْتَني فَتْرَةً طَويلَةً أُصارِعُ المَوْتَ وَحْدي ، وكُنْتُ لا أشْعُرُ إلّا بِالمَوْتِ ، ولا أرى سِواهُ .»

قالَتْ إنَّها كانَتْ مَريضَةً في اليَوْمِ التّالي ، وَظَلَّتْ في غُرْفَةِ نَوْمِها لِمُدَّةِ أُسْبوعَيْنِ . وكانَتْ زيلاه تزورُها مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ لِتُقَدِّمَ لَها ما تَحْتاجُهُ ، ولَمْ يَقْتَرِبْ مِنْها أحَدٌ غَيْرُها . وأخيراً اضْطُرَّتْ مِنَ البَرْدِ إلى النُّزولِ في الطّابَقِ السُّفْلِيِّ ، وكانَ ذَلِكَ يَوْمَ سَبْتٍ بَعْدَ الظَّهيرَة، وكانَ هيرتون وزيلاه في غُرْفَةِ المعيشَةِ ، وكانَ هيثكليف في الخارِجِ ، وقَدْ كانَتْ وَهِيَ تَدْخُلُ إلى الطّابَقِ السُّفْلِيِّ تَمْشي في كِبْرياءَ كأنَّها إحْدى الأميراتِ . وقَدَّمَ لَها هيرتون وزيلاه كِلاهُما مَقْعَداً ، ولَكِنَّها رَفَضَتْهُ بِبُرودٍ ، وأوَتْ لِوَحْدِها إلى مَقْعَدٍ ، وَقَدْ لاحَظَتْ بَعْضَ الكُتُبِ عَلى أحَدِ الرُّفوفِ وَبَدَأَتْ تُقَلِّبُ صَفَحاتِ أحَدِها .

وكانَ هيرتون يَقِفُ خَلْفَها وَهُوَ يَتَطَلَّعُ إلى صُوَرِ الكِتابِ ، ثُمَّ بَدَأَ يُحَمْلِقُ فيها بَدَلاً مِنَ الكِتابِ ، وَتَسَمَّرَتْ عَيْناهُ عَلى شَعْرِها الكَثيفِ الأصْفَرِ الحَريرِيِّ الذَّهَبِيِّ ، وَأخيراً مَدَّ إحْدى يَدَيْهِ وَتَحَسَّسَ شَعْرَها بِخِفَّةٍ كَخِفَّةِ العُصْفورَةِ .

قَفَزَتْ مُلْتَفِتَةً وَراءَها ، وَصاحَتْ : « ابْتَعِدْ في الحالِ . كَيْفَ

تَجْرُؤُ على أنْ تَمَسَّني ؟»

بَدا هيرتون كَالأَبْلَهِ ، وَصَمَتَ لِمُدَّةِ نِصْفِ ساعَةٍ ثُمَّ هَمَسَ لِزيلاه : « أرْجو أنْ تَطْلُبي إلَيْها أنْ تَقْرَأَ لَنا ، يا زيلاه ، فَإنّي أُحِبُّ أنْ أسْتَمِعَ لَها ! وَلَكِنْ لا تُخْبِريها بِأنّي أُريدُ ذَلِكَ .»

قالَت لَها زيلاه : « إنَّ هيرتون يُريدُ مِنْكِ أنْ تَقْرَئي لَنا ، يا سَيِّدَتي .»

بَدا الغَضَبُ عَلى كاثي وَهِيَ تَقولُ : « لا شَيْءَ عِنْدي يُمْكِنُ أنْ أقولَهُ لأيٍّ مِنْكُما ؛ فَعِنْدَما كُنْتُ وَحيدَةً وَفي حاجَةٍ إلى المُساعَدَةِ لَمْ يَقْتَرِبْ أيٌّ مِنْكُما مِنّي ، وَلِذا فأنا لا أُريدُ عَطْفَكُما الآنَ !»

« وَلَكِنَّني طَلَبْتُ مِنْ هيثكليف أنْ يَسْمَحَ لي بِأنْ ...» هَكَذا بَدَأَ هيرتون كَلامَهُ .

قاطَعَتْهُ كاثي قائِلَةً : « اُصْمُتْ ! سَأذْهَبُ إلى الخارِجِ أوْ إلى أيِّ مَكانٍ آخَرَ حَتّى لا أسْمَعَ صَوْتَكَ الغَبِيَّ يَرِنُّ في أُذُني .»

قالَ هيرتون وَهُوَ يَحْبِسُ أنْفاسَهُ : « فَلْتَذْهَبي إلى الجَحيمِ إذَنْ !» وَكانَ في مَوْقِفِهِ هَذا مُعْتَدًّا بِكِبْرِيائِهِ مِثْلَ كاثي ، وَقَدْ ظَلَّ كِلاهُما عَدُوَّيْنِ طَوالَ الشُّهورِ الَّتي أعْقَبَتْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ لِكاثي مِنْ صَديقٍ واحِدٍ في المَنْزِلِ .

الفصل الرابع والعشرون

عَثَرَ هيثكليف في شَهْرِ نوفمبر (تَشْرين الثّاني) على شَخْصٍ يَسْتأجِرُ ثْرشْكروس غرانْغ ، وكانَ شابًّا يُدْعى لوكْوُد ، اسْتأجَرَ المَنْزِلَ لِمُدَّةِ عامٍ حَسْبَما ظَنَنْتُ ، وَأمّا أنا فَسأظَلُّ مُديرَةَ المَنْزِلِ ، وَسَوْفَ يَكونُ مَعي بَعْضُ الخَدَمِ أيْضاً .

كانَ السَّيِّدُ لوكْوُد شابًّا لَطيفًا مِنْ جَنوبِ إنْجِلْترا ، وَقَدْ أخْبَرَني بِأنَّهُ اخْتارَ ذَلِكَ المَكانَ المُوحِشَ لِيَتَمَتَّعَ بِالهُدوءِ ، وَلِيَعيشَ وَحيداً في المَنْزِلِ ، وَلكِنّي أنا أظُنُّ أنَّ حَياةً دونَ رَفيقٍ أقَلُّ مُتْعَةً مِمّا كانَ يَتَوَقَّعُ .

وَقَدْ راقَ السَّيِّدَ لوكْوُد أوَّلاً جَمالُ الرّيفِ ، وَلكِنْ سُرْعانَ ما سَقَطَ الثَّلْجُ مُبَكِّرًا عَنْ عادَتِهِ عَقِبَ وُصولِهِ . وَبَعْدَ الظَّهيرَةِ مِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ خَرَجَ لِلتَّنَزُّهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَقَدْ أصابَنا جَميعاً

قَلَقٌ عَلَيْهِ ظَنًّا مِنّا أنَّهُ ضَلَّ السَّبيلَ وَسَطَ الأراضي القَفْرِ ، وَلَكِنَّهُ عادَ في ظَهيرَةِ اليَوْمِ التّالي وَمَلابِسُهُ مُبْتَلَّةٌ تَماماً .

قالَ إنَّهُ كانَ قَدْ ذَهَبَ لِزِيارَةِ هيثكليف في مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنغ ، وَقَدْ أرْغَمَهُ سُقوطُ الثَّلْجِ عَلى قَضاءِ اللَّيْلِ هُناكَ ، وَقَدْ عادَ بِهِ هيثكليف إلى بَوّاباتِ ثْرشْكروس غرانْغ أثْناءَ عَوْدَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ ضَلَّ الطَّريقَ في ثَلْجِ المُنْتَزَهِ ، وَبَدا مُضْطَرِباً بِشَكْلٍ عَجيبٍ . وَجالَ بِخاطِري أنَّ سَبَبَ هَذا الاضْطِرابِ كانَ نَتيجَةً لِزِيارَتِهِ لِمُرْتَفَعاتِ وَذِرِنغ .

سَأَلْتُ عَنْ أحْوالِ كاثي فَقالَ إنَّها كانَتْ في خَيْرِ حالٍ ، وَغايَةً في الجَمالِ ، وَلَكِنَّها لَمْ تَكُنْ سَعيدَةً .

وَفي اليَوْمِ التّالي خَرَّ لوكْوُد مَريضاً ، وَكانَ عَلَيَّ أنْ أدْعُوَ لَهُ طَبيباً . وَكانَ قَدْ أُصيبَ بِنَزْلَةِ بَرْدٍ شَديدَةٍ وَحُمّى ، الأمْرُ الَّذي اقْتَضاهُ أنْ يَظَلَّ في غُرْفَةِ النَّوْمِ لِمُدَّةِ أرْبَعَةِ أسابيعَ . وَلَمّا كانَ هَذا المِسْكينُ لا رَفيقَ مَعَهُ ، فَقَدْ طَلَبَ مِنّي أنْ أجْلِسَ إلى جِوارِهِ في بَعْضِ الأحايينِ ، وَأتَحَدَّثَ إلَيْهِ . وَبَدا لي أنَّهُ مُهْتَمٌّ بِهيثكليف وَعائِلَتِهِ . وَدَعاني لِكَيْ أُفْضِيَ إلَيْهِ بِقِصَّتِهِمْ جَميعاً ، وَلَقَدْ كَتَبْتُ هَذِهِ القِصَّةَ الآنَ كَما قَصَصْتُها عَلَيْهِ .

لا أدْري إنْ كانَ قَدْ قُيِّضَ لِلوكْوُد أنْ يَقومَ بِدَوْرٍ في هَذِهِ القِصَّةِ

بِنَفْسِهِ . وَكانَ يُبْدي اهْتِماماً شَديداً حينَ كُنْتُ أَتَحَدَّثُ عَنْ كاثي ، وَطَلَبَ مِنّي أَنْ آتِيَ بِصورَتِها مِنَ المَكْتَبَةِ ، وَأَنْ أُعَلِّقَها في غُرْفَةِ نَوْمِهِ. إِنَّها لَفَتاةٌ رائِعَةُ الجَمالِ ، وَما مِنْ إِنْسانٍ يَراها إِلاّ وَيُحِبُّها !

وَلكِنَّ كاثي لَمْ تُبْدِ أَيَّ شُعورٍ بِالصَّداقَةِ لِلوكْوُد ، وَقَدْ أَخْبَرَني أَنَّها تَبْدو صَلِفَةً وَيُمازِجُها شُعورٌ بِالاحْتِقارِ لِلغَيْرِ ، وَبِالإِضافَةِ لِذَلِكَ فَهِيَ سَليطَةُ اللِّسانِ وَعَيْناها تُشِعّانِ بُرودَةً .

وَأَخيراً تَحَسَّنَتْ صِحَّةُ لوكْوُد ، وَقالَ إِنَّهُ سَيَذْهَبُ راكِبًا إِلى المُرْتَفَعاتِ مَرَّةً أُخْرى ، فَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنّي رِسالَةً لِتَسْليمِها إِلى كاثي . وَحينَ عادَ مِنَ المُرْتَفَعاتِ أَخْبَرَني بِقِصَّةِ زِيارَتِهِ ، وَقَدْ عَرَفْتُ مِنْهُ أَنَّ كاثي وَهيرتون تَشاجَرا حينَ كانَ هُناكَ .

قَرَأَتْ كاثي رِسالَتي بِلَهْفَةٍ ، وَلكِنَّها قالَتْ إِنَّها لا تَسْتَطيعُ الرَّدَّ عَلَيْها ، فَلَمْ يَكُنْ لَدَيْها أَدَواتٌ لِلْكِتابَةِ ، وَلا حَتّى كِتابٌ تَنْتَزِعُ مِنْهُ صَفْحَةً لِتَكْتُبَ عَلَيْها .

صاحَ لوكْوُد : « لَمْ يَكُنْ هُناكَ كُتُبٌ ! كَيْفَ يُمْكِنُ العَيْشُ هُناكَ بِدونِ كُتُبٍ ؟»

قالَتْ كاثي : « كُنْتُ دائِماً أَقْرَأُ الكُتُبَ ما دامَتْ مَعي ، وَلكِنَّ هيثكليف لا يَقْرَأُ أَبَداً ، وَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يُتْلِفَ كُتُبي . إِنَّني لَمْ أَرَ كِتاباً

واحِداً مُنْذُ أَسابيعَ – بِاسْتِثْناءِ مَرَّةٍ عَثَرْتُ فيها عَلى مَخْزَنٍ سِرِّيٍّ في غُرْفَتِكَ ، يا هيرتون ! كانَتْ كُلُّ الكُتُبِ أَصْدِقاءَ قُدامى لي ، وَقَدْ أَحْضَرْتُها هُنا مِنْ ثْرَشْكروس غرانْغ ، لِماذا سَرَقْتَها مِنّي ؟ إِنَّها لَنْ تُفيدَكَ بِشَيْءٍ .»

وَاحْمَرَّ وَجْهُ هيرتون .

قالَ لوكْوُد : « لَعَلَّ هيرتون يُريدُ أَنْ يَزيدَ مِنْ مَعْلوماتِهِ .»

« أَجَلْ ، فَكَثيراً ما أَسْمَعُهُ يُحاوِلُ أَنْ يَقْرَأَ لِنَفْسِهِ ، وَيا لَها مِنْ أَخْطاءٍ طَريفَةٍ تِلْكَ الَّتي يَقَعُ فيها ! لَقَدْ سَمِعْتُكَ بِالأَمْسِ ، يا هيرتون ، وَكانَ ذَلِكَ شَيْئًا أَقْرَبَ إِلى الفُكاهَةِ . وَقَدْ سَمِعْتُكَ تُقَلِّبُ صَفَحاتِ القاموسِ بَحْثًا عَنِ الكَلِماتِ الصَّعْبَةِ ، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَسُبُّ وَتَلْعَنُ لأَنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقْرَأَ الشَّرْحَ .»

أَخَذَ هيرتون يُحَمْلِقُ – في صَمْتٍ – إِلى كاثي لِلَحْظَةٍ ، ثُمَّ عادَ وَهُوَ يَحْمِلُ سِتَّةَ كُتُبٍ أَوْ سَبْعَةً ، حَيْثُ أَلْقى بِها أَمامَها ثُمَّ صاحَ : « خُذيها ؛ أَنا لا أُريدُ أَنْ أَقْرَأَ أَبَداً ، أَوْ أَنْ أَسْمَعَ أَوْ أُفَكِّرَ فيها مَرَّةً أُخْرى !»

أَجابَتْ : « أَنا لا أُريدُها الآنَ ، فَهِيَ سَتُذَكِّرُني بِكَ ، وَلَسَوْفَ أُبْغِضُها .»

لَمْ يَسْتَطِعْ هيرتون أنْ يَتحَمَّلَ أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَفَعَها على وَجْهِها بِشِدَّةٍ . لَقَدْ فَعَلَتْ كُلَّ ما يُمْكِنُها فِعْلُهُ لِتَجْرَحَ مَشاعِرَهُ . وَكانَتْ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةَ الوَحيدَةَ الَّتي يُمْكِنُهُ أنْ يَرُدَّ بِها عَلَيْها ، ثُمَّ التَقَطَ الكُتُبَ وَقَذَفَ بِها إلى النّارِ ، وَأَخَذَ يُراقِبُها وَهِيَ تَحْتَرِقُ وَقَدْ عَلَتْ أساريرَهُ تَعْبيراتُ أَلَمٍ عَميقٍ . لَقَدْ كانَ يَأْمُلُ أنْ يَبْعَثَ الرِّضا في نَفْسِ ابْنَةِ خالِهِ الجَميلَةِ ؛ عَنْ طَريقِ دِراسَةِ كُتُبِها الأثيرَةِ لَدَيْها ، لكِنَّ النَّتيجَةَ كانَتْ أنِ احْتَرَقَتْ في النّارِ لَيْسَ فَقَطِ الكُتُبُ وَلكِنْ مَعَ الكُتُبِ احْتَرَقَتْ أيْضاً آمالُهُ .



الفصل الخامس والعشرون

مَرَّتْ ثَمانِيَةُ شُهورٍ ، وَالآنَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَكْتُبَ نِهايَةً لِقِصَّتي ، وَلَيْسَتْ هِيَ النِّهايَةَ الَّتي كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ تَكونَ ، وَلكِنَّها رُبَّما أَفْضَلُ مِنْها .

لَمْ يُحاوِلِ السَّيِّدُ لوكْوُد أَنْ يَحْظى بِرِضا كاثي ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَرَها مَرَّةً أُخْرى ، فَحالَما تَحَسَّنَتْ صِحَّتُهُ غادَرَ ثْرُشْكروس غرانْغ وَعادَ إِلى لَنْدَن .

وَسُرْعانَ ما جاءَ هيثكليف بَعْدَ ذلِكَ لِيَراني ، وَكانَ وَجْهُهُ يَنِمُّ عَلى قَلَقٍ وَحَيْرَةٍ مِمّا لَمْ أَعْهَدْهُ طَوالَ حَياتي ، كَما أَصْبَحَ أَكْثَرَ نَحافَةً أَيْضاً .

قالَ : « إِنّي أُريدُكِ ، يا إِيلين ، أَنْ تَحُلّي مَحَلَّ زيلاه في مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ؛ فَلَقَدْ سَئِمْتُ رُؤْيَةَ كاثي تَطوفُ بِالبَيْتِ حَوْلي طيلَةَ

اليَوْمِ ؛ فَعَلَيْكِ أَنْ تُحَوِّلي الغُرْفَةَ الصَّغيرَةَ الخَلْفِيَّةَ إِلى غُرْفَةِ مَعيشَتِكِ ، وَتُبْقي كاثي هُناكَ مَعَكِ .»

صَدَعْتُ بِالأَمْرِ مُنْشَرِحَةً ، وَلكِنَّ أَوَّلَ لِقائي وَإِيّاها أَصابَني في الصَّميمِ ، فَقَدْ تَغَيَّرَتْ كَثيراً خِلالَ الشُّهورِ السِّتَّةِ مُنْذُ أَنْ ماتَ والِدُها. وَخِلالَ تِلْكَ المُدَّةِ كانَتْ تَعيشُ كَأَسيرَةٍ في مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ وَحيدَةً وَبِلا صَديقَةٍ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُها أَنْ تَكونَ مُنْشَرِحَةَ الصَّدْرِ ؟

وَكانَتْ كاثي سَعيدَةً أَنْ أَكونَ مَعَها في مُرْتَفَعاتِ وَذْرِنغ ، وَقَدْ أَحْضَرْتُ مَعي لَها سِرًّا بَعْضاً مِنَ الكُتُبِ الَّتي كانَتْ في ثْرُشْكروس غرانْغ . وَهكَذا كانَ لَدَيْها شَيْءٌ ما لِتَفْعَلَهُ . وَقَدْ ظَلَّتْ لِوَقْتٍ قَصيرٍ يَغْمُرُها الرِّضا بِكُتُبِها وَبِرُفْقَتي ، ثُمَّ بَدَأَتْ تُساوِرُها الحَيْرَةُ .

لَمْ تَكُنْ تَرْغَبُ أَنْ تَمْكُثَ وَحيدَةً في غُرْفَةِ جُلوسِنا ، وَمِنْ ثَمَّ فَحينَ كُنْتُ أَعْمَلُ في المَطْبَخِ كانَتْ تَتْبَعُني ، وَلَمْ يَكُنْ هيثكليف يَأْتي إِلى المَطْبَخِ قَطُّ ، وَلكِنَّ جوزيف وَهيرتون كانا يَجْلِسانِ في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ في المَطْبَخِ .

وَلَمْ تَكُنْ كاثي – في أَوَّلِ الأَمْرِ – لِتَأْبَهَ بِهيرتون ، وَلكِنَّها غَيَّرَتْ تَصَرُّفَها بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، فَبَدَأَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَتَتَحَدَّثُ إِلَيَّ عَنْهُ . وَذاتَ مَرَّةٍ قالَتْ لي : « كَيْفَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَجْلِسَ طَوالَ أُمْسِيَةٍ

كاملةٍ وَهُوَ يَشْخَصُ إلى النّارِ ؟ إنّهُ يُشْبِهُ الكَلْبَ ، أوِ الحصانَ الّذي يَجُرُّ العَرَباتِ ؛ أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ، يا إيلين ؟ فَهُوَ لا يَفْعَلُ شَيْئًا سِوى أنْ يقومَ بِعَمَلِهِ ويأكُلَ طعامَهُ ثُمَّ ينامَ ! أيُّ عَقْلٍ غَبِيٍّ وَأجْوَفَ ذاكَ الّذي يَضُمُّهُ رَأسُهُ ؟ هَلْ أنْتَ مِمَّنْ تُداعِبُهُمُ الأحْلامُ ، يا هيرتون ؟»

وَلكِنَّ هيرتون لا يَفْتَحُ فَمَهُ بِكَلِمَةٍ أوْ يَنْظُرُ خَلْفَهُ إلَيْها .

« إنّي لأعْلَمُ لِماذا لا يَتَحَدَّثُ هيرتون مُطْلَقًا حينَ أكونُ أنا في المَطْبَخِ .» هكَذا مَضَتْ تَقولُ في مُناسَبَةٍ أُخْرى . « فَهُوَ يَخْشى أنْ أضْحَكَ عَلَيْهِ . هَلْ تَعْلَمينَ ، يا إيلين ، أنَّهُ بَدَأَ يُعَلِّمُ نَفْسَهُ ذاتَ مَرَّةٍ القِراءَةَ ، وَلأنّي ضَحِكْتُ مِنْ ذلِكَ فَقَدْ أحْرَقَ كُتُبَهُ وَهَجَرَ القِراءَةَ؟ أَ لَمْ يَكُنْ أحْمَقَ حينَ فَعَلَ ذلِكَ ؟»

قُلْتُ : « أَ وَلَمْ تَكوني أنْتِ قاسِيَةً ؟»

اِسْتَأنَفَتْ حَديثَها قائِلَةً : « رُبَّما كُنْتُ كَذلِكَ ، وَلكِنْ لَمْ أكُنْ أتَوَقَّعُ أنْ يكونَ غَبِيًّا إلى هذا الحَدِّ . لَوْ أنّي أعْطَيْتُكَ ، يا هيرتون ، كِتابًا هَلْ تَأخُذُهُ الآنَ ؟ سَوْفَ أحاوِلُ !»

وَضَعَتْ كِتابًا كانَتْ تَقْرَؤُهُ عَلى يَدِهِ ، فَقَذَفَ بِهِ بَعيدًا ، قائِلاً إنَّها إذا لَمْ تَتْرُكْهُ لِحالِهِ فَسَوْفَ يَقْصِفُ عُنُقَها .

قالَتْ : « سَوْفَ أضَعُ الكِتابَ هُنا عَلى المِنْضَدَةِ . وَالآنَ أنا

ذاهِبَةٌ لِلنَّوْمِ .»

ثُمَّ هَمَسَتْ لي لأُراقِبَ ما إذا كانَ سَيَلْمِسُ الكِتابَ أوْ لا ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ . وَلكِنَّهُ لَمْ يَقْتَرِبْ مِنَ الكِتابِ . وَلاحَظْتُ كَمْ أسِفَتْ ؛ إذْ بَعَثَتْ فيهِ الذُّعْرَ مِنَ الدِّراسَةِ ، وَحاوَلَتْ جَهْدَ طاقَتِها أنْ تَبْعَثَ فيهِ الاهْتِمامَ بِكُتُبِها مَرَّةً أُخْرى ، فَكانَتْ كَثيرًا ما تَقْرَأُ لي بِصَوْتٍ عالٍ حينَ أكونُ مُنْشَغِلَةً في عَمَلٍ ما ، وَيَكونُ هيرتون في نَفْسِ الغُرْفَةِ ، ثُمَّ تَتَوَقَّفُ عِنْدَ جُزْءٍ هامٍّ وَتَتْرُكُ الكِتابَ بِجِوارِهِ ، وَلكِنَّ هيرتون ما كانَ لِيَلْمِسَهُ .

وَلَمّا اقْتَرَبَ فَصْلُ الرَّبيعِ أصْبَحَتْ كاثي أكْثَرَ حَيْرَةً ، فَقَدْ صَدَرَ إلَيْها أمْرٌ بِألا تُغادِرَ الحَديقَةَ ، وَلكِنَّ هيرتون خَرَجَ لِيَصْطادَ في الأراضي القَفْرِ ، الأمْرُ الّذي جَعَلَها مُتَوَتِّرَةً .

وَقَعَ لِهيرتون حادِثٌ في شَهْرِ مارِس يَتَّصِلُ بِبُنْدُقِيَّتِهِ ، وَكانَ عَلَيْهِ أنْ يَلْزَمَ المَنْزِلَ ، وَيَقْضِيَ جُلَّ وَقْتِهِ في المَطْبَخِ ، مِمّا بَعَثَ السُّرورَ في نَفْسِ كاثي .

كُنْتُ ذاتَ يَوْمٍ أعْمَلُ في المَطْبَخِ بَعْدَ الظَّهيرَةِ ، وَكانَتْ كاثي تَرْسُمُ صُوَرًا عَلى النّافِذَةِ بِإصْبَعِها ، وَكانَتْ تَنْظُرُ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ إلى ابْنِ خالِها ، الّذي كانَ يَجْلِسُ إلى جِوارِ المِدْفَأَةِ في صَمْتٍ

كَعادَتِهِ ، وَسَرْعانَ ما سَمِعْتُها تَقولُ :

« لَقَدِ اكْتَشَفْتُ ، يا هيرتون ، أنّني أريدُ .. إنّني سَعيدَةٌ .. إنّني أحِبُّ الآنَ أنْ تكونَ ابْنَ خالي .»

لَمْ يَنْبِسْ هيرتون بِكَلِمَةٍ .

« هيرتون ، هيرتون ، هيرتون ، ألا تَسْمَعُني ؟»

صاح بِضَراوَةٍ : « فَلْتَذْهَبي إلى الجَحيمِ وَلْتَتْرُكيني وَحْدي !»

قالَتْ : « لا ، لَنْ أفْعَلَ ذَلِكَ . أنا لا أدْري كَيْفَ أحْمِلُكَ عَلى الكَلامِ مَعي ، فَأنْتَ ابنُ خالي وَيَجِبُ أنْ تكونَ صَديقًا لي .»

صاحَ : « لا شَأنَ لي بِكِ ، وَلا بِصَلَفِكِ التَّعِسِ ، وَلا بِحِيَلِكِ اللَّعينَةِ ؛ وَإنّي لأفَضِّلُ أنْ أذْهَبَ إلى الجَحيمِ قَبْلَ أنْ أنْظُرَ إلَيْكِ مَرَّةً أخْرى .»

قُلْتُ : « يَجِبُ أنْ تَكونَ ، يا هيرتون ، صَديقًا لابنَةِ عَمَّتِكَ ما دامَتْ قَدْ تَأسَّفَتْ لَكَ عَلى مُعامَلَتِها الفَظَّةِ ، وَالأفْضَلُ لَكَ أنْ تَتَّخِذَها صَديقَةً .»

صاحَ : « صَديقَةً ! في الوَقْتِ الَّذي تَكْرَهُني فيه وَتَحْسَبُني غَيْرَ جَديرٍ بِأنْ أنظِّفَ لَها حِذاءَها ؟»

قالَتْ كاثي وَهِيَ تَبْكي : « لَسْتُ أُبْغِضُكَ ، وَلَكِنَّكَ أنْتَ الَّذي تَبْغَضُني . إنَّكَ تَبْغَضُني بِالقَدْرِ الَّذي يَبْغَضُني بِهِ هيثكليف .»

قالَ هيرتون : « هَذا كِذْبٌ ! لَقَدْ وَقَفْتُ بِجانِبِكِ مِئاتِ المَرّاتِ وَأغْضَبْتُهُ ، فَلِماذا أفْعَلُ ذَلِكَ إذا كُنْتُ أبْغَضُكِ ؟»

أجابَتْ : « إنَّني لَمْ أعْرِفْ أنَّكَ وَقَفْتَ بِجانِبي ، وَكُنْتُ أعيشُ في بُؤْسٍ وَخُصومَةٍ مَعَ كُلِّ النّاسِ ، وَلَكِنِ الآنَ أنا أشْكُرُكَ وأطْلُبُ مِنكَ العَفْوَ عَنّي !»

مَدَّتْ يَدَها لِهيرتون وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لَها ، وَجَلَسَ وَعَيْناهُ مُثَبَّتَتانِ عَلى الأرْضِ وَ وَجْهُهُ داكِنٌ كَسَحابَةٍ عاصِفَةٍ . وَنَظَرَتْ إلَيْهِ كاثي وَهِيَ غَيْرُ واثِقَةٍ تَماماً مِنْ كَلامِهِ ، وَأظُنُّ أنَّها كانَتْ تُخَمِّنُ أنَّهُ – حَقًّا – لا يَبْغَضُها ، وَبَعْدَ لَحْظَةٍ انْحَنَتْ وَقَبَّلَتْهُ .

لَسْتُ أدْري ماذا خامَرَ هيرتون مِنْ أفكارٍ بإزاءِ قُبْلَتِها ؛ فَقَدْ خَبَأَ وَجْهَهُ لِبِضْعِ دَقائِقَ .

أحْضَرَتْ كاثي كِتاباً لَطيفاً وَبَعْضَ أوْراقٍ بَيْضاءَ ، وَ وَضَعَتِ الأوْراقَ حَوْلَ الكِتابِ وَرَبَطَتْها فيهِ بِخَيْطٍ ، ثُمَّ كَتَبَتْ عُنْوانَ هَذا الطَّرْدِ : ‹‹ إلى السَّيِّدِ هيرتون إيرنشو ›› وَطَلَبَتْ مِنّي أنْ أعْطِيَهُ إيّاهُ .

قالَتْ : « أخْبِرِيهِ إنْ كانَ يَقْبَلُ الطَّرْدَ فَسَوْفَ أجيءُ وأعلِّمُهُ كَيْفَ يَقْرَأُ الكتابَ قِراءَةً صَحيحَةً ، وَإذا كانَ يَرْفُضُهُ فَسَأَصْعَدُ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ وَأُعْفيهِ مِنْ مَتاعِبي أبَدَ الدَّهْرِ .»

حَمَلْتُ الطَّرْدَ وَأَبْلَغْتُ الرِّسالَةَ ، عَلى حينِ كانَتْ كاثي تَنْتَظِرُ النَّتيجَةَ بِتَلَهُّفٍ . وَقَدْ رَفَضَ هيرتون أَنْ يَتَسَلَّمَ الكِتابَ ، فَوَضَعْتُهُ عَلى رُكْبَتَيْهِ وَلكِنَّهُ لَمْ يُلْقِهِ بَعيداً عَنْهُ ، وَعُدْتُ أنا إلى عَمَلي . وأمالَتْ كاثي رَأْسَها وَذِراعَيْها إلى المِنْضَدَةِ حَتّى سَمِعَتْ صَوْتَ الوَرَقِ يَنْزاحُ ، ثُمَّ جَلَسَتْ بِهُدوءٍ إلى جِوارِ ابْنِ خالِها . وَأَخَذَ يَنْتَفِضُ ، وَكانَ وَجْهُهُ ساخِناً ، وفارَقَتْهُ غِلْظَتُهُ وَغَضَبُهُ .

« قُلْ لي ، يا هيرتون ، إنَّكَ عَفَوْتَ عَنّي ، لأَنَّكَ بِهذِهِ الكَلِمَةِ البَسيطَةِ سَتُسْعِدُني .»

قالَ شَيْئاً لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَبَيَّنَهُ .

أضافَتْ كاثي : « وَسَوْفَ تَكونُ صَديقاً لي .»

أجابَ : « لا ، لأَنَّكِ سَتَخْجَلينَ مِنّي طَوالَ العُمْرِ ، وَلَنْ أَسْتَطيعَ أَنْ أَتَحَمَّلَ ذلِكَ .»

قالَتْ : « وَهكَذا لا تُريدُ أَنْ تَكونَ صَديقي .» قالَتْ ذلِكَ وَهِيَ

تَبْتَسِمُ بِعُذوبَةٍ وَتَقْتَرِبُ مِنْهُ .

لَمْ أَسْمَعْ كَلِماتٍ أُخْرى ، وَلكِنْ حينَ أَجَلْتُ البَصَرَ مِنْ حَوْلي وَجَدْتُ وَجْهَيْنِ يَنْكَبّانِ عَلى صَفَحاتِ الكِتابِ ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُما أَصْبَحا صَديقَيْنِ .

الفصل السادس والعشرون

نَهضَتْ كاثي مِنْ فِراشِها في اليَوْمِ التّالي مُبكِّرَةً ، وَ وَجَدْتُها في الحَديقَةِ مَعَ هيرتون . لَقَدْ طَلَبَتْ مِنْهُ أنْ يُزيلَ بَعْضَ أغْصانِ شُجَيْراتِ الفاكِهَةِ مِنَ الأرْضِ لِيُفْسِحَ مَجالاً لِزِراعَةِ أزْهارٍ .

صِحْتُ أنا : « أوه ! ماذا سَيَقولُ رَبُّ البَيْتِ ؟ وَجوزيف ! إنَّهُ يُحِبُّ شُجَيْراتِ الفاكِهَةِ هَذِهِ .»

دَخَلْنا البَيْتَ لِنَتَناوَلَ طَعامَ الإفْطارِ ، وَكانَ مِنْ عادَةِ كاثي أنْ تَجْلِسَ بِجِواري ، وَلكِنْ في هَذا اليَوْمِ جَلَسَتْ بِالقُرْبِ مِنْ هيرتون .

وَحَذَّرْتُها بِهَمَساتٍ ألا تَتَكَلَّمَ كَثيراً إلى ابنِ عَمِّها ؛ فَإنَّ ذَلِكَ سَيُثيرُ غَضَبَ هيثكليف .

فَأجابَتْ بِأنَّها لَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ .

وَلَمْ يَمْضِ سِوى لَحْظَةٍ حَتّى جَلَسَتْ بِجِوارِهِ ، وَلَصَقَتْ أزْهاراً في طَبَقِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ هُوَ أنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الضَّحِكِ .

رَفَعَ هيثكليف بَصَرَهُ في دَهْشَةٍ ، وَأدارَ عَيْنَيْهِ في وُجوهِنا ، فَنظَرَتْ كاثي إلَيْهِ بِشَجاعَةٍ .

قالَ هيثكليف : « إنَّكِ مَحظوظَةٌ لأنَّكِ بَعيدَةٌ عَنْ مُتَناوَلي ! أيُّ شَيْطانٍ ذَلِكَ الَّذي هَبَطَ فيكِ وَجَعَلَكِ تُحَمْلِقينَ في وَجْهي بِهاتَيْنِ العَيْنَيْنِ المُرْعِبَتَيْنِ ؟ ألا فاخْفِضيها ، وَلا تَجْعَليني أحِسُّ بِوُجودِكِ مَرَّةً أخرى ، وَأظُنُّ أنَّني كُنْتُ قَدْ مَنَعْتُكِ عَنِ الضَّحِكِ .»

قالَ هيرتون : « لَقَدْ كُنْتُ أنا الَّذي مَنَعْتَني عَنِ الضَّحِكِ .» وَلكِنَّ هيثكليف لَمْ يَسْمَعْ كَلامَهُ ، وَفي تِلْكَ الأثْناءِ دَخَلَ جوزيف يَتَميَّزُ غَيْظًا وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ شُجَيْراتِ فاكِهَتِهِ .

سَألَ هيثكليف : « مِمَّ يَشْكو ، يا هيرتون ؟»

أجابَ الشّابُّ: « لَقَدِ اقْتَلَعْتُ اثْنَتَيْنِ أو ثَلاثَ شُجَيْراتِ فاكِهَةٍ ، وَسَوْفَ أزْرَعُها ثانِيَةً .»

« وَلِماذا اقْتَلَعْتَها ؟»

أجابَتْ كاثي : « لأنَّنا كُنّا نُريدُ أنْ نَزْرَعَ بَعْضَ الأزْهارِ هُناكَ ،

وَأنا وَحْدي أسْتَحِقُّ أنْ يُوَجَّهَ إليَّ اللَّوْمُ لأنّي أرَدْتُهُ أنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ .»

تَساءَلَ هيثكليف وَهُوَ في غايَةِ الدَّهْشَةِ : « أيُّ شَيْطانٍ سَمَحَ لَكِ بِأنْ تَمَسّي أيَّ شَيْءٍ هُنا ؟»

أجابَتْ : « يَجِبُ ألا تَمْنَعَ عَنّي بِضْعَةَ أمْتارٍ مِنَ الأرْضِ ، في الوَقْتِ الّذي اسْتَوْلَيْتَ فيهِ عَلى كُلِّ أرْضي !»

قالَ هيثكليف : « أرْضُكِ ! لَمْ يَكُنْ لَكِ قَطُّ أرْضٌ .»

قالَتْ : « وَنُقودي ؟»

صاحَ : « اُصْمُتي ! أكْمِلي طَعامَكِ وَانْصَرِفي .»

اِسْتَمَرَّتْ في حَديثِها : « وَأرْضُ هيرتون وَنُقودُهُ ؟ فَهيرتون وَأنا أصْبَحْنا الآنَ صَديقَيْنِ ، وَسَأُفْضي إلَيْهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْكَ .»

لَمْ يَسْتَطِعْ رَبُّ البَيْتِ أنْ يَتَكَلَّمَ لِبِضْعِ لَحَظاتٍ ، وَقَدْ شَحَبَ وَجْهُهُ ، ثُمَّ نَهَضَ وَهُوَ يَشْخَصُ إلَيْها وَتَعْبيراتُ وَجْهِهِ تَنُمُّ عَلى كَراهِيَةٍ قاتِلَةٍ .

قالَتْ : « إذا ضَرَبْتَني فَإنَّ هيرتون سَوْفَ يَضْرِبُكَ .»

صاحَ هيثكليف : « أيَّتُها الشَّيْطانَةُ ، هَلْ تَجْرُئينَ عَلى دَفْعِ هيرتون لِيُسانِدَكِ ؟ هَلْ تُحاوِلينَ أنْ تَجْعَليهِ يَنْحازُ ضِدّي ؟ خُذيها ،

يا إيلين ، بَعيداً عَنّي ! سَوْفَ أقْتُلُها إذا وَقَعَ عَلَيْها بَصَري مَرَّةً أخْرى !»

هَمَسَ لَها هيرتون بِأنْ تَذْهَبَ بَعيداً عَنْهُ .

صاحَ هيثكليف بِشَراسَةٍ : « خُذيها بَعيداً عَنّي .»

قالَتْ كاثي : « إنَّهُ لَنْ يَرْضَخَ لَكَ بَعْدَ الآنَ ، أيُّها الشِّرّيرُ ! وَسُرْعانَ ما سَيُبْغِضُكَ كَما أُبْغِضُكَ أنا .»

قالَ هيرتون لِكاثي : « اِهْدَئي ، فَأنا لا أسْمَحُ لَكِ أنْ تَتَحَدَّثي إلَيْهِ بِهَذِهِ اللَّهْجَةِ !»

صاحَتْ : « وَلَكِنَّكَ لَنْ تَسْمَحَ لَهُ بِأنْ يَضْرِبَني ؟»

قالَ لَها هامِساً : « تَعالَيْ إذاً بَعيداً .»

لَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ العَذَلَ ؛ فَقَدْ أمْسَكَ بِها هيثكليف .

قالَ لِهيرتون : « دَعْها لي الآنَ ، فَقَدْ تَعَدَّتْ كُلَّ الحُدودِ هَذِهِ المَرَّةَ ، وَلَنْ يُمْكِنَني أنْ أتَحَمَّلَ ذَلِكَ . وَسَوْفَ أجْعَلُها تَنْدَمُ طَوالَ حَياتِها !»

أمْسَكَ بِشَعْرِها ، وَأبْرَقَتْ عَيْناهُ بِالشَّراسَةِ ، وَبَدا أنَّهُ موشِكٌ عَلى أنْ يُمَزِّقَ كاثي إرْباً إرْباً .

وَ فَجأةً نَزَعَ يَدَهُ مِنْ شَعْرِها ، وَأخَذَ يُحدِّقُ في وَجْهِها مُحاوِلاً أنْ يُهدِّئَ مِنْ نَفْسِهِ لِلَحظَةٍ ، ثُمَّ قالَ بِهُدوءٍ : « يَجِبُ أنْ تَتَعلَّمي كَيْفَ تَتَجَنَّبينَ إثارَةَ غَضَبي ، وَإلّا فَإنَّني سَوْفَ أقْتُلُكِ يَوْماً ما !» ثُمَّ خَرَجَ .

اِسْتَقَرَّ الصَّديقانِ الجَديدانِ في غُرْفَةِ المَعيشَةِ ، وَبَدأتْ كاثي تَتَحَدَّثُ عَنْ تَصرُّفاتِ هيثكليف السَّيِّئَةِ في وَقْتٍ مَضى ، وَلكِنَّ هيرتون أوْقَفَها بِحَزْمٍ ، فَهيثكليف كانَ – في رأيِهِ – بِمَثابَةِ أبٍ لَهُ، فَهُوَ لا يَتَحمَّلُ أيَّ كَلِمَةٍ تُوَجَّهُ ضِدَّهُ. وَكانَتْ كاثي تَتَفَهَّمُ مَشاعِرَهُ، وَلَمْ تَتَكَلَّمْ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ . وَأحْضَرَتْ كِتاباً ، وَراحَ الاثْنانِ يَقْرَآنِ مَعاً ، وَكانا لا يَزالانَ مَعاً حينَ دَخَلَ رَبُّ البَيْتِ ؛ فَقَدْ دَخَلَ فَجأةً وَلَمحَنا نَحْنُ الثَّلاثَةَ مَعاً . وَرَفَعَتْ كاثي وَهيرتون عُيونَهُما في وَقْتٍ واحِدٍ ، وَكانَتْ مُتَماثِلَةً تَماماً ؛ إذْ كانَتْ تُماثِلُ عَيْنَي كاثرين إيرنشو .

وَقَدْ حَدَّقَ فيهِما هيثكليف لِلَحْظَةٍ وَبَدا قَلِقاً ، ثُمَّ أشارَ إلَيْهِما بِأنْ يَخْرُجا ، وَكُنْتُ أنا موشِكَةً أنْ أخْرُجَ أيْضاً ، وَلكِنَّهُ أمَرَني بِأنْ أظَلَّ حَيْثُ كُنْتُ .

قالَ : « إنَّها لَنِهايَةٌ مُحزِنَةٌ لِكُلِّ ما عَمِلْتُهُ – أ لَيسَ كَذلِكَ ؟ لَقَدْ قَضَيْتُ حَياتي أسْعى لِتَدْميرِ هاتَيْنِ العائِلَتَيْنِ ، وَحينَ أصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدًّا لِهَذا وَتَحْتَ قَبْضَةِ يَدي ، إذا بِالرَّغْبَةِ الكامِنَةِ في

قَلْبي قَدْ خَبَتْ وَخَفَتَتْ . وَالآنَ لَقَدْ حانَ الوَقْتُ لأنْتَقِمَ لِنَفْسي مِنْ أوْلادِ أعْدائي ، وَلَكِنْ أيَّةُ فائِدَةٍ تَتأتّي مِنْ ذَلِكَ ؟ إنَّني لا أسْتَطيعُ أنْ أُكَلِّفَ نَفْسي عَناءَ رَفْعِ يَدي ! لَقَدْ فَقَدْتُ الرَّغْبَةَ في التَّمَتُّعِ بِتَدْميرِهِمْ .»

أخَذَ يَروحُ وَيَغْدو في الغُرْفَةِ ، ثُمَّ قالَ : « دَعيني ، يا إيلين ، أخْبِرْكِ بِما أعاني ! إنَّ مَرْأى هَذَيْنِ الشّابَّيْنِ يُؤْلِمُني ألَماً مُخيفاً . إنَّني لا أُريدُ أنْ أُفَكِّرَ فيها ، فَوُجودُها يَدْفَعُ بي إلى الجُنونِ . وَحينَ أنْظُرُ إليهِ أجِدُ نَفْسي مُتَمَثِّلاً فيه كَما كُنْتُ ذاتَ يَوْمٍ ، وَفي نَفْسِ الوَقْتِ يُذَكِّرُني بِكاثرين : فَهُوَ يُشْبِهُها إلى حَدٍّ كَبيرٍ ، وَلَكِنْ لَيْتَ شِعْري أيُّ شَيْءٍ ذاكَ الّذي لا يُذَكِّرُني بها ؟ فَأنا أراها في كُلِّ سَحابَةٍ تَمُرُّ وَفي كُلِّ شَجَرَةٍ ؛ فَهِيَ تَمْلأُ الهَواءَ حَوْلي فَوَجْهُها أمامي دائِماً ، وَكُلُّ العالَمِ يُذَكِّرُني بِأنّي قَدْ فَقَدْتُها !»

وَتَوَقَّفَ عَنِ الكَلامِ ، ثُمَّ أضافَ : « سَوْفَ يَطْرأُ عَلَيَّ تَغَيُّرٌ عَجيبٌ، يا إيلين ، وَأنا أعيشُ في ظِلالِهِ الآنَ . أنا لا أشْعُرُ بِلَذَّةٍ في حَياتي لِدَرَجَةِ أنّني لا أتَذَكَّرُ أنْ أتَناوَلَ طَعامي .»

قُلْتُ وَقَدْ فَزِعْتُ لِحالَتِهِ : « ماذا تَعْني ، يا سَيِّدُ هيثكليف ، بِالتَّغْييرِ؟»

قالَ : « سَوْفَ لا أعْرِفُ ذَلِكَ إلى أنْ يأتِيَ التَّغْيِيرُ .»

« أتَشْعُرُ بِمَرَضٍ ؟»

« لا ، يا إيلين ، لا أشْعُرُ بِمَرَضٍ .»

مَضَيْتُ في الحَديثِ : « أنتَ إذاً لا تَخْشَى المَوْتَ ؟»

أجابَ : « أخْشَى المَوْتَ ! لا ، لا أخْشَى المَوْتَ ، وَلا أُفَكِّرُ فيهِ . وَقَدْ أعيشُ بِصِحَّتي الجَيِّدَةِ هَذِهِ إلى أنْ أبْلُغَ مِنَ العُمْرِ عِتِيّاً ، غَيْرَ أني لا أسْتَطيعُ أنْ أسْتَمِرَّ على هَذِهِ الحالِ . وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيَّ أنْ أُذَكِّرَ نَفْسي بِأنْ أتنفَّسَ ، وَأُذَكِّرَ قَلْبي بِأنْ يَنْبِضَ ! وَتَتَمَلَّكُني رَغْبَةٌ واحِدَةٌ وأَمَلٌ واحِدٌ : أنْ أَصِلَ إلَيْها . وَأنا مُتأكِّدٌ أني سأفْعَلُ ذَلِكَ وَسَريعاً ؛ لأنَّ هَذِهِ الرَّغْبَةَ قَدْ طَغَتْ على حَياتي حَتّى كأنَّها ابْتَلَعَتْها . يا إلَهي ! إنَّهُ لَصِراعٌ طَويلُ الأمَدِ ، وَكَمْ أتَمَنّى أنْ يَنْتَهِيَ هَذا الصِّراعُ !»

الفصل السابع والعشرون

عَقِبَ هَذِهِ الأمْسِيَةِ ، بَدَأ هيثكليف يَقْضي وَقْتاً أطْوَلَ وَحيداً ، وَكانَ يَتَجَنَّبُ مُقابَلَتَنا في وَقْتِ تَناوُلِ الطَّعامِ . وَيَبْدو أنَّ تَناوُلَ وَجْبَةٍ واحِدَةٍ خِلالَ أرْبَعٍ وَعِشْرينَ ساعَةً كانَتْ كافِيَةً لَهُ كَطَعامٍ يَوْمِيٍّ .

وَذاتَ لَيْلَةٍ سَمِعْتُهُ يَخْرُجُ في وَقْتٍ مُتأخِّرٍ ، وَلَمْ يَرْجِعْ حَتّى الصَّباحِ . وَحينَ دَخَلَ المَنْزِلَ حَمْلَقْتُ فيهِ في دَهْشَةٍ ؛ إذْ بَدا مُنْتَعِشاً مَسْروراً تَقْريباً ، وَلَكِنَّهُ كانَ شاحِبَ الوَجْهِ ، وَكانَ جِسْمُهُ يَنْتَفِضُ وَتَنَفُّسُهُ سَريعاً .

رَفَضَ تَناوُلَ طَعامِ الإفْطارِ ، وَلَكِنْ حينَ حانَ وَقْتُ الظَّهيرَةِ جَلَسَ مَعَنا لِلأكْلِ ، وَقَدْ وَضَعْتُ كَوْمَةَ أكْلٍ في طَبَقِهِ . وَالْتَقَطَ سِكّينَهُ وَشَوْكَتَهُ لِيأكُلَ ، وَفَجْأةً وَضَعَهُما على المِنْضَدَةِ ، وَبَدَأ يَتَطَلَّعُ بِشَغَفٍ نَحْوَ النّافِذَةِ ، ثُمَّ نَهَضَ وَخَرَجَ . وَدَخَلَ المَنْزِلَ بَعْدَ ساعَةٍ أوْ اثْنَتَيْنِ ، وَذَهَبَ إلى غُرْفَةِ المَعيشَةِ . وَفي السّاعَةِ الثّامِنَةِ قَرَّرْتُ أنْ أحْمِلَ

شَمعَةً وَعَشاءً لَهُ ، وَكانَ يَتَّكِئُ عَلى نافِذَةٍ مَفْتوحَةٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ إلى الخارِجِ ، وعادَ بِبَصَرِهِ إلى الغُرْفَةِ المُعْتِمَةِ .

سَأَلْتُهُ : « هَلْ تُريدُ أَنْ أُغْلِقَ النّافِذَةَ ؟» وكانَ ضَوْءُ الشَّمْعَةِ يَسْقُطُ عَلى وَجْهِهِ ، وَقَفَزْتُ إلى الخَلْفِ مَذْعورَةً. يا لَهاتَيْنِ العَيْنَيْنِ السَّوْداوَيْنِ الغائِرَتَيْنِ ! ما هَذِهِ الابْتِسامَةُ وَهَذا الشُّحوبُ المُخيفُ ؟! وَبَدا أَنَّ ذَلِكَ الإنْسانَ لَيسَ هيثكليف ، بَلْ إنَّهُ الشَّيْطانُ !

قالَ بِصَوْتِهِ العادِيِّ : « نَعَمْ ، أَغْلِقيها . وَأَرْجوكِ ، يا إيلين ، أَنْ تُنَبِّهي هيرتون وَكاثي إلى أَنْ يَبْتَعِدا عَنّي ، فَأَنا لا أُريدُ أَنْ أَرى أَحَداً مَنْ كانَ .»

قُلْتُ : « أَرجو أن تُخبِرَني ، يا سَيِّدُ هيثكليف ، لِماذا تَبْدو غَريبَ الأَطْوارِ ؟ أَيْنَ كُنْتَ في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ ؟ إنّي لأَسأَلُ هَذا لا مِنْ بابِ الفُضولِ ، وَلَكِنْ ...»

قاطَعَني ضاحِكاً : « إنَّكِ تَتَساءَلينَ مِنْ بابِ الفُضولِ ، وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكِ : كُنْتُ في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ عَلى حافَةِ جَهَنَّمَ ، وَلَكِنّي اليَوْمَ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ سَمائي . إنَّ عَيْنَيَّ عَلَيْها ؛ فَهِيَ عَلى بُعْدِ مِتْرَيْنِ أَوْ أَقَلَّ مِنّي ! وَالآنَ أُفَضِّلُ أَنْ تَذْهَبي .»

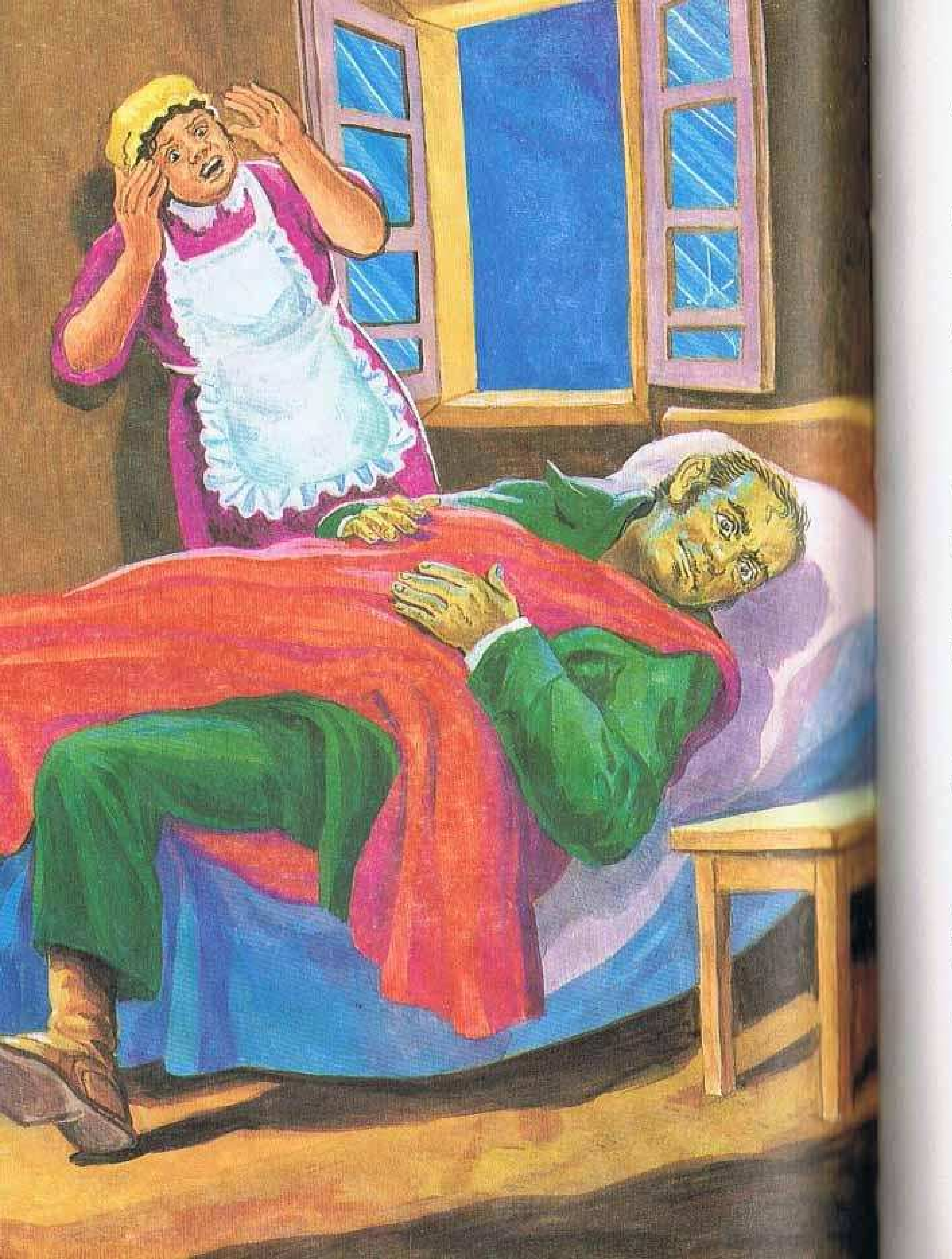
وَسُرْعانَ ما سَمِعْناهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَصْعَدُ لِلطّابَقِ العُلْوِيِّ إلى غُرْفَةِ كاثرين القَديمَةِ ، فَأَخَذْتُ أُفَكِّرُ : هَلْ هُوَ إنْسانٌ أَمْ روحٌ شِرِّيرَةٌ ؟

وَقَدْ تَذَكَّرْتُ وَأَنا سابِحَةٌ في التَّفْكيرِ قِصَصاً غَريبَةً كُنْتُ قَدْ قَرَأْتُها ، ثُمَّ رَجَعَتْ بِيَ الذّاكِرَةُ إلى الوَراءِ عِنْدَما كُنْتُ أَرْعاهُ طِفْلاً وأُراقِبُهُ وَهُوَ يَنْمو ، وتَتَبَّعْتُهُ خِلالَ كُلِّ مَراحِلِ حَياتِهِ ، وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ جاءَ هَذا الشَّيْءُ الأَسْمَرُ الصَّغيرُ ؟

نَزَلَ هيثكليف لِتَناوُلِ طَعامِ الإفْطارِ في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ كُلُّ مَنْ كانَ في البَيْتِ . وجَلَسَ في مَكانِهِ المُعْتادِ يُحَمْلِقُ في الجِدارِ المُواجِهِ لَهُ ، وَكانَتْ عَيْناهُ تَتَحَرَّكانِ إلى أَعْلى وأَسْفَلَ بِتَلَهُّفٍ وَحَيْرَةٍ مُضْطَرِبَةٍ .

قالَ : « اِلْتَفِتي إليَّ ، يا إيلين ، وَأَخْبِريني هَلْ نَحْنُ وَحْدَنا ؟»

أَجَبْتُ : « نَعَمْ ، وَحْدَنا .» وَأَدْرَكْتُ في الحالِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ إلى الجِدارِ ، بَلْ كانَ يَنْظُرُ إلى شَيْءٍ يَبْعُدُ عَنْهُ إلى الأَمامِ حَوالَى مِتْرَيْنِ . وَمَهْما كانَ مِنْ أَمْرِ هَذا الشَّيْءِ فَقَدْ بَدا أَنَّهُ مَبْعَثُ السُّرورِ العَظيمِ وَالأَلَمِ العَظيمِ مَعاً . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الشَّيْءُ ثابِتاً ، وَكانَتْ عَيْناهُ تَتْبَعانِهِ . وَفَجْأَةً دَفَعَ بِأَدَواتِ المائِدَةِ بَعيداً ، ثُمَّ اتَّكَأَ عَلى المِنْضَدَةِ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلى الأَكْلِ أَو الشَّرابِ ، سَواءً في ذَلِكَ الوَقْتِ أَوْ في أَيِّ وَقْتٍ آخَرَ خِلالَ الأَيّامِ الثَّلاثَةِ التّالِيَةِ . وَكانَ يَقْضي وَقْتَهُ خارِجَ المَنْزِلِ في هَذِهِ الأَثْناءِ ، أَوْ يَجْلِسُ وَحيداً في غُرْفَةِ الجُلوسِ ، أَوْ يَتَمَشّى في الغُرْفَةِ جيئَةً وَذَهاباً وَهُوَ



يَجْتَرُّ حَيْرَتَهُ . وَبَعْدَ ظَهِيرَةِ اليَوْمِ الثَّاني جاءَ إلى المَطْبَخِ وطَلَبَ مِنّي أَنْ أَجْلِسَ إِلَيْهِ ، فَرَفَضْتُ ؛ لَقَدْ كُنْتُ في خَوْفٍ من نَظْرَتِهِ الشَّرِسَةِ .

اِلْتَفَتَ إلى كاثي قائِلاً وَهُوَ يَضْحَكُ ساخِراً : « هَلاّ جِئْتِ ، يا عَزيزَتي ؟ لا ، فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسي لَكِ أَسْوأَ مِنَ الشَّيْطانِ . حَسَناً.. هُناكَ شَخْصٌ لا يَرْفُضُ رُفْقَتي . أُقْسِمُ بِاللهِ إِنَّهُ لَيْسَ في قَلْبِها رَحْمَةٌ ! إِنَّها بَلَغَتْ حَدًّا لا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَتَحَمَّلَها فيهِ – حَتّى أَنا لا أَتَحَمَّلُها . »

لَمْ يَطْلُبْ رُفْقَتَنا مَرَّةً أُخْرى . وَفي أَثْناءِ اللَّيْلِ سَمِعْتُ أَصْواتاً صادِرَةً مِنْ غُرْفَةِ نَوْمِهِ ، وَذَهَبْتُ لأَتَسَمَّعَ خارِجَ بابِها ، فَخُيِّلَ لي أَنَّهُ كانَ يَتَكَلَّمُ مَعَ شَخْصٍ آخَرَ في الغُرْفَةِ . وَالكَلِمَةُ الوَحيدَةُ الَّتي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْمَعَها بِوُضوحٍ هِيَ كَلِمَةُ « كاثرين » تَتْبَعُها كَلِماتُ حُبٍّ وَآلامٍ .

في اليَوْمِ التّالي مَكَثَ هيثكليف في غُرْفَتِهِ ، وَكانَ قَدْ أَغْلَقَ الغُرْفَةَ بِالقُفْلِ ، وَرَفَضَ أَنْ يَفْتَحَها طَوالَ اليَوْمِ .

كانَتْ تِلْكَ الأُمْسِيَّةُ غَزيرَةَ المَطَرِ ؛ فَقَدْ ظَلَّ يَسْقُطُ طَوالَ اللَّيْلِ . وَحينَ كُنْتُ أَقومُ بِرِياضَةِ الصَّباحِ حَوْلَ المَنْزِلِ ، رَأَيْتُ نافِذَةَ رَبِّ المَنْزِلِ مَفْتوحَةً عَلى مِصْراعَيْها ، وَالمَطَرُ يَتَدَفَّقُ داخِلَ الحُجْرَةِ . وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ هيثكليف بِالخارِجِ ؛ لِذا قَرَّرْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَأَتَفَحَّصَ

الأمْرَ . وَ وَجَدْتُ مِفتاحاً آخَرَ لأفْتَحَ بِهِ البابَ .

كانَ هيثكليف في الفِراشِ راقِداً على ظَهْرِهِ . وَالْتَقَتْ عَيْنايَ عَيْنَيْهِ ، وَكانَتا بَرّاقَتَيْنِ مَمْلوءَتَيْنِ شَراسَةً إلى حَدٍّ أَنّي قَفَزْتُ إلى الخَلْفِ مِنْ فَرْطِ فَزَعي ، ثُمَّ بَدا لي أنهُ يَبْتَسِمُ . وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُصَدِّقَ أَنَّهُ ماتَ ، وَلكِنَّ وَجْهَهُ وَعُنُقَهُ غَسَلَهُما المَطَرُ ، كَما بَلَّلَ مَلابِسَه. وَكانَ صامِتاً تَماماً ، وَلَمَسْتُ يَدَهُ فَوَجَدْتُها بارِدَةً تَماماً ؛ فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ ماتَ !

أَغْلَقْتُ النّافِذَةَ ، وَأَزَحْتُ شَعْرَهُ الأَسْوَدَ الطَّويلَ إلى الخَلْفِ ، وَحاوَلْتُ أَنْ أَسْبِلَ عَيْنَيْهِ ، وَ أُبعِدَ حَمْلَقَةَ الفَرَحِ المُخيفَةَ الَّتي بَدَتْ وَكَأَنَّ فيها بَصيصَ حَياةٍ ، قَبْلَ أن يَراها أيُّ شَخْصٍ آخَرَ ، وَلَمْ تَلِنْ عَيْناهُ لِلإغْلاقِ ، وَبَدَتا كَأَنَّهُما تَسْخَرانِ مِنْ مُحاوَلاتي إغْلاقَهُما ، فاعْتَراني خَوْفٌ شَديدٌ ، وَنادَيْتُ جوزيف .

صاحَ جوزيف حينَ رَآهُ : « لَقَدِ اخْتَطَفَ الشَّيْطانُ روحَهُ ! كَمْ يَبْدو شِرّيراً وَهُوَ يَبْتَسِمُ لِلْمَوْتِ !»

قُمْنا بِدَفْنِ هيثكليف ـ وَفْقَ رَغْبَتِهِ ـ إلى جِوارِ كاثرين . وَ لَمْ يُعانِ سِوى واحِدٍ لِمَوْتِهِ ، وَكانَ ذلِكَ الشَّخْصُ هُوَ هيرتون ، فَقَدِ انْهَمَرَتِ الدُّموعُ عَلى وَجْهِهِ حينَ غَطّى القَبْرَ بِالعُشْبِ .

نَحْنُ الآنَ في شَهْرِ سبتمبر (أيلول) ، وَكانَ قَبْرُ هيثكليف

مُسْتَوِياً وأَخْضَرَ كَقَبْرَيْنِ بِجِوارِهِ . وَآمُلُ أَنْ يَرْقُدَ في قَبْرِهِ في سَلامٍ مِثْلَهُما ! وَلكِنَّ أَهْلَ الرِّيفِ يَقولونَ إِنَّهُ يَمْشي : فَالبَعْضُ يَقولُ إِنَّهُمْ رَأَوْهُ مَعَ امْرَأةٍ قُرْبَ الأَراضي البورِ ، وَفي هَذا المَنْزِلِ أَيْضاً .

لَمْ أَرَ بِنَفْسي أَيَّ شَيْءٍ مِمّا يُقالُ ، وَلكِنّي لا أُحِبُّ الخُروجَ في الظَّلامِ ، وَلا أُحِبُّ أَنْ أَبْقى وَحيدَةً في هَذا المَنْزِلِ الحَزينِ ، وَسَوْفَ أَكونُ سَعيدَةً لَوْ قُيِّضَ لي أَنْ أَتْرُكَهُ .

وَالآنَ سَيَتَزَوَّجُ هيرتون وَكاثي في اليَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ العامِ الجَديدِ، ثُمَّ يَنْتَقِلانِ إلى ثْرشكروس غرانغ وَسَأَذْهَبُ مَعَهُمْ ، وَسَيَبْقى جوزيف لِيُشْرِفَ عَلى مُرْتَفَعاتِ وَذِرنغ ، وَسَوْفَ يُشارِكُهُ في الإشْرافِ الأَشْباحُ الَّتي تُحِبُّ أَنْ تَعيشَ هُنا .

وَفي مَساءِ أَمْسِ مَشَيْتُ إلى المَقابِرِ ، وَذَهَبْتُ لأَنْظُرَ إلى شَواهِدِ القُبورِ الثَّلاثَةِ عَلى المُنْحَدَرِ المُجاوِرِ لِلأَراضي البورِ ؛ فَوَجَدْتُ قَبْرَ كاثرين مُغَطّى نِصْفُهُ بِالنَّباتاتِ ، وَكانَتِ الأَعْشابُ عَلى قَبْرِ إدغار قَليلَةً ، عَلى حينِ كانَ قَبْرُ هيثكليف عارِياً . وَ وَقَفْتُ هُناكَ لِبِضْعِ دَقائِقَ في ذَلِكَ الجَوِّ اللَّطيفِ ، وَأَصْغَيْتُ إلى الرّيحِ الرَّقيقَةِ الَّتي تَبْعَثُ بِأَنْفاسِها خِلالَ الأَعْشابِ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَخَيَّلَ رُقاداً مُضْطَرِباً لِلرّاقِدينَ في تِلْكَ الأَرْضِ الهادِئَةِ .

الروايات المشهورة

١ - جين إير
٢ - فرانكنشتاين
٣ - مونفليت
٤ - دراكولا
٥ - لورنا دون
٦ - دكتور جيكل ومستر هايد
٧ - شي الملكة الأسطورة
٨ - كونت مونت كريستو
٩ - الرجل الخفي
١٠- الزمن العصيب
١١- الزنبقة السوداء
١٢- الأمير و الفقير
١٣- سايلاس مارنر
١٤- الوادي الغاضب
١٥- أوليفر تويست
١٦- داڤيد كوپرفيلد
١٧ - ذات الرداء الأبيض
١٨ - مرتفعات وذرنغ

مكتبة لبنان ناشرون

زوق مصبح، كسروان ـ لبنان

رقم الكتاب 01C 198119